

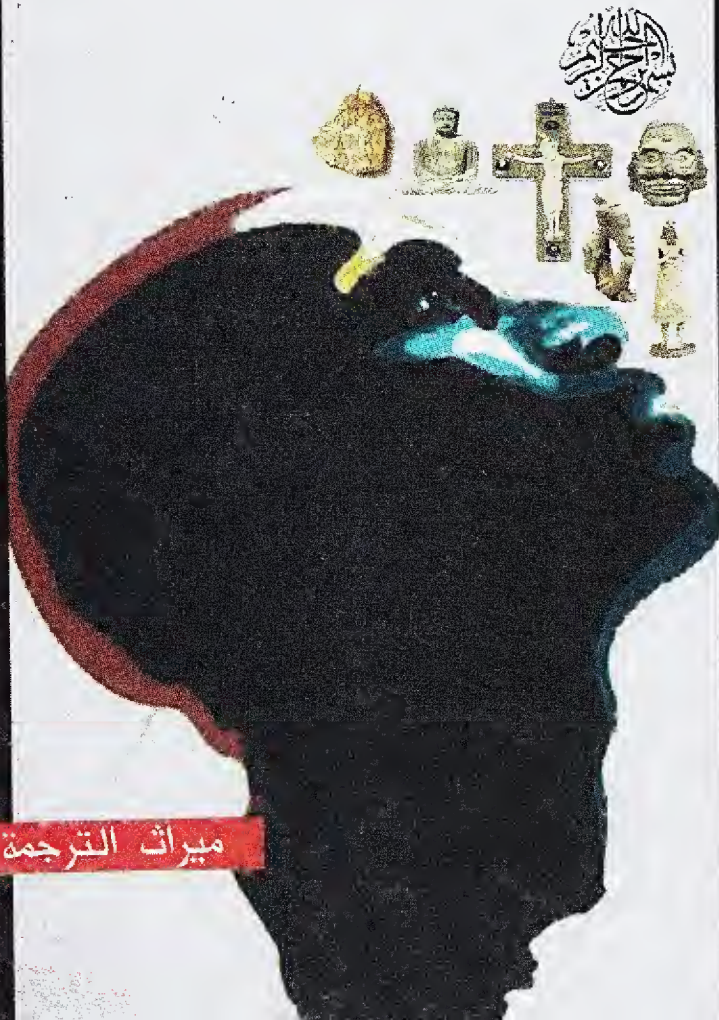
هوبير ديشان

الديانات في أفريقيا السوداء

ترجمة: أحمد صادق حمدي

مراجعة: محمد عبد الله دراز

تقديم: مصطفى لبيب



ميراث الترجمة

الديانات في أفريقيا السوداء

المركز القومي للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ بإشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1769
- الديانات فى أفريقيا السوداء
- هوبير ديشان
- أحمد صادق حمدي
- محمد عبد الله دراز
- مصطفى لبيب
- 2011

هذه ترجمة كتاب:

Les Religions De L'afrique Noire
Par: Hubert Deschamps

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.
شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

الديانات فى أفريقيا السوداء

تأليف: هوبير ديشان
ترجمة: أحمد صادق حمدى
مراجعة: محمد عبد الله دراز
تقديم: مصطفى البيب



2011

يشان، هوبير.

الديانات في أفريقيا السوداء/ تأليف: هوبيرد
يشان، ترجمة: أحمد صادق حمدي؛ مراجعة:
محمد عبد الله دراز؛ تقديم: مصطفى لبيب. -
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١ .
٢٠٨ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك ١ ٨٤١ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - الديانات المقارنة.

أ - حمدي، أحمد صادق. (مترجم)

ب - دراز، محمد عبد الله. (مراجع)

هـ - لبيب، مصطفى. (مقدم)

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠١١ / ٥٥٦٤

I. S. B. N 978 - 977 - 421 - 841 - 1

ديوى ٢٩١

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب
الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي
اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

تقديم

مؤلف هذا الكتاب، أستاذ بمعهد الأجناس البشرية، وبمعهد الدراسات السياسية بجامعة باريس، وكان قد شغل منصب حاكم المستعمرات الفرنسية في غرب أفريقيا. وصفة "أفريقيا السوداء" التي جاءت في عنوان الكتاب إنما تدلُّ على شعوب L'Afrique noire أفريقيا الغربية والشرقية وعلى أفريقيا الاستوائية وأعلى النيل وجنوب القارة، وذلك تمييزاً لها عن الشمال الأفريقي (بلاد المغرب العربي) ومصر.

إن هذا الكتاب، الذي صدر منذ حوالي سبعين عاماً، هو وصفٌ للأحوال الدينية بأشكالها المتنوعة في الفترة التي عايشها المؤلف عن كثب؛ غير أن ما حدث من تطور لاحق يجعل لبعض ما أورده المؤلف من أحكام قيمةً نسبيةً تستوجب المراجعة، كما أن التوزيع الجغرافي لإحصاءات الطوائف الدينية العديدة يبتعد كثيراً عن الواقع الراهن : إذ من المقرر الآن أن أفريقيا هي قارة الإسلام بالنسبة لتعداد سكانها إذا ما قورنت ببقية قارات العالم.

(أ)

فى المقدمة الرصينة التى أثبتتها "محمد عبدالله دراز" مراجع الكتاب للترجمة العربية يُنبّه إلى أن الدراسات الأفريقية "أصبحت شعبة مهمة من شعب العلوم الإنسانية فى هذا العصر. وقد لاحظ الباحثون فى شئون أفريقيا أن الدين هو العنصر الفعّال والقوة المحرّكة فى حياة المجتمع الزنجى، ولذلك اتخذوه نقطة ارتكاز فى سائر أبحاثهم. وأفادت الهيئات التبشيرية من هذه الحقائق فوضعت منهجها على هذا الأساس، وكان من نتائج ذلك أن تُرجم الإنجيل إلى عدة لغات أفريقية كاللغة السواحلية وغيرها. هكذا سبقتنا أوربا إلى هذه الدراسات الأفريقية وجعلتها جزءاً من تفكيرها وثقافتها، ورسمت على ضوئها سياستها الإدارية والتبشيرية وكان حرياً بمصر أن تسبق الأمم الأخرى لا لأن صلة مصر بداخل القارة أقدم من أن يُعرف أولها، بل لأن حاضرمصر ومستقبلها ومركزها الجغرافى كل أولئك يفرض عليها أن تُضاعف اهتمامها بشئون أفريقيا التى هى الوطن الكبير للأمة المصرية".

إن موضوع الكتاب الأساسى هو بيان تنوع صور الحياة الدينية الوثنية القديمة والحديثة وما يسودها من اعتقاد بالقوى الحيوية، وما يقترن بهذه المعتقدات من طقوس وممارسات خاصة ومن مُحرمات ووسائل تطهر، وبيان الترابط الوثيق عند الأفارقة بين الأحياء والأموات. وفى القسم الثانى من الكتاب يعرض المؤلف لأوضاع الديانتين السماويتين العالميتين اللتين انتشرتتا فى أفريقيا وهما الإسلام والمسيحية، وكيف ظلّ الموروث الدينى القديم حياً يعمل عمله فى الحفاظ على الشخصية الأفريقية المتميّزة. فالتدين - كان ولا يزال - هو حجر الزاوية فى أى نظام اجتماعى أو سياسى أو اقتصادى، خلافا لما قد يتبادر إلى الأذهان.

(ب)

ويبدأ المؤلف بتناول المعتقدات الوثنية فيشير إلى شيوع الاعتقاد بوجود قوى حيوية لا يختص بها الإنسان الحي وحده، بل تعمُّ الأموات، وتدور في الطبيعة بأجمعها فتسرى فيها كأنها سيال كهربائي يربط بينها. فهي طاقة موزعة بين الحيوان والنبات والأشياء التي تعمّر أرجاء الطبيعة والكائنات التي فوق الطبيعة، ووظيفتها أن تصون كيان الجسم الذي يحملها، ومظاهرها لدى الإنسان الحياة والحركة والكلام. وهي إما موقوتة فيه فيعرض له الموت، وإما دائمة فيكتب له الخلود. ويشير المؤلف إلى اعتقاد بعض القبائل الأفريقية أن أرواح الموتى مرهوبة الجانب جدا، وأن السحرة يتصلون بها ويخاطبونها. وأن البعض يزعم أن من هذه الأرواح ما يُصبح مفترسا، ولذلك يقدمون القرابين لجثة الميت عندما تُحمل إلى مقرها الأخير، وإلى الاعتقاد بتعدد الأنفس، وأن الاضطرابات العقلية التي قد تصيب أحد الأشخاص إنما ترجع إلى تنافس روحيين في الحلول في جسده. كما تعتقد بعض القبائل الكينية أن لكل شخصين نفسين إحداهما تنفصل عن الجسد عند الموت لتنضم إلى نفس أسلافها، والأخرى نفسٌ جماعية، وهي جزء من روح الأسرة التي تحل في جسد أحد أعضائها بصفة موقوتة إلى أن تحلّ فيما بعد في جسم مولود في الجماعة.

وللأسلاف مكانة مهمة ، فهم إن كانوا أمواتا إلا أنهم أحياء، والخطر يتهدّد القبيلة إذا أهملت الشعائر الدينية الواجبة لهم أو إذا أهدرت محرّماتهم. وأرواح الأسلاف هي التي تضمن للقبيلة الاستمرار والبقاء. ويرتبط الأحياء بموتاهم في الأسرة والقبيلة برباط وثيق من الالتزامات... وقد تُقام بين وقت وآخر ولائم دينية يشترك فيها الموتى مع الأحياء في وحدة روحية، وتوزّع في هذه الولائم الأضاحي والصدقات.

(ج)

ويظهر الموتى لذويهم فى الحلم ناصحين أو مقررّعين أو مطالبين بما أهمله أبناؤهم من القربان الواجبة لهم، هذا إلى أن البعض يستطيعون الاتصال بالموتى عن طريق الكهانة.

وتتكوّن الهيئة الاجتماعية فى القبيلة من الموتى والأحياء جميعا، على أساس تبادل المنفعة والخدمات بينهما. فالموتى هم الرؤساء الفعليون فى الأسرة والقبيلة، وهم القوّامون على استمرار مراعاة التقاليد، ولهم حق الثواب والعقاب.

إن التماسك الاجتماعى ومراعاة النظام والاشتراك فى الحياة العامة وحفلاتها الدينية، والمساواة المادية إلى حد ما، وتبادل الاحترام كلها فروض مكفولة وميسورة بسلطان القوى التى تسهر دائما على التمسك بالتقاليد، والتى تعبّر بتشريعيها الحكيم عن اندماج الإنسان فى النظام العالمى . وأقصى ما يُصيب الفرد أن يُطرد من الهيئة الاجتماعية للقبيلة، لأن قوته الحيوية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالقوة الحيوية من ناحية وبقوة باقى الجماعة من ناحية أخرى.

وهذه الهيئة الاجتماعية القوية المتماسكة تقوم على أساس دقيق من النظام التدريجى الذى يشمل الموتى والأحياء، فلكل مرتبته الخاصة به. والسن العالية ثم الجنس هما اللذان يُحدّدان الأوضاع الاجتماعية. وتعتبر كل أسرة نفسها فى كفالة أجدادها من الموتى ورئيسها من الأحياء. وينهى المؤلف فصله الممتع هذا بملاحظة يقول فيها : إن الزوج لا يُفرّقون بين الطبيعة وما وراء الطبيعة فالكون عندهم وحدة لا تتجزأ .

بعد ذلك يبيّن المؤلف عبادة بعض القبائل الأفريقية للطبيعة (الحيوان والنبات والمعادن والأشياء). وعلى الرغم من أن بعض القبائل فى جنوب

أفريقيا قد أصبحت مسيحية إلا أنهم ما زالوا يطلقون على أنفسهم أسماء الحيوان فيحتفظون بذكريات ديانتهم الوثنية. ويتطرق المؤلف إلى ذكر عبادة الأرض والعناصر والنجوم. وحول أفكار الأفارقة عن الألوهية يرى المؤلف أن جميع شعوب أفريقيا يعتقد بوجود إله متعال خالق للكون، إلا أنهم يختلفون اختلافا كبيرا في تقدير سلطانه في تصريف أمور الدنيا. والفكرة السائدة بينهم هي أن هذا الإله يبعد بعدا شاسعا عن العالم، بحيث يصعب على الناس الاتصال به، والأحرى أن تُوجَّه العبادة إلى مَنْ دونه من الآلهة، إذ أنهم المكلفون من قبله بالسهر على أمور هذه الأرض وهم رُسله ووكلاؤه. وتتعدّد الآلهة الصغرى، ويختلف عددهم تبعا للبلاد والأقاليم.. وهناك من يتخذ أجدادهم الأسطوريين أو أبطالهم المؤسسين لمدينتهم بدلا من هؤلاء الآلهة الصغار. ويختص كل إله صغير بمهمة ما. ويلي ذلك ذكر معتقدات كثير من القبائل في الجن وعلاقته بالإنسان، والأشكال المختلفة للعبادات والطقوس وصور الاحتفالات الدينية العامة وأهدافها، والعبادات المنزلية، وأساليب التدريب على الكهانة وعبادة الملوك القدماء التي تحتل مكانا بالغ الأهمية.

وأخيرا يتناول المؤلف فكرة الكون وأساطير نشأة الخليقة عند قبائل الزنوج البدائيين وما يرتبط بها من تفاسير شتى تختلف اختلافا عظيما من بيئة إلى أخرى.

يلي ذلك فصل ممتع عن تلقين الأسرار وعلم السحر واختلاف احتفالات التلقين من قبيلة إلى أخرى، والختان للجنسين واستهجان هذه العادة عند قبيلة أخرى. ثم يذكر الجمعيات الدينية المعلنة والسرية وتقاليدها الخاصة ونفوذها الملحوظ. وكيف يقوم الكاهن بدور الطبيب في القبيلة، وبيع للناس التعاويذ والتماائم لمختلف الأغراض للشفاء من

المرض ولاستئزال المطر ولاجتلاب الحب، ولاستعادة القوة، وكذلك للنجاح فى الامتحانات والانتخابات.

ولا تقتصر صناعة السحر على الكهّان المحترفين، بل توجد أساليب أخرى من السحر والكهانة يزاولها الأفراد غير المحترفين، إذا كانت تكمن فيهم قوى خفية تكشف لهم عن الغيب. والسحر الذى يُستقى به المطر من أعظم ما تهتم به القبائل الزراعية.

والاعتقاد بقدرة السحرة على إيصال الأذى شائع فى كثير من البلاد، ويفيض المؤلف فى بسط الأشكال العديدة لممارسة السحر بين الكثير من القبائل، وبيان أساليب الوقاية منه.

ويعقد المؤلف فصلا عن خصائص العقائد الوثنية وتطورها موضّحا صفاتها المشتركة وأنها تلتقى كلها عند أساس واحد، هو عمق الإحساس بالروابط الوثيقة التى تربط المجتمع البدائى بالبيئة الطبيعية التى يعيش فيها. ولا يرى المجتمع القبلى فى الحيوان والنبات ولا فى الجماد إلا مخلوقات لا تختلف عنه وليس له عليها سيطرة ما، فأضفى عليها كل صفاته وأحاسيسه ورغائبه الإنسانية، وصوّر له خياله بسبب ذلك أن الإنسان، حياً كان أو ميتاً، له قوة يستطيع بها أن يتخذ شكل حيوان أو نبات. والإنسان لا يحاول معارضة الطبيعة ومقاومتها لإحساسه بأنه جزء لا يتجزأ منها... وهذا ما يضيف على معتقدات الزنوج الوثنية سمات الجمال والشاعرية، بدلا من أن يحصروا كل همهم فى نفع الإنسانية وحدها. فهم لا يميزون بين الطبيعة وما بعد الطبيعة، ولا بين المادة والروح، لأنهم يؤمنون بأن القوى الحيوية الكونية تسرى فى الخليقة بأجمعها، كما لا يفرقون بين الحلم والحقيقة. وإذا كان الفرد مرتبطا بالطبيعة، فهو أشد ارتباطا بالمجتمع الذى ينتسب إليه، إذ لا تقف صلته

به عند حَدَيِّ مولده ومماته، بل تظل هذه الصلة قائمة حتى بعد الموت. وكما يرتبط الفرد بأبائه وأجداده فإنه يرتبط كذلك بآلهة الجماعة ارتباطاً تفسّرهُ الأساطير والأقاصيص التى تورثتها الأجيال عن تاريخ نشأة الكون. فالديانة لديهم هى حلقة الاتصال بين أفراد المجتمع، وبين المجتمع والقوى العلوية الإلهية. ومن البدهى أن ديانة هذا شأنها لا بد من أن تفرض على أفرادها سلوكاً مثالياً، وخضوعاً مطلقاً لعادتها.

ويعقد المؤلف مقارنات طريفة بين المعتقدات الأفريقية وبين ديانة الإغريق القدماء وديانة الرومان (اللاتين) وديانة قدماء المصريين كما يقارن بين ديانات الزوج والديانات القديمة فى القارات الأخرى، وبينها وبين الخرافات السائدة إلى اليوم فى القارة الأوروبية، بل بينها وبين الأديان العالمية مثل المذهب الكاثوليكي. على أنه لا يمكن الجزم - فى رأى المؤلف - برأى قاطع فى تحديد المؤثرات الخارجية، ومدى اقتباس الديانات الزنجية منها.

بعد ذلك يتناول المؤلف تطور المعتقدات الزنجية فى الوقت الحاضر تحت وطأة زحف المستعمرين وما تبعه من شلّ سلطة زعماء القبائل وتضعف السلطة الدينية وسلطة الرؤساء الروحانيين وقدسيتها الملوك، وتحرّر الفرد من ربة الجماعة وتحكمها فى كيانه. وثمت عامل آخر كان له أبلغ الأثر ذلك هو التعليم الحديث الذى أمدّهم بمعارف وحقائق حديثة تناقض ما تلقّوه عن آبائهم وأجدادهم. وفى المناطق القريبة من المدن أو من المواصلات يسير التفكك الاجتماعى والدينى سيرا حثيثاً. ومن هنا نبت الشعور بين هؤلاء الزوج المتحررين بالحاجة إلى أجوبة جديدة تهدئ اضطرابهم الروحى. والذى استفاد من هذا هما الدينان العالميان : الإسلام والمسيحية.

والقسم الثانى من الكتاب يتناول أوضاع الإسلام والمسيحية فى أفريقيا. يتحدّث الفصل الأول عن انتشار الإسلام فى غرب أفريقيا الفرنسى واعتناق قبائل البربر للإسلام على يد المرابطين فى ساحل السنغال، ثم قيام المرابطين بغزو البلاد الزنجية المجاورة، وقيام دولة مالى الإسلامية التى امتدت إلى أعالي النيجر، وتأثير دعاة الطرق الصوفية وبخاصة الطريقة القادرية والطريقة التيجانية اللتين وصلتا من شمال أفريقيا، وكذلك انتشار الإسلام بين قبائل الهوسا ومنها إلى أواسط نيجيريا وشمال بلاد الكاميرون. ولم يَقم انتشار الإسلام فى غالب الأمر على القسْر، وإنما على الإقناع الذى كان يقوم به دعاة متفرقون من المرابطين لا يملكون إلاّ إيمانهم العميق بدينهم. وكان إذا ما اعتنقته الأرستقراطية، وهى هدف الدعاة الأول، تبعتها بقية القبيلة. وقد يَسَّر انتشار الإسلام أنه دين فطرة بطبيعته سهل التناول لا لبس ولا تعقيد فى مبادئه، وسهل التكيف والتطبيق على مختلف الظروف، وأن وسائل الانتساب إليه أيسر وأيسر، إذ لا يُطلب من الشخص لإعلان إسلامه سوى النطق بالشهادتين حتى يصبح فى عداد المسلمين. ولم يفرض الإسلام على الزنوج أن يغيروا من نظام معيشتهم أو تفكيرهم الدينى. هذا إلى أن عقيدة التوحيد التى جاء بها الإسلام لم تكن غريبة عليهم. وقد حَبَّبَ الإسلامَ إليهم مظاهره البعيدة عن التكلف، وكان الذى يدخل فى الإسلام يشعر بأنه أصبح ذا شخصية محترمة وأنه قد ازداد من القوة الحيوية.

وقد حلَّت الجماعات الصوفية محلَّ الجمعيات الوثنية الماضية فى صورة أوسع وأعظم. وعلى الرغم من أن الاستعمار الأوروبى أوقف زحف الجيوش الإسلامية، فإنه مهَّد للإسلام سرعة الانتشار السلمى بما أنشأه

من الطرق الممهدة الآمنة التى مكنت الدعاة والتجار المسلمين من أن يتجولوا بحرية حاملين مع سلعهم بذور الدعوة الإسلامية.

وعن الإسلام فى شرق السودان يبين المؤلف انتشاره فى مملكة كانم الوثنية فى الشمال الشرقى لبحيرة تشاد منذ القرن الحادى عشر، وأنه أصبح فى القرن السابع عشر الدين الرسمى لمملكة باجرمى فى شرق حوض نهر "شارى". وكان وادى النيل من أهم المراكز التى زحفت منها الدعوة. فبعد سنة ١٢٥٠م فتحت مملكة دنقلة المسيحية وتأسست فيها أسرة إسلامية باسم مملكة الفونج، وفى غرب هذه المنطقة وشرقى بحيرة تشاد تأسست فى القرن السادس عشر ممالك إسلامية فى "وداى" و"دارفور" و"كردفان"، وتسربت قبائل عربية إلى تلك المناطق، وطبعت تلك الممالك بطابع عربى بسبب انتشار اللغة العربية منها.

وفى سنة ١٨٢١ غزا محمد على السودان وأسس مدينة الخرطوم وتوغّل خلفاؤه حتى بحيرة "البرت" وشجعوا إرسال بعثات دينية إلى تلك الأرجاء، والتقت بجماعات ليبية منهم السنوسيون. ولما استقل المهدي بالسودان أرسل رسله لنشر الدعوة الإسلامية غربا.

وكان الملاحون العرب والإيرانيون ينزلون الساحل الشرقى لأفريقيا المطل على المحيط الهندى، منذ القرن العاشر الميلادى، وتألف من هذا الخليط شعب يسمى بالسواحيليين يدينون بالإسلام ويتكلمون برطانة بين العربية والزنجية المسماة لغة "البانتو". وفى القرن الثامن عشر غزا سلطان مسقط أغلب الساحل الشمالى لشرق أفريقيا ونقل حاضرتة إلى زنجبار.

بعد ذلك يذكر المؤلف وجود الإسلام فى أفريقيا الاستوائية وشرق أفريقيا، ويتحدث عن مظاهر خاصة بالإسلام بين الزنوج (فى العقائد

والشعائر والأخلاق)، وعن الطرق الصوفية المحلية ومظاهر التبجيل والتقديس لمشايخها. ويتحدث بعد ذلك عن المجتمعات المختلطة من الإسلام والوثنية حيث ينتشر الاعتقاد بالسحر والعمل به، وحيث لا تزال رقصة المطر بما فيها من تهؤس وتخبط تُقام بكامل صورها الوثنية.

وأخيرا يتناول المؤلف مظاهر التجديد الإسلامى ومناداة العلماء بوجوب تطهير الدين من الشوائب والبدع الدخيلة عليه، ودور مصر فى ذلك حيث قصدت أفواج من طلبة نيجريا والنيجر إلى التعلم فى الأزهر، كما اشتدت أواصر الصلات بين منطقة تشاد وبين مصر وشرق السودان. وكان من نتائج حركة الإصلاح اقتراح الجمعية الوطنية فى السنغال بأن تكون اللغة العربية لغة إجبارية فى برامج الدراسة.

والفصل الثانى عن المسيحية، فيشير المؤلف إلى دخول الدين المسيحى إلى شمال أفريقيا فى نهاية الإمبراطورية الرومانية لكنه لم يتوغل إلى بلاد الزنوج بسبب غزو المسلمين لتلك البقاع الشمالية، ثم تأسست مملكة مسيحية فى بلاد النوبة حتى منتصف القرن السادس عشر. وأسس البرتغاليون مراكز للتبشير فى سواحل أفريقيا وفى بداية القرن السابع عشر أسس البرتغاليون أسقفية مسيحية فى أنجولا لكنهم لم ينجحوا فى نشر المسيحية فى داخل البلاد. وفى الساحل الشرقى حالت دون نشر المسيحية منافسة الإسلام لها واحتكار المسلمين للتجارة.

وقد أرسل الإسبان عدة بعثات تبشيرية كان حظها من النجاح ضئيلا. وقام الفرنسيون والهولنديون البروتستانت بجهود تبشيرية، وحاول الألمان أن ينشروا المسيحية بين قبائل الهوتنتوت لكنهم فشلوا فى ذلك ولم يكن للمسيحية فى بداية القرن التاسع عشر قدم ثابتة فى أفريقيا باستثناء

نقط ضئيلة على الساحل. بعدها توغَّلت حركة الكشف فى قلب أفريقيا وكثرت بها البعوث الدينية التبشيرية ثم تبعها الاستعمار الذى يَسْبِرُ عمل المبشرين، فكان هذا القرن هو العصر الذهبى للتبشير فى أفريقيا. ولم يحلَّ القرن العشرون إلّا والمسيحية منتشرة بشتى مذاهبها والكنائس قائمة. وفى أفريقيا الجنوبية صارت الأكثرية للهولنديين البروتستانت بسبب هجرة البيض إلى تلك البقاع. وتأسست كليات لتخريج المبشرين والمعلمين وانتشر الأنجليكان فى المدن والغابات. واشتركت فى هذا السباق بعوث أمريكية وسويسرية وألمانية. وعادت البعوث البرتغالية إلى نشر الدين المسيحى فى أنجولا وموزمبيق بالاشتراك مع بعوث أخرى. وترجع سرعة انتشار المسيحية فى أفريقيا الجنوبية إلى عدة عوامل منها : وجود جالية كبيرة من البيض المسيحيين أثرت فى السكان الزنوج، ثم انحلال النظم القبلية بسبب خضوع القبائل للمستعمرين، واستخدام عدد كبير من العمال الزنوج، وتأسيس المدن الكبرى.

وقد كافح رجال البعوث الدينية تجارة الرقيق، وعادة تعدّد الزوجات، كما نشروا التعليم بفضل ترجمتهم الكتاب المقدّس إلى لغات تلك القبائل. وتسود العنصرية المتطرّفة كنائس المسيحيين الهولنديين، فللبعض كنائس يُحظر على الملونّين دخولها. أما الأنجليكان والكاثوليك فلم يُقروا فكرة العنصرية؛ ولذلك وجدت مذاهبهم رواجاً بين الزنوج. بعدها يتحدّث المؤلف عن التبشير فى شرق أفريقيا وفى أفريقيا الاستوائية، ثم فى غرب أفريقيا. كما يذكر الجهود التى قامت بها بعثات التبشير النسوية.

لقد اشترك فى نشر المسيحية فى أفريقيا أكثر الأمم المسيحية، فالأمم الكاثوليكية على رأسها الفرنسيون ثم البلجيكيون والبرتغاليون والألمان والإيطاليون والإسبان، والأمم البروتستانتية أهمها الإنجليز

والأمريكان الأنجليكانيون. ولقد فُرض على أعضاء البعوث التبشيرية، قبل أن يقصدوا تلك الجهات، اتباع خطة مرسومة تقضى بدراسة تلك البيئات دراسة شاملة، وتفهم نظمها الاجتماعية وعاداتها ولغتها. كما كان يجب على المبشر أن يختلط بالسكان بالزيارة وأداء الخدمات والإخلاص فى التعاون معهم فى كل فرصة تتطلب ذلك. فالمدرسة والمستشفى أو المستوصف، والمثابرة على الدعوة المسيحية، وترجمة الكتاب المقدس والتعليمات الدينية إلى لهجة السكان، ومعرفة الأعياد المقدسة، وغرس شعور الأخوة المسيحية بين الجميع - كل ذلك وسائل تساعد دون شك على توسيع نطاق عمل البعثات وتبشيرها. وهكذا يصبح المبشر هو الرئيس الروحى فى تلك البيئة.

وقد شعرت الكنيسة بوجوب تعيين قساوسة من الأفريقيين، حتى يدرك الزوج أن الكنيسة ليست احتكارا للجنس الأبيض وحده. وفى الآونة الأخيرة نجد فى أفريقيا خمسة من الأساقفة الزوج.

بعد ذلك يتحدث المؤلف عن الكنائس المسيحية المستحدثة والمنشقة وما تنفرد به من نظم خاصة بها متصلة بالمعتقدات الموروثة، وعن الدعوات الجديدة المُلَفَّقة بين المسيحية والوثنية.

ويختتم المؤلف كتابه الممتع هذا بالتنبيه إلى أن دراسة الأديان بأوسع معانى هذه الكلمة - هى من أجدى الأساليب الحديثة لاستكمال الكشف عن أفريقيا السوداء. إنه كتاب مثير جدير بأن يُقرأ.

والله الموفق،،،

مصطفى لبيب عبد الغنى

« التعريف بالمؤلف »

ولد الأستاذ (هوبيرديشان Hubert Deschamps) في ٢٢ من يولية عام ١٩٠٠ ببلدة (رويان) وهي ميناء يقع على خليج (بسكاي) بمقاطعة (شارنت ماريتيم) بفرنسا . وتلقى علومه بمدرسة ليسيه دى نيور ثم السوربون ونال درجة الدكتوراه في الآداب إلى جانب شهادات عالية أخرى ، منها ليسانس الحقوق ، ودبلوم اللغات الشرقية الحية .

بدأ حياته مدرساً بمدرسة الليسيه بمدينة الدار البيضاء بمراكش ، ثم أستاذاً بمدرسة اللغات الشرقية الحية . وفي عام ١٩٣٦ اختير مديراً مساعداً لمكتب (ليون بلوم) رئيس وزارة الجبهة الشعبية الاولى وقتئذ . وفي عام ١٩٣٨ عين حاكماً لمستعمرة السومال الفرنسى ، ثم ساحل العاج ، ثم السنغال . وشغل تلك المناصب حتى عام ١٩٥٠ ، إذ أحيل إلى المعاش بناء على طلبه . وهو يشغل اليوم عدة مناصب عليية هامة وأما إنتاجه العلمى فقد بدأ منذ ١٩٣٨ ، وما يزال مستمراً إلى اليوم إذ أخرج ستة عشر مؤلفاً أغلبها في الدراسات الافريقية من قبائل ، وديانات ، ونظم إجتماعية ، ولغات ، وأحساء . نخص بالذكر منها كتبه (نهاية الاستعمار) و (تنبه الوعى السياسى فى أفريقيا) و (الديانات فى أفريقيا السوداء) والآخرين يذى قراء العربية . والمؤلف بصدد وضع كتابين عن تاريخ جزيرة مدغشقر وجغرافيتها ولهجات سكانها . وقد أعيد طبع بعض هذه الكتب مرات ، وترجم بعضها إلى الانجليزية والاسبانية واليابانية .

الترجم

هذه ترجمة كتاب :

**LES RELIGIONS
DE
L'AFRIQUE NOIRE**

Par
HUBERT DESCHAMPS

Coll. (Que Sais-je?)

مقدمة

١ — كلمة « أفريقية » التي نطلقها الآن على القارة كلها ، كان الرومان ، أيام حروبهم مع قرطاجنة إنما يطلقونها على جزء من الشمال الغربي للقارة (تونس الحديثة) . والكتاب الذي بين أيدينا لا يتناول هذا الجزء الشمالي ، المعروف من قديم بأنه يؤلف وحدة متجانسة مع بلاد البحر الأبيض المتوسط . وإنما يتناول بقية القارة حيث تستوطن القبائل الزنجية . وهذا هو الذي يسمى « أفريقيا السوداء » .

٢ — وقد يما جاب أرجاء القارة كثير من الرحالة والمستكشفين قوصفوا بلادها وشعوبها وصفاً سطحياً ، يثير فضول القارىء بعجائب العادات والعقائد ، وتغالوا في تصويرهمجية قبائلها وظلماتها حتى دمعها تلك الصفات وأصبحت في أذهان الناس حقائق لا تقبل النقض . إلى أن جاء القرن العشرون بحقائق جديدة مغيرة .

٣ — وكانت الاستكشافات والفتوحات القديمة تقترن بنزعة الاستغلال والاضطهاد العنيف فاتجر الواغلون فيها بسكان البلاد وباعوهم ببيع الرقيق في الدنيا الجديدة . . ولوئث كل الدول أيديها بهذه التجارة الخاسرة لما كانت تدره من أرباح طائلة فاستدرفت معين السكان حتى أقفرت بذلك مناطق واسعة وتدهورت اقتصادياتها .

٤ — ثم ففرت هذه السورة على يد رجال حفزتهم إنسانيتهم أن يقفوا معارضين للمستغلين والمستبدين من الحكام ، فاستطاعوا بعد جهود شاقة أن يحملوا الدول على تحريم تجارة الرقيق وعلى إدخال الإصلاحات

التي تحسنت بها أحوال القارة فسادها الأمن والسكينة بل حظى بعض شعوبها بمجالس نيابية وأحزاب سياسية وحكومات مسئولة .

٥ - وأدرك المستعمر البعيد النظر أن مصلحته المادية تعتمد كل الاعتماد على القوى البشرية في القارة واتضح له أن الكشف الجغرافي عن المجهول من أرض القارة كان عملاً سطحياً هيناً بالقياس إلى الكشف عن المجهول من أخلاق أهلها وعقائدهم وعوائدهم . ولذلك استنهض المستعمر هم رجال العلم والبحث إلى القيام بتلك الدراسات النفسية والاجتماعية فقاموا بها في استقصاء وتحقيق دقيقين وبذلك أصبحت الدراسات الأفريقية شعبة هامة من شعب العلوم الإنسانية في هذا العصر . وأفاد المستعمر من وراء تلك الدراسات أيما فائدة فقد وقف على مواطن الضعف والقوة في القبيلة واستغل ذلك لخدمة مصالحه المادية والإدارية

٦ - ولاحظ الباحثون في شئون أفريقيا أن الدين هو العنصر

الفعال والقوة المحركة في حياة المجتمع الزنجي ولذلك اتخذوه نقطة ارتكاز في سائر أبحاثهم . وأفادت الهيئات التبشيرية من هذه الحقائق فوضعت منهجها على هذا الأساس وكان من نتائج ذلك أن ترجم الإنجيل إلى عدة لغات أفريقية كاللغة السواحيلية وغيرها .

٨ - هكذا سبقتنا أوروبا إلى هذه الدراسات الأفريقية ، وجعلتها جزءاً من تفكيرها وثقافتها ورسمت على ضوءها سياستها الإدارية والتبشيرية وكان حرياً بمصر أن تسبق الأمم الأخرى لا لأن صلة مصر بداخل القارة أقدم من أن يعرف أولها بل لأن حاضراً مصر ومستقبلها ومركزها الجغرافي كل أولئك يفرض عليها أن تضاعف اهتمامها بشئون

أفريقيا التي هي الوطن الكبير للأمة المصرية . وهذا هو هدفنا من نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية .

٨ - قسم المؤلف كتابه إلى قسمين :

القسم الأول عن العقائد الوثنية . في أربعة فصول :

حدد في الفصل الأول منها العقيدة الأساسية للمجتمع الزنجي (وهي الاعتقاد بالقوى الحيوية) وشرح ما لهذه العقيدة من أثر بليغ في حياة الفرد والمجتمع القبلي وخاصة عند قبائل البانتو والبابارا والدوجون . وفي الفصل الثاني تكلم عن الآلهة والعبادات وفكرة الوجود ويدرك القارىء منه تصورات الرجل القريب من البدائية عن وجود الله وعن نشأة الكون . وهو من أمتع فصول هذا الكتاب .

وأهم ما في الفصل الثالث وصفه لحفلات التلقين والختان وصفارائماً مثيراً للشاعر . يصور للقارىء أدق التفاصيل عن حياة ذلك المجتمع . وفي الفصل الرابع يرسم المؤلف صورة عامة للديانات الوثنية القديمة والحديثة ومنه يخرج القارىء بفكرة واضحة عن الترابط الشديد بين الأحياء والاموات الطبيعية ترابطاً يبدو الإنسان فيه لا على أنه محور الكون بل على أنه صورة عارضة في لوحة الكون الكبرى .

والقسم الثاني عن الديانات السماوية ، في فصلين :

(أولهما) عن الإسلام ومدى انتشاره ووسائل انتشاره يخرج منه القارىء بأن جمهرة الدعاة له كانوا من المغاربة وأن انتشاره غالباً لم يكن بوسائل العنف ولكن بالتبشير السلي الهادى من جماعة إلى جماعة .

(وثانيهما) عن المسيحية وأساليب انتشارها ويستخلص القارىء منه أن المسيحية لم تأخذ في الانتشار السريع إلا بعد دخول جيوش المستعمرين وأفواج المستغلين وقد نوه المؤلف بالخدمات الجليلة التي قام بها المبشرون هناك في سبيل نشر الدين والتعليم والصحة وسط الغابات الكثيفة والمناطق الرطبة الحارة الخائقة وأشاد بالتضحيات العظمى التي قام بها هؤلاء حيث سقط الكثير منهم في ميدان هذا الكفاح

٩ — أما خاتمة الكتاب فنتهى الدقة في التفكير والإيجاز في التعبير بحيث تعتبر قطعة أدبية رائعة . ويخلص منها القارىء إلى أن القارة السوداء قد دخلت اليوم في زمرة البشرية المتبقطة وأنها في دور تطور سريع بسبب ما دخل عليها من الأديان والآراء والأساليب الاقتصادية الحديثة وأنها مع ذلك لم تفقد شخصيتها فإنها لم تعتنق المدنية الغربية جمعاء ولم تتخل عن موروثاتها القديمة جمعاء بل اتخذت سبيلا وسطاً لم يتضح إلى اليوم ولكنه سيتضح إن عاجلاً أو آجلاً عند ما تكتمل روح القومية بين شعوبها . فإن صيحة (أفريقيا للإفريقيين) قد بدأت تفعل فعلها حتى أن كل انتصار يحرزه شعب من شعوبها يعده الإفريقيون جميعاً انتصاراً لهم ضد الرجل الأبيض الذي كان تعصبه العنصرى وسيطرته المتفطرة هما السبب في تكتل القوى الإفريقية في جهة واحدة لرفع نيره عن كواهلهم . وما ثورات ماو ماو والبانغو ومراكش والجزائر وما استقلال مصر والسودان إلا مظاهر لهذا النضال ضد الاستعمار والمستعمرين ؟

المراجع

القسم الاول

العقائد الموروثة

« ما من نظام يشاهد بين قبائل
أفريقيا السوداء سواء أكان نظاما
اجتماعيا أم سياسيا أم اقتصاديا إلا
وهو يرتكز على فكرة دينية أو أن
الدين هو حجر الزاوية فيه — تلك
الشعوب التي ظن أحيانا أنها مجردة
عن الفكرة الدينية هي في الواقع من
أشد شعوب الأرض تدينا » .

موريس دلافوس
من كتابه حضارات الزنوج و أفريقيا

الفصل الأول

الشخص والأسلاف والطبيعة

(١) الشخص والقوى الحيوية

يرى الآب (تمبلز Temples) أن القوى الحيوية هي أسمى القيم عند قبائل (بانتو Bantous) وما العبادات والشعائر لديهم إلا وسائل تهدف كلها إلى غاية واحدة، وهي تزويد الحياة البشرية بمدد من القوة، وضمان بقائها وصلاحياتها لأبعد مدى، وذلك باستخدام قوى طبيعته. وما السعادة إلا الفوز بأعظم قسط من القوى الحيوية. وما التعاسة إلا نقص وخور يصيب تلك القوى. فالمرض والالام والأعياء والفشل في العمل كل هذه أعراض تدل على نقص تلك القوة، فترى الفرد في قبائل (بانتو) يعترف بأنه «مات وانتهى»، إن هو أحس بأى عرض من تلك الأعراض. وعندهم أن الكائن الحي هو القوة؛ وأن القوة هي كنه الشيء وماهيته، متميزة عن ظواهره وأعراضه.

وقد تتركز هذه القوة الحيوية في أجزاء رئيسية من البدن، كالعين والكبد والقلب والجمجمة. مع مشاركة أعضاء الجسم فيها بدرجة أقل

وتبقى تلك القوى فيها حتى لو فصلت عن الجسم ، مثل قلامة الظفر أو خصل الشعر . بل الأشياء التي يملكها الشخص ويعتاد استعمالها بالملاسة تقتبس جانباً من قوته ، كما تظهر تلك القوة في منطقته وإشارته . حتى أن الإسم ليس مجرد لفظ يدل على مسمى ، وإنما هو ترجمة لحقيقة الشخص ، فإذا غير اسم الطفل وسمى باسم جديد ، (كما يجري ذلك في حفل الختان ، إذاناً بدخول الطفل مرحلة المراهقة والإطلاع على الأسرار) فقد خلق الطفل حينئذ في عرفهم خلقاً جديداً .

على أنه يلوح أن فكرة القوى الحيويه هذه لاتخص قبائل (الباتو) ، وإنما نجدها منتشرة بين كثير من القبائل الأفريقية الأخرى ، بل إنها عندهم لا يختص بها الإنسان الحي ، بل تعم الأموات ، وتدور في الطبيعة بأجمعها ، فتسرى فيها كأنها سيال كهربائي يربط بينها . وقد تركز تلك القوى في شخص أو محراب أو مكان ما يكون بمثابة محطات تقوية لذلك التيار الكهربائي وقد تتنوع هذه القوى ويكون لكل منها طابع خاص .

فثلاً تعتقد قبائل (الفانج) في منطقة (جايون) بوجود قوة تعرف باسم (ايفور) Evur يمكن أن تكون شريرة أو خيرة ، ولا يفوز بها كل إنسان . فإذا ولدت مع الطفل دل على حلولها فيه ثقل وزنه عند ولادته . وقد يحصل عليها المرء في أثناء حياته إما اقتباساً من شخص معمر ، وإما في أثناء القيام بشعائر دينية . وأعجب من هذا أن (الايفور) متحرك يستطيع أن ينقسم عن الجسم ، ويعيش بمفرده ، أو يجتمع بأشباهه في وئام أو خصام . ويزعم سحرة القبيلة أنهم يستطيعون إطالة آجالهم باستخدام (الايفور) في قتل أعدائهم . حتى ينقل إليهم (ايفور)

القتيل؛ ويزعمون أنه إذا فتح بطن القتيل وجد بداخله حيوان معين (أبو جملبو) .

ويوجد الاعتقاد بمثل هذه القوى في شمال الكنفو؛ وتعرف هناك باسم (اليم) Elima وينسبونها إلى الموق من الأجداد . وتوجد (اليم) أيضاً في بعض الأماكن ، وفي الحيوان الذي يحمل اسم القبيلة ، المسمى (طوطم) Totem وهي أشد ما تكون تركزاً بالجسم في المرارة والكبد أو الطحال . والساحرات القديرات في القبيلة يتميزن بضخم هذه الأجزاء .

وتعرف القوى الحيوية عند قبائل الأقزام باسم (مجه) Megebe تربض في دكة الظلال ، أو تسير في الدم . فإذا توفي الشخص انفصمت عنه ، وانتقل جزء منها إلى الطواطم ، ويتسرب الجزء الآخر مع أنفاس الأب المحتضر ، فيتلقاها ابنه البكر إذا حنا على أبيه عند وفاته وفتح فاه ، ليتلقى هذا السر من أبيه .

وتعرف القوة الحيوية بين قبائل (دوجون) باسم (نياما) Nyama وهي قوى مختزنة في دم الشخص الحي . ومظاهرها الحياة والحركة والكلام . وقد وصفها العلامة (جريول) Griaule بأنها طاقة دائمة لاشعورية ، موزعة بين الحيوان والنبات والأشياء التي تعمر أرجاء الطبيعة والكائنات التي فوق الطبيعة ووظيفتها أن تصون كيان الجسم الذي يحملها . وهي إما موقوتة فيه فيعرض له الموت ، وإما دائمة فيكتب له الخلود . ووصفتها مدام (ديترلين) Mme Dieterlen بقولها : « إن القوى الحيوية (النياما) لها قدرة الانتقال من مكان إلى مكان ، وأنها قابلة للتجزئة وقابلة للتغير كما وكيفاً ، وأنها سريعة التأثير بشوائب القصد فتقل هذه الشوائب إلى

جسم صاحبها . فإذا انفصلت عن بدنها المعتاد أصبحت قوة خطيرة يخشى شرها .

و(النياما) قوة تنتقل بالوراثة من الأب لولده ، وتتضاعف في أثناء الحمل بالنياما الموروثة عن أحد الموق من ذوى القربى . وقد تكتسب قسطاً من نياما (القناع الكبير) Grand Masque أثناء بعض الاحتفالات الدينية العظيمة لديهم ، والتي تسمى (سيجى) Sigui كما تزايد أيضاً بالنياما الكامنة في بعض الاطعمة الخاصة التي يتغذى بها الإنسان .

ولكل فرد محراب خاص في بيته للمحافظة على ما يملكه من (النياما) . والمحراب يتكون من كرتين أو كأسين من طين يابس ، يصنعهما الأب لطفله ، يوضعان في واجهة المسكن أو في أحد أركانه ، ويرمز أحدهما للرأس ، والآخر للجسم . وتوضع في الأخير آثار الطفل ، مثل قلامة أظفاره وأهدابه وخصل من شعرة وقطرات من دمه .

أما (النياما) عند قبائل (مندانج) ؛ وكذلك (الكيلة) Kélé عند قبائل (لوبى) فهي عبارة عن تيارات ضارة تصيب الإنسان وتلصق به إذا تجول بين بعض الأشجار ، أو اقترب من مجرى ماء أو من حيوان مقتول ، أو ارتكب معصية ما . ويتطلب التطهر والبرء منها أدعية طويلة معقدة .

وها هنا نلص مدى إدراكهم لفكرة العدوى بالنجاسة . وفي عرفهم أن بعض الناس يولدون غير أطهار . فثلاً تعتقد قبائل (الدوجون) أن النساء وطوائف الصناعات كالحدادين والحذائين والسحرة قوم أنجاس ،

وأن بعض الأشياء تسبب النجاسة أو تزيدها، ومن ثم جاء تحريم بعض الأفعال، وتحريم لمس بعض الأشياء. ومن هنا أيضاً فرضت بعض العبادات للتطهر ورفع الأحداث، وتحرم قبائل (يوروبا) على المرأة في أيام الطمث أن تعد الطعام لبعلمها، فإذا ذهب للصيد وجب عليها أن تبقى طاهرة محافظة على عفتها، وأن تمتنع عن أكل اللحم، كما أن الاتصال الجنسي محرم في فترة الطمث وطوال أيام الرضاع (ومن هنا نشأت عادة تعدد الزوجات بينهم). وفي عرفهم أن اليد اليسرى والجانب الأيسر من الجسم غير طاهرين. وإلى جانب هذا الحشد من المحرمات الاجتماعية قد توجد محرمات خاصة يفرضها رب الأسرة على أعضائها.

الشخص وعقيدة تعدد الأنفس

١ — عند السودانيين^(١) تقول مدام (ديترلين) أن قبائل (بامبارا) تعتقد بوجود نسمة مزدوجة لكل إنسان: أولا النفس (ني) وثانياً التوأم (ديا) Dya. وتعتقد أن الطماطم إذا امتصتها المرأة كونت في جوفها جنيناً رخواً، يحيله الاتصال الجنسي إلى كائن حي. وهذا الكائن الحى يرث كلتا النفسين (النسمتين) عن آخر من يموت من الجماعة. ونسمة (ني) تطلق على الزفير والشهيق وهى التى تنطلق عندما ينام الإنسان. وأما (ديا) فهى توأم الإنسان فإن كان ذكراً فتوأمه أنثى، وبالعكس. وهى الظل الذى يمتد على الأرض، والخيال الذى

(١) نريد بالسودان هنا معناه الجغرافى الواسع، الذى يشمل السودان الفرنسى والسنتال وغينيا الداخلية والنيجر الفرنسى ونيجيريا الشمالية. (المؤلف)

ينعكس على صفحة الماء . وللإنسان وراء ذلك خليقتان ، هما (تيريه) Téré و (وانزو) Wanzo . أما (تيريه) فهي الطبع الذى يفسد عندما يرتكب محرماً ؛ ويمكن حينئذ أن تصبح قوة مستقلة خطيرة (نياما) . وأما (وانزو) فيعبر بها عن الشر الغريزى فيه (وهذه يمكن التطهر منها في حفلات دينية خاصة ، تعرف باسم حفلات التلقين والاطلاع على الاسرار (عند الحتان) .

والدم عندهم هو حامل الخصائص الروحية وناقلاً . فالتضحية بالقربان تخلص منه هذه الاسرار ، وتغذى بها المعابد والمحارب . وللبصاق أيضاً عندهم قوة روحية ، والاذن عضو مزدوج الجنس ، يجمع بين الذكر والانثى . والمفاصل هي مركز النطفة الحية ، والاقدام عرضة للتدنس بنجاسة الارض فيجب تطهيرها في أوقات متقاربة . وكل إنسان في أصل تكوينه يجمع بين صفتى الذكر والانثى . فالرجل فيه من خلقة الانثى ما دام بغير ختان . والانثى فيها من خلقة الذكر ، ما دامت بغير خفاض ومن هنا نشأت عادة الحتان في الجفسين ، فالحتان هو الذى يميز كل جنس عن الآخر ويحدد طبيعته نهائياً .

وهم لا يطلقون اسماً على الرضيع إلا بعد فحص تركيبه الجسمى ، وتعرف فطرته (تيريه) . والإسم الاساسى للطفل هو اسم جده الذى حلت روحه فى الرضيع ؛ ويضاف إليه أسماء وألقاب أخرى . (مثل اسم الاسرة وشعارها وشجرة نسبها) والتوءمان عندهم نتاج مباشر لإله الماء ويعدون ولادتهما يمناً وبركة . وأما الوليد الأشقر اللون فيعدونه نجساً . وكانوا فى العصور الاولى يذبحونه قرباناً فى الاعياد الكبيرة .

وعندما يموت الشخص تنفصم عنه (نفوسه) ، فتذهب (ديا) إلى الماء ، وتنضم هناك إلى آلهة الماء . وأما (ني) فتحل في محراب الأسرة فإذا ولد طفل في الأسرة عادتا للحلول في بدنه ، ومصير الجنة إلى الديدان والقناء .

وتعتقد قبائل (دوجون) أن العنصر غير المتجسد في الإنسان مركب من «خيال عاقل» يسكن الجسم وهو الذى ينفصم عنه في سباته ثم من «خيال غير عاقل» وهو الظل المادى ثم من القوة الحيوية وهى (النياما) . فالموت يطلق الظل الاول ، فيتجه للاتصال بالآله بعد رحلات طويلة . وأما (النياما) فتفارق الجسم عن طريق الشعر .

وتعتقد قبائل (ماندنج) أن كل إنسان له صورة أو ظل (دا) Da . وله نسمة بها حياته (ني) Ni فبعد الموت تصعد (ني) إلى السماء وأما (دا) فانها تظل في بيت الميت ، إلى أن تتم مراسم الجنازة ، ثم تغادره وتظل هائمة على وجهها زهاء خمسين عاما ، تزور فيها مواطنها الاولى ، ثم تعود للحاق بالنسمة (ني) .

وقبائل (لوبي) تعتقد أيضاً في وجود عنصرين : أحدهما الظل أو الصورة أو التوأم . والثانى النسمة التى بها الحياة . وموضعها الكبد . وعندما يموت الشخص يظل توأمه مع جسده مع تغير قليل . فإذا تمت مراسم الجنازة الثانية انطلق إلى العالم الآخر ، حيث يتناسى شيئاً فشيئاً عالم الأحياء .

وأرواح الموتى مرهوبة الجانب كثيراً . تعتقد بعض القبائل (مثل

قبائل الجرزي) أن السحرة يتصلون بها ويخاطبونها . وتزعم قبائل (الجورمانتشي) أن من هذه الأرواح ما يصبح مفترساً يأكل الآدميين . و (البامبارا) يقدمون القرايين لجثة الميت عندما تحمل إلى مقرها الأخير ، ويتقدم (شيخ العارفين) فيقول مناشداً الجثة : « أتضرع إليك أن تتركنا وشأننا في سلام . إننا نعدك بتقديم كل ما يرضيك من قرايين » .

٢ — بين قبائل غينيا : تعتقد قبائل (الفون) في داهومي كما يروي (موبوال) Maupoil أن لكل كائن حي (إنساناً كان أو حيواناً أو نباتاً) أربع أنفس : النفس الشفافة ، والنفس الكثيفة ، والنفس غير المرئية ، وهي التي إذا انقطعت عن البدن ، وصعدت إلى خالقها حدثت الوفاة ، والنفس الكافله ، وهي التي تحل في جسد آخر عندما يفارق الميت الدنيا . كما توجد أيضاً روح الشبه وهي التي تحل في ذرية الراحل . والنفس الشفافة لا تستيقظ في المرأة إلا بعد زواجها . ويدعى السحرة قدرتهم على تصيد تلك النفس والقضاء على صاحبها .

وتعتقد قبائل (اشانتى) في ساحل الذهب أيضاً بأربعة عناصر روحية :

١ — الدم الذي ينتقل من الأم (يلاحظ أن النظام الاجتماعي عند هذه القبائل تسيطر فيه الأمومة) وهذه النسمة تحل في إحدى نساء الأسرة من جانب الأم .

٢ — ونسمة تنحدر من الأب ، وتنضم بعد موته إلى أهل أبيه .

٣ — والنسمة الإلهية وهي التي تجيء من عند الله وإليه تعود .

ويزعمون أن هنالك سبعة أنواع مختلفة من هذه الروح ، على حسب أيام الأسبوع . ومن هنا نشأت عادة تسمية المولود باسم اليوم الذي يتفق مع روحه .

٤ — والآخرى نسمة الطباع أو الشخصية الخلقية . ويزعمون أن شخصية الغلام لا تتحقق إلا بعد بلوغه سن المراهقة . وأما قبل تلك المرحلة فالأطفال لا ينتسبون إلى هذا العالم ، ولا يمكن أن ينسب إليهم خير أو شر .

وتميز قبائل (يوروبا) ثلاث أنفس من بينها نفس تسمى نفس الطير وتفارق البدن وقت السبات ، ويمكن اقتصاصها عن طريق السحر ، وتعتقد (الايبو) أن للرجل ثوماً يحمل طباعه وطالعه ، ويقيم كل أمرء محراباً لتوهمه .

وأما قبائل (إيفا) فتعتقد في نفسين اثنتين : هما روح الحياة ، وروح الموت ، فالأولى تصعد إلى السماء ، والآخرى تنزل تحت الأرض وراء هر عريض ، حيث منازل الموتى والزمهير والكآبة ، وقد تحمل نفس الميت في أحد ذريته . وقد يحدث أن تتنافس روحان في الحلول بحسم واحد ، فيحدث بينهما شجار يؤدي إلى إضطرابات عقلية عند الشخص المتنازع عليه .

٣ — بين القبائل الأفريقية الأخرى : تزعم قبائل (سارا) ، قرب بحيرة تشاد ، أن الروح تنطلق ناحية الغرب بعد الموت ، ولكنها في الوقت نفسه تبقى إلى جانب قبر صاحبها ، وتسكن الأواني الجنائزية التي

ترسم عليها وجوه الرجال والنساء . وتؤمن قبائل (أوبانجي) بأن النفس الآدمية تتركب من قوتين : الأولى متحركة طاغية شهوانية ، والأخرى ساكنة راسخة ، تحد من طغيان الأولى ، وتحدث التوازن في مزاج الإنسان ، وأن النفوس قد تنطلق أثناء النوم إلى شبيهاتها من الانفس ، فترقص وتعبث وتزأج معها ، إلا أنها قد تقع حينئذ فريسة لأرواح الموتى التي فارقت أبدانها ، فتحاول الهرب منها ، فإذا استطاعت الهرب والعودة إلى جسمها استيقظ صاحبها من نومه في كرب وضيق . أما إذا وقعت أسيرة في قبضة الأرواح الأخرى ، فإن صاحبها يقضى نحبه ، فإن أصابها جرح في نضالها للتخلص من تلك الأرواح أصيب صاحبها بالمرض .

وتجد أمثال هذه المعتقدات بين قبائل كثيرة في الكنفو البلجيكية . فالنفس الساكنة تشبه بالظل ؛ والنفس المحركة تشبه بنور العين . وبعضهم يميز نفساً ثالثة مقرها الأذن .

وتعتقد قبائل (الكيكويو) في كينيا أن لكل شخص نفسين إحداهما تنفصل عن الجسد عند الموت لتنضم إلى أنفس أسلافها ؛ والأخرى نفس جماعية ، وهي جزء من روح الأسرة التي تحل في جسد أحد أعضائها بصفة موقوته ، إلى أن تحل فيما بعد في جسم أحدث مولود في الجماعة .

وأشد ما يخشاه سكان أعلى نهر الزمبيزي ثلاثة أنواع من الأرواح المعتدية : (أولا) روح ميت ناله أذى من شخص آخر . (ثانياً) روح

ميت من السلف إذا أهملت الشعائر الدينية الواجبة له أو إذا أهدرت محرماته . (ثالثاً) روح ميت امتصه الساحر من ثقب في قبره ؛ إذ يقلب الساحر أوضاع معدته وأعضائه . ومنذئذ يستخدم الساحر روح هذا الميت في أغراضه .

أما عند قبائل (السوازي) في جنوب أفريقيا فالإنسان يتركب من جسد ونفس متردد . ولا بد من تكريم كليهما بعد الموت ، ولا سيما إذا كان صاحبهما من الرؤساء ، ولذلك تحنط أجسامهم وتوضع جثة الملكة الأم في كفن من جلد ثور أسود . والموت عرض من أعراض الضعف في أسرة الميت ، يضطرون إلى مراعاة حداد طويل الأجل ، ويفرض على الأرملة عزلة مدتها ثلاث سنوات . وأما الأرمل فيفرض عليه الحداد عاماً واحداً عند وفاة زوجته الرئيسية ، وشهراً عند وفاة الأخريات .

(ب) الجماعة ومكانة السلف منها

الأسلاف أموات إلا أنهم أحياء

من بين العناصر المختلفة التي تتحلل عند الموت يوجد عنصر واحد على الأقل (ولنسمه الروح أو التوم) يحتفظ بكيانه وشخصيته ليحيا حياة جديدة .

تزعم قبائل (الدوجون) أن الروح تقيم بمسكن المتوفى حتى حفلة الذكرى الثانية للوفاة . فإذا تمت مراسمها تنقل خارج القرية حيث تسرح

وتمرح وتزور مراتب آبائها وأمهاتها ، ثم تعود إلى حظيرة الأميرة فتمنح قواها الحيوية (النياما) إلى مولود جديد فيها . فتضمن للقبيلة بذلك الاستمرار والبقاء . وأخيراً تتجه صوب الشمال إلى الجنة (مانجا) Manga حيث تتمتع بالخلود تحت أفياء الأشجار في النسيم العليل .

وعند (البامبارا) تتقمص الروح أيضاً طفلاً يسمى باسم سلفه ، ويحمل كنيته وشعاره . ويعتقد (السارا) ، كذلك أن روح جد الأسرة تحل في أحداً حفاده . ولكن ذلك ينشأ موقفاً معقداً إذ لا يليق حينئذ أن يعيش الطفل مع أبيه تحت سقف واحد ؛ فإن سلطانه يتعارض مع سلطة والده ، وهو رب الأسرة . لذلك يجب أن يربي الطفل بعيداً عن بيت الأسرة . ونستطيع أن نقول بوجه عام أن أرواح الموتي تتمتع في نظرهم بموهبة الحلول في كل مكان : فهي توجد في العالم غير المنظور ، وفي الوقت نفسه توجد عند القبور ، وحول المحاريب ، وتقمص الأحياء ، وتراقب سلوك الناس ، ويمكنها أن تدعو إليها الأحياء ، فإذا فعلت كان ذلك سبباً في موتهم .

وعند قبائل (الأشانتي) تذهب روح الميت إلى مستقر الأرواح وهو يشبه إلى حد ما عالم الأرض ، وعند قبائل (مندى) في سيراليون لا بد لروح الميت قبل الوصول إلى مستقرها أن تعبر بحراً أو تتسلق جبلاً . وعالم الموتي منظم على غرار عالم الأحياء : فالذكورة ، والأنوثة ، وعلاقات المودة ، وأماكن الإقامة ، كلها عوامل تحدد نوع الفريق الذي سيلحق به الميت بعد وفاته .

وأما قبائل (ايفا) فتعتقد أن الموتي يعيشون في باطن الأرض أو في قرص الشمس . وقد تظهر أشباحهم للأحياء . والذي يموت منهم قبل أوانه (بفعل الساحر) يمكن أن يتقمص جسم إنسان أو حيوان . وتعتقد قبائل (الأوبانجي) أن أرواح الموتي يمكن أن تظل في المكان الذي توفي فيه الشخص . فإذا مات غرقاً ظلت روحه إلى جانب النهر ، إلا أن غالبية الأرواح تسبح تائهة في أنحاء الاجاث والغابات ، حيث تسكن في الاجحار أو في أعالي الاشجار . ويعتقد (الباندا) أن جلود الموتي مبيضة اللون وهذا يفسر اعتقاد بعض القبائل أن الرجل الأبيض من أسلافهم .

وتتصور قبائل (المانجا) موتاهم في هيئة مفزعة ، فيتخيلون أن لهم أجساداً مغطاه بشعر طويل ، أبيض اللون ، وأن لهم رؤساً لا تزيد على قبضة اليد ، وليس لهم أسنان ، وأن عيونهم تتوسط صدورهم وأجباهم . وفي أصواتهم تخيف ، وللبعض منهم ساق واحدة ، والبعض الآخر يسير بغير رأس ويعرفهم الناس من سيماهم في ظلام الليل . فإذا رآهم أحد رؤية العين حل به الموت .

وتعتقد قبائل (اوفمبونديو) في انجولا البرتغالية ان أشباح الموتي قد تحتاج في الليل أزقة القرى في جلبة وصياح ، لتسرق الماشية والطيور — وعندئذ تختار لنفسها بيتاً ، فيكون ذلك نذيراً بالمرض لساكنيه . ولا تنصرف هذه الأشباح إلا بتقديم القرابين ترضية لها ومع ذلك فانها على طول الأمد تعود مسالمة . وعند قبائل (الدنكا) من قبائل أعلى النيل أن الموتي يفقدون قواهم كلما تقدم عليهم الزمن ، إلا أنهم

يعوضون عن ذلك برفع مراتبهم في عالم الاموات بفضل أقدميتهم . وعند قبائل (النوير) أن من يموت في الادغال أو تقتله الصواقر لهم قدرة ممتازة ، إذ تصعد أرواحهم للسماء وقد تتسلط أرواحهم على الاحياء .

أما في (روديسيا) فلا أرواح الموتى حق الخيار في أن تحل في ذكر أو أنثى ، وبذلك يشبعون بعد الموت رغبتهم الجنسية المكبوتة أبان حياتهم ،

الجنائز والقرابين

يرتبط الاحياء بموتاهم في الأسرة والقبيلة برباط وثيق من الالتزامات فواجب الاحياء قبل كل شيء أن يقيموا الجنائز ليسروا أمام موتاهم رحلتهم الشاقة بين هذه الدنيا وبين الدار الآخرة . ثم يجب عليهم بعد ذلك أن يقدموا القرابين والضحايا حتى يفوز الاحياء بحماية أمواتهم ورضاهم ، وحتى يتحاشوا غضبهم ولعناتهم ، وأيضاً لكي يصوروا (القوى الحيوية) لأولئك الموتى أنفسهم .

والمراسم الجنائزية عند قبائل (الدوجون) طويلة معقدة . تبدأ بأن يقوم (القناع الكبير) — وهو رئيس السحرة والكاهن الأكبر والطبيب الأكبر في القبيلة — بزيارة المتوفى . ثم تتجمع نساء القبيلة حول مسكن الفقيد يولولن ويندبن ، ويقوم عدد من الرجال المسلحين باحتلال سطح المنزل . وتلى ذلك تراتيل بلغة سرية ، ويشترك الجميع في الرقص وفي حركات تشبه المبارزة أو مطاردة الصيد ، ثم يحمل جثمان الميت ويدور به المشيعون يمنة ويسرة وأخيراً ترفع الجثة لتوارى في

مغارة منقورة في الصخر . وبعد أيام تبدأ الجنازة الثانية التي تقام لكثير من الموتى ، تحقيقاً لرحيلهم الأبدى عن هذه الدنيا . وتستمر مراسم هذه الجنازة عدة أيام بعد الاستعداد لها بصنع أقنعة و ثياب من ألياف النبات ، وتعقد حلقات الرقص المقدس والترتيلات الدينية ، ويتخلل هذا جلسات يحتسى الجميع فيها الخمر . وينصب عادة محراب لكل ميت في مسكن الأسرة الأصلي . ويتركب المحراب من أوعية من الطين اليابس ، وأصداف مجوفة ، وعيدان يابسة ، وسلالم صغيرة . ويتولى أكبر الأسرة سنّاً خدمة المحراب ، وتقديم القرابين ، وتعيين من يذبح الأضاحي ومن يحضر الحفلات . ثم يسمى المولود الجديد باسم الجد الذي حلت روحه في ذلك الطفل . ويكون تقديم الأضاحي سنوياً من بشائر المحصول الجديد ، ومن ضحايا معينة في بعض المناسبات : قبل الخروج للصيد ، وعند المرض ، أو عند حدوث شجار . فهذه كلها أسباب لانتقاص القوى الحيوية . فإذا كرم الأحياء موتاهم أسبغ هؤلاء عليهم قواهم مقابل التكريم .

وفي قبائل (البامبارا) توجد جمعية (كومو) Komo وهي جمعية دينية لها سلطات روحية واسعة . منها أنها هي التي تباشر المراسم الجنائزية فيحرس الميت زملاؤه في الرتبة والسن ، ويحملونه إلى مقره الأخير ، ثم يناشده رئيس الجمعية بقوله : « أتوسل إليك ألا تؤذينا ، فدعنا نعيش في سلام ووثام ، وليكن زرعنا نامياً ومحصولنا وفيراً . وامنحنا بركاتك ، فقد أدينا لك جميع حقوقك ونحرنالك القرابين » ومن ثم تنحرق الذبيحة ويلقى دمها داخل القبر ، ثم تحرق بعض ممتلكات الميت (السراير

والحصير والمشط والشعر) ويوضع رمادها داخل القبر لتلحق به في الدار الآخرة. وبعد ذلك ينصب محراب الميت في أسرته. ويدعم المسكن بعمود يمثل عميد الأسرة ومؤسسها. ومن عاداتهم أنهم قبل بذر الحب لزراعة الأرض ينادون أسماء موتاهم، وكل ميت يمثلُه وعاء كروى به شتى الحبوب التي تطبخ وتصب عند مدخل المسكن، حيث تنحر الذبائح. ويقيمون كل عام حفلاً حول قبور الأجداد يشترك فيه لابسو الأقنعة بالرقص حول القبور.

وفي (ساحل غينيا) يدفن مع الميت طعام وتبغ وافاويه وحلى من الفضة، ويتقربون لالهة الأرض بصب الخمر على الأرض قبل شق القبر. وأما قبائل (الاشانتي) فتدفن موتاهما في مكان يسمونه « غابة الأشباح»، ثم ينحرون شاة ويقدمون خمرًا من البلح قرباناً للميت. فإذا فرغوا من ذلك وضعوا نباتاً متسلقاً في عرض الطريق حتى يحول دون لحاق الموتى بهم. وتقام الجنازة الثانية بعد عام، فتنحر الذبائح، وتقام الولائم الراقصة. وعلى الرغم من كل تلك الحواجز فإنها لا تحجز عنهم الموتى حجزاً تاماً. فالموتى قريبون منهم دائماً، حتى أنهم قبل كل طعام يضعون لموتاهم قليلاً من الحبوب وقطرات من الشراب على ناحية، نصيباً للموتى. ولا تنظف أطباق الطعام من فضلات الطعام بعد العشاء، بل تترك لكي تستطيع أرواح الموتى أن تنتفع بما تبقى بها. هذا إلى أنهم يستخIRON موتاهم ويطلبون حمايتهم. فإذا أهمل الأحياء واجباتهم نحو موتاهم انتشر المرض بينهم ونزلت بهم الكوارث انتقاماً منهم وكل فرد من أفراد قبائل (الاشانتي) يملك كرسيّاً من الخشب أبيض اللون،

يعتقد أن روحه مشدودة إليه . فإذا مات طلى هذا الكرسي بلون أسود مأخوذ من مح البيض معجوناً بسناج الدخان . ثم ينقل الكرسي إلى بيت تحفظ فيه كراسى الموتى من الأسرة وتؤدى له بعض الشعائر . ولقبائل (إيفا) كذلك مثل تلك الكراسى خاصة بآبائهم ، غير أن قربانهم من الطعام والشراب يوضع فوق القبور .

أما في شمال ساحل الذهب فللرجال وحدهم حق الاتصال بأرواح الموتى . وأما النساء فلهن أن يشهدن حفلات التضحية ، وليس لهن أن يقدمن الأضاحى بأنفسهن . وإذا عقمتم امرأة تمسحت بمحراب الأجداد كي تنجب . وأما قبائل (منده) في سيراليون فإنها في العادة تعيش في وثام مع أرواح الموتى وتتخذ منهم حماتها وهداتها . ولكن بعض الموتى المعروفين بالشر في حياتهم والذين لا تقبل أرواحهم في مستقر الأموات تجيء أرواحهم إلى المساكن ، وتدأب على تهديد السكان وإشاعة الفزع في نفوسهم . وكذلك تصنع أرواح الموتى الذين يهمل أهلهم أن يدفنوا معهم فضة وثماراً تكرمه لهم عند قدومهم للآخرة ليستعينوا بها على إقامة بيت لهم فيها .

وفي غرب الكامرون يبقى الميت في مسكنه . والغالب أن يدفن ، حتى إذا تحلل جسده نزعته منه الجمجمة التي يزعمون أنها مأوى الروح ، فتوضع هذه الجمجمة في مسكن الأسرة ، أو تدفن على عقب يسير من سطح الأرض . وتحفظ الأسرة بهذه الجمجمة لاستخارتها في أزمات المرض والمشاكل ، ويقدمون لها الشراب والطعام . وبعضهم يقيمون بيوتاً في الغابات لتأوى إليها الأرواح النათة الشهيدة . وقد تغالت بعض القبائل

فى عبادة الجماعم إلى درجة التنقيب عنها والحرص على اقتنائها ولو باصطياد
الآدميين وأكلهم لآخذ جماعهم .

وفى شمال الكامرون ومنطقة تشاد يطوى جسد الميت فى وعاءين
أحدهما غطاء للآخر . ويحتفظ أهل الميت بوعاء ثالث فى بيت الأسرة
يرمز للميت ، فيقول أحدهم مثلاً مشيراً إليها « هذا أبى » . « أو هذا
جدى » ، ويملا الوعاء بخمر الذرة ، ويدار على أعضاء الأسرة ليشرىوا
نخب الميت . وتقام بين وقت وآخر ولائم دينية تشترك فيها الموتى مع
الآحياء فى وحدة روحية . وقد تجعل هذه الولائم شعبية وتوزع فيها
الاضاحى والصدقات .

وبين قبائل إفريقية عامة يظهر الموتى فى الحلم لذريتهم ناصحين أو
مقرعين أو مطالبين بما أهمله أبناؤهم من القرابين الواجبة لهم ، هذا إلى
أن بعض المتخصصين يستطيعون الاتصال بالموتى عن طريق الكهانة .
وتعتقد قبائل منطقة البحيرات الاستوائية أن الصيادين فى طرادهم للصيد
يمكنهم الاتصال بالموتى من خلال الفجوات التى يصادفونها فى الأحراش .

كل هذه الأمور تجعلنا ندرك مقدار حيرة الزنجرى الوثنى ، ومبلغ
توزع نفسه بين عاملين شديدين : عامل الرغبة فى الفوز بالقوى الحيوية
التي كانت لآبائه والحاجة لحمايتهم ، وعامل الفزع من سخطهم وخطر تأنيبهم
له . إلا أن بعض قبائل (الباتو) اهتمت إلى حل حاسم لهذه المشكلة ،
ووفروا على أنفسهم عناء تلك الحيرة ، فأجمع رأيهم على أن يأكلوا اللحم
الميت ليلة ماتمه ، ثم يثنوا بحرق عظامه . وبهذه الطريقة الفريدة أصابوا

عصفورين بحجر ، إذ انتفعوا بقواه الحيوية بادماج لحمه في أبدانهم ، وفي الوقت نفسه محوه من الوجود بإحالته رمادا ، فضمنوا استحالة عودته إليهم لينقص عليهم حياتهم .

النظام الاجتماعي في القبيلة

تتكون الهيئة الاجتماعية في القبيلة من الموتى ومن الأحياء جميعا ، على أساس تبادل المنفعة والخدمات بينهما . فالموتى هم الرؤساء الفعليون في الأسرة والقبيلة ، وهم المقوامون على استمرار مراعاة التقاليد ، والمراقبون لسلوك ذرياتهم من الأحياء . ولهم عليهم حق الثواب والعقاب إن هم تمسكوا بالعادات المرعية أو حادوا عنها . فالمحافظة على العادات ، واحترام الموتى من الآباء والأجداد ، وإقامة المآتم والحفلات الدينية لتقديسهم ، كل هذا يجرى بإشرافهم وتحت رقابتهم . وبفضل هذه الرقابة يظل النظام الاجتماعي والأخلاق والآداب مكفولة . وتشمل قواعد التحريم بعض الأعمال ، والنظام العام ، والأوضاع المختلفة باختلاف الأشخاص والمناسبات ، وخاصة الأغذية . فمثلا في غرب الكامرون يحرم على الرجال أكل لحم الخنزير والسلحفاة والفهد ؛ ويحرم على النساء أكل لحوم الخراف والنيس والقردة والسماك والأفاعى . وإذا انتهك فرد محرماً ما نزلت به الكوارث ، كالمرض ، أو سوء غلة الأرض ، أو عقم نسائه ، أو ماشيته ، غضباً وسخطاً عليه من أجداده ، الذين لا يستطيع استجلاب رضاهم إلا بتقديم القرابين ونحر الأضاحى ، أو بكفارات شخصية ، مثل الصوم عن الطعام والشراب ، أو الاستسلام

لعقوبة صارمة ينزلها بهم رب الأسرة . فإذا كان الذنب عظيماً حكم على الفرد بالطرد والتشريد من القبيلة . وهذه هي أشد وأقسى العقوبات في عرفهم .

وبتلك الوسيلة وأشباهاها أصبح للأجداد النفوذ الكامل في تنظيم العلاقات الاجتماعية بين أفراد القبيلة . ولكل ذنب عقوبة مقررة ، يعرفها الجميع ويخضعون لها ، فاتباع هذه النظم ضريبة عامة ، وهكذا يصبح التماسك الاجتماعي ، ومراعاة النظام ، والاشتراك في الحياة العامة وحفلاتها الدينية ، والمساواة المادية إلى حد ما ، وتبادل الاحترام ، كلها فروضاً مكفولة وميسورة بسلطان القوى العليا ، التي تسهر دائماً على التمسك بالتقاليد ، والتي تعبر بتشريعها الحكيم عن اندماج الإنسان في سنة النظام العالمي ، وأقسى ما يصيب الفرد أن يطرد من الهيئة الاجتماعية للقبيلة ، لأن قوة الحيوية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالقوة الحيوية من ناحية وبقوة باقي الجماعة من ناحية أخرى ، ولا تتصور نكبة أشد من أن يعيش المرء بمفرده مقطوعاً عن قبيلته دون حماية أو سند .

هذه الهيئة الاجتماعية القوية المتماسكة تقوم على أساس دقيق من النظام التدريجي ، الذي يشمل الموتى والأحياء ، فلكل مرتبة الخاصة وأعلى مراتب هذا النظام يختص به الأسلاف العظام الذين أسسوا تلك القبيلة ، ثم يليهم في المرتبة من الموتى الجد الأعلى للأسرة ، ثم ذريته حسب أسبقيتهم في الوفاة ، ويأتي بعد هؤلاء الموتى جماعة الأحياء على الترتيب التالي :

(١) أكبر الأسرة سناً وهو رب الأسرة ورئيسها ، وهو الواسطة

بين الاموات والاحياء، ويتمتع بالقوى الحيوية الإنسانية منها والطبيعية ويقوم بجميع الشعائر الواجبة نحو الآباء، ونحو ظواهر الطبيعة، إذ في قدرته أن يأمر السماء فينهمر المطر، وأن يبعث الحياة في الزرع فينمو ويمنح الحصب للبرأة العقيم. وهو المهيمن على الصحة والنظام.

(٢) ويليهِ في المرتبة الشيوخ، فثلاً إذا التقى شاب من قبائل (داهومي) بجده في الطريق ركع على الأرض وسجد له. (٣) وبعد هؤلاء الشيوخ تجيء طبقة الكهول من الرجال. (٤) ثم يليهم الأطفال وحتى هؤلاء مقسمون إلى طبقات تبعاً لأسنانهم. وأما النساء فلهن مكانة اجتماعية على حدة. وفي الغالب هي ذات اعتبار، وخاصة في القبائل التي تنتسب لامهاتها. ومن كل هذا نرى أن السن العالية ثم الجنس هما اللذان يحددان الأوضاع الاجتماعية. وقد تحددها أيضاً الطبقة الاجتماعية وهذا الترتيب يتشدد الجميع في مراعاته، لدرجة أن مجرد حركة مخالفة له تبدو من أى شخص (كأن يجلس صغير مكان أخيه الكبير أو يغضب شاب شيخاً أو يعارض غلام والده) يعتبر في عرفهم إخلالاً بحرمة الآباء والأسلاف، وانها كاحرمة التقاليد القبلية. ويقتضى غفرانها تقديم قربان أو ذبح ضحية أو كفارة.

هكذا تعتبر كل أسرة نفسها في كفالة أجدادها من الموتى، ورئيسها من الاحياء. غير أن هناك نفرأ أعلى مرتبة. جميع المراتب السابقة، وهم الرؤساء الاعلون، الذين يجمعون في أيديهم السلطان الدنيوى والروحي على القبيلة كلها. فهم أكبر الوسطاء بين الموتى

والطبيعه ، ويعرف الرئيس الأعلى بإسم (هوجون Hogon) بين قبائل (الدوجون) . وهو كاهن الجد الأكبر المؤسس للقبيلة ويشترط فيه أن يكون ، إما رئيس أعرق أسرة في القبيلة ، وإما أن يختاره أضراره وقرناؤه ، وإما أن يتحدد بعلامة خاصة (كأن يستقر على رأسه طير أحمر) . هؤلاء الرؤساء الأعلون لا يتصلون بالناس ، لأنهم أنصاف آله ، فيتخذ الواحد منهم مسكناً ثانياً عن القرية ، يدير منه الشؤون الروحية والاجتماعية للقبيلة . وهو السيد المطاع دون منازع ، لأنهم يزعمون أن في يديه التصرف في نظام الكون نفسه .

وحيث يوجد الملوك في القبائل الكبرى نجد أن الملك يتمتع بنفس تلك القوى الخارقة للعادة ، فهو الذى بيده خصوبة الأرض ، وهو حلقة الاتصال بالقوى الخفية . ولهذا كان من المهم جداً حسن إختيار الرئيس الحقيقي الكفء . إذ لابد من توافر شروط دقيقة فيه ، كشرف الأصل وإجماع آراء الموتى من الأجداد . فإذا لم يراع ذلك فى انتخابه حلت الكوارث ، فينقطع المطر وتجذب الأرض فلا تؤتى غلتها ، ويؤول أمر الجماعة إلى الدمار والحرب .

وتتبع فى إنتخاب الملك طقوس خاصة فى قبائل (أشانتي) يحمل الملك على الاعناق ويجلس على الكرسي الأسود لسلفه كى تحل روح السلف فيه ، ويعاد تقليد الجلوس هذا ثلاث مرات متواليات . وأن اسمه نفسه له أثر فعال . . وفى جنوب الكنفو لا يجوز لأحد أن يراه ساعة تناول الطعام ، فهو يعيش فى مسكن منعزل محوط بحرمات عديدة وفى عرفهم أن ملامسته أو التحديق فيه تلويث لقدسيته ، وإضعاف

لقواه الخارقة التي يملكها في السيطرة على نظام الطبيعة ، فإذا توفى أخفى موته مدة طويلة وتهامس الناس به بالكناية والتلويح دون التصريح ، فيقال مثلاً « قد انقضى الليل أو قد تهدم البيت » .

وكان المتبع قديماً بين قبائل (هوزا) عند موت الملك أن يحفظ جثمانه . وبين قبائل (أشانتي) و (الفون) أن يذبح عدد من الناس ليقوموا بخدمته في الدار الأخرى وكانت عبادة الملوك تأخذ أهمية عظيمة وتفرض تضحيات بشرية فالسلف من الملوك ومن مؤسسى الشعوب يأخذون في أعين الناس صفة الآلهة العظام الحماة لشعوبهم .

وتعتقد قبائل (الزولو) أن الأب الأول هو الذى خلق الناس . وهكذا لا يبقى عندهم إله السماء إلا رتبة ثانوية . وتدور حول هؤلاء الأبطال المؤسسين قصص وخرافات غاية في سعة الخيال . فمن ذلك ما تعتقده قبائل (موكولهي) أن خالقهم (موكولهي) Mukuléhé يتمتع بقوى حيوية خارقة للعادة كما يتمتع بالجمال الفتان والرجولة الفتية وهو الذى جلب حبة الذرة في أرضهم ، ولذلك خصصوا كاهناً يتولى المحافظة على ما تركه من مخلفات .

ولقبائل (الدوجون) أساطير وأقاصيص نهاية في سعة الخيال والتصور ، وتحل أعظم مكان في ديانتهم ويمكن تقسيمها إل ثلاث طبقات (١) الجد الأول للقبيلة ، وهو الذى مات في هيئة أفعى ، ويرمزون له (بالقناع الكبير) وهذا القناع يبدل مرة كل ستين عاماً في احتفال ديني حاشد ، ويعرف باسم (سيجي) Sigui تشترك فيه

وتتجارب له عامة عشائر الدوجون . (٢) يلي ذلك طبقة (بينو) Binou وهم الأجداد الأقدمون الذين تحولوا جنأ والذين يمكن معرفة اتصالهم بالناس بعلامة خاصة وهي نزول حجارة معينة من السماء . فإذا سيطروا على بعض الأحياء كان هؤلاء هم كهان القبيلة (٣) ويلى ذلك أخيراً طبقة (ليه) Lébé وهو أقدم جدمات على صورة إنسان ، ولكنه يحيا في باطن الأرض على صورة ثعبان ، فيمنحها الحياة والخصب ، ويزيد نبات الذرة قوة إلى قوته ، ولذلك تقدم القرابين إليه في وقت بذر الأرض وعبادته تعد من جهة عبادة للأجداد ، ومن جهة أخرى عبادة للأرض التي أحيتهم . فالزئوج لا يفرقون بين الطبيعة وبين ما وراء الطبيعة ، إذ الكون عندهم وحدة لا تتجزأ .

(ح) عبادة الطبيعة

الحيوان — النبات والمعادن والأشياء

الحيوان :

يعتبر جزءاً غير منفصل عن حياة الناس ، وتختلط نشأته بالاقاصيص والخرافات التي تدور حول نشأة الإنسان . يقول (الدوجون) أن الحيوان توأم الآدمي ؛ ويقابل كل جد من أجدادهم الثمانية حيوان سماوى يشترك مع هذا الجد في الروح . وبذلك يستطيع أن يظهر في شكل توأمه من الحيوان . وكلما ولد مولود ولد معه صنو له من الحيوان الذى كان يعيش مع الأجداد وصنو آخر من الحيوان المقابل له وقد رأينا فيما تقدم

عقيدتهم في أن أجدادهم تحولوا إلى أفاعى . أما الكباش فهو في نظرهم مسيخ تحولت إليه وتجسدت فيه جنية الماء .

وهم يمثلونه حاملاً بين قرنية يقطينة تمثل قرص الشمس .

والحيوان في عرف (البامبارا) نفسان : (في) و (ديا) مثله في ذلك مثل الإنسان العاقل . فإذا قتل صيداً ماتت روحه تلك الفريسة في أنحاء الغابة لتنتقم منه . ولذلك يجب على الصياد أن يؤدي مراسم خاصة ليقتنص فريسته . ولكل أسرة قريب أو نسب ما من الحيوان يحرم عليها أكل لحمه . والحدادون لهم قدرة على التحول إلى ما يشاؤون من أنواع الحيوان .

وتزعم قبائل (الماندانج) أنها تمت حماية بعض الحيوان ، كالأفعى العاصرة ، والتمساح ، والحرباء ، والسلاحفاة ، والثعبان . والحيوان الخطر يحرم عليهم النطق باسمه ، ولذلك يسمون التمساح ضباً وتتركز نياما الحيوان المقتول في جزء من جثته (كالآذن أو الذنب أو الشارب أو المخالب) فإذا قتل الحيوان أصبح ذلك الجزء قوة تستغل في أغراض السحر .

ولدى القبائل الساكنة على ساحل غينيا (الأشانتي — والفون — الايفا — اليوروبا) نجد الصلة بين الإنسان والحيوان وثيقة ؛ إذ يزعمون أن لكل إنسان شقيقاً وصنوا من الحيوان ، فإذا قتل حيوان قتل صنوه . ويعتقد قبائل (اشانتي) أن لبعض الحيوان كالقيل والوعل روحاً شريرة ، فإذا قتلها الصياد وجب عليه أداء مراسم الجنائز تسكيناً

لغرضها .. وفي مناطق معينة يحرم قتل نوع خاص من الحيوان ، كالافعى العاصرة ، والتساح .. وبعض أنواع الحيوان موضع تقديس ، فالخل مقدس من أجل آلهة الصواعق . والافعى لها جملة معابد في جنوب داهومى ولذلك يتركونها آمنة بين المساكن دون أن يمسها أحد يسوء ، فاذا رآها إنسان منهم قبل الارض بين يديها وناداهابكلمة (أبى) وكثير من العشائر تزعم أنها تمت بصلة القرابة إلى حيوان ما ، فاذا نفق وجب دفنه وأقيمت له الجنائز والمآتم وبكته الطائفة ، كما يفعلون لموتاهم من بنى الإنسان . هكذا تصنع قبائل (الاشانتى) و (الفون) فى الافعى ، وكذلك تفعل قبائل (الاديوكرو) فى الضب وبعض قبائل (الفون) فى الفهد . وتسمى بعض العشائر نفسها باسم حيوان فبعض عشائر (يوروبا) تسمى نفسها بالكبش أو الفيل أو القرد الاحمر ، حيث تربط الاساطير بين أجداد العشيرة وبين الحيوان المعين . وهكذا تزعم الاسرة الملكية فى (داهومى) أنها تنحدر من أميرة ملكية واقعها فهد ، ولذلك نرى رسم الفهد على الدرع الملكية ويغضى أفراد القبيلة أجسامهم بوشم يمثل برائن الفهد الخمسة ..

ويزعم بعض الرجال فى غرب الكامرون أن لهم القدرة على أن يتشكلوا بأشكال بعض الحيوان وأن يتحالفوا معها : فمن الممكن أن يرسلوا فهداً من ذوى قرباهم ليفترس عدواً لهم . ومن الممكن أن يتحول الإنسان إلى فهد أو سلحفاة أو ثعبان ، وأن يكون الإنسان فى الوقت نفسه فى منزله وفى طى حيوان يقاتل أعداءه (فالإنسان الحداه يفترس دجاج عدوه) . ويعتقدون أن بعض العناكب تنبئ بأثارها على

الأرض عن المستقبل ويعتبرون السلحفاة حيواناً عاقلاً ، يحمي صاحبه ،
ولذا يعنى به فى الحضر ، ويصطحب فى السفر أما الضب والخراباء فهن
نذر الموت فيجب قتلهن .

وقد تركت الحضارة القديمة حول بحيرة تشاد أثراً ، هى تماثيل لها
جسد إنسان ورأس كبش تدل على أسلوب تصوراتها . وبالرغم من أن
حلفاءهم قبائل (كوتوكو) قد اعتنقوا الإسلام فإنهم مازالوا يحتفظون
بحيوان فى كل مدينة ، يعتبرونه حامياً لها . وهو فى الغالب على هيئة
ثعبان يربض فى أسوار المدينة ، وتقام له بعض الشعائر ، ويستخبرونه
فى مهام أمورهم كانتخاب رئيس للقبيلة مثلاً .

وتصور (المانجا) صلتها بالحيوان فى تماثيل مختلفة ، فتارة نرى
أن إحدى نساء العشيرة فى الماضى السحيق أنجبت حيواناً ، وتارة نرى
أن صيادهم القدماء استطاعوا مؤاخاة أصل هذا الحيوان .

فاذا قتل الصياد حيواناً من ذوى القربى كان عليه أن يعترف بذلك
لرب الأسرة ، فيقوم هذا بتقديم القرابين تسكيناً لروحه وكان عليه أن
يستسمح الحيوان المقتول وأن يبيكه . وأعجب من ذلك أنهم يزعمون
أنه لو وقع أحدهم بين مخالب وحش من ذوى قرباه فسا عليه إلا أن
يذكره بصلة النسب بينهما ، فيخلى الوحش سبيله من فوره . ولا بد من
تأدية مراسم خاصة (شعائر وقربانات من الشراب) للخلاص من انتقام
الوحش التى قتلت أو أكلت ، وخاصة الثيران ، لأنها حيوان فيه
غريزة الأخذ بالتأثر .

وتزعم قبائل (الشلوك) أن بقرة كانت هي أصل سلالة الإنسان والحيوان جميعاً ، وأنها أول ما خرجت من النهر كانت تحمل على رأسها ثمرة اليقطين ، وكان في داخلها نطفة الإنسان والحيوان معا . ولكل فرد منهم ثور مقدس يحمل اسمه . فإذا مات صاحبه ذبح الثور ووضع قرنائه على قبر صاحبه ، بينما يتمتع بعض العشائر من أكل لحم الحيوان الذي يدعى القرابة له . وكذلك الحال عند قبائل (الدنكا) .

وأما قبائل الأقزام في مستعمرة (جابون) فيدعون الانتساب إلى الفيل المسمى (جور) Gor والذي يعتبرونه ملكاً للحيوان ، ويزعمون ان الرعد يمثل صوته ، وأنه يعاونهم على معرفة مواضع الصيد في الغابة ، بإيحاء ذلك إليهم في النوم . وفي روديسيا يزعمون أن رئيس القبيلة بعد وفاته يعود إليها في صورة أسد .

ورغم أن معظم قبائل (باسوتو) في جنوب أفريقيا أصبحت مسيحية فزالوا يطلقون على أنفسهم أسماء الحيوان (تمساح - وعل - أسد - قرد) وهكذا يحتفظون بذكريات ديانتهم الوثنية التي تربطهم بهذه الأنواع من الحيوان .

النبات والمعادن والأشياء :

تزعم البامبارا أن النبات يسرى به أحد جوهرى الروح (نى) فلا بد من إقامة شعائر دينية للاحتفاظ بهذا السرفيه ، وأن الطهاطم وحدها هي التي يمكن فيها الجوهر الثانى (ديا) ويعتقدون أنها هبة الله لعباده ، وأنها

متناصلة من الدم ، وأنها سبب الحياة بحيث إذا طعمت منها امرأة اخسبت من نطفة الرجل وأنجبت . وبعض النبات كشمرة (بالانزا) Balanza وخاصة حبة (الفونيو) Fonio تلعب دوراً هاماً في أساطير الخليقة لدى البامبارا والدوجون .

وعلى ساحل غينيا شجرة (الايروكو) Iroko هي رمز الخصب والتكاثر . ويعتقدون أن كل الأشجار لها أرواح . فإذا قطعت وجب تقديم القرابين لاسترضائها . ونجد نفس المعتقدات عند قبائل (أوبانجي) . وفي بعض القبائل (المانجا والباندا) ، أن لكل نوع من الشجر جنية تختصها بمزيد حبها فإذا قطع غصن منها ووضع إلى جانب محراب جاءت الجنية للاقامة فيه . وأكثر مواد السحر مأخوذة من خشب الأشجار وإفرازها ومسحوق النبات ، لأن القوة الكامنة فيها عظيمة .

ومن عجيب عادات قبائل (كيكويو) في كينيا أنهم إذا قطعوا الأشجار لتمهيد الأرض للزراعة تركوا شجرة سليمة بين مسافة وأخرى حتى تلجأ إليها الجان التي كانت ساكنة في الشجر المقطوع بعد أن يقدموا لها الأضاحي وبعد أن يتضرعوا لها أن تترك مسكنها وتنقل إلى الشجر الذي لم يقطع . فإذا اضطروا لقطع الأشجار الباقية جاؤوا بفرع وركزوه إلى جزع الشجرة لتلجأ إليه جنياتها ، ثم يحملونه إلى شجرة أخرى لتنقل من الفرع إلى الشجرة الجديدة حتى تستقر وتعيش فيها نهائياً .

ومن المؤكد أن بعض الجماعات تزعم أن لها صلة قري أو صداقة بنوع من النبات . فعشائر النوير النيلية تقدر ثمرة اليقطين لزعمهم أن جدهم جاء إلى هذه الدنيا داخل هذه الثمرة .

ومن المعادن المقدسة عند قبائل (الدوجون) معدن النحاس والذهب .
 إذ يعتبرونها ملكاً لله ، وفي عرفهم أن الذهب هو الأخ الأصغر للنحاس .
 وتعتقد بعض قبائل غينيا أن الذهب كائن حي تكمن فيه قوة رهيبة ،
 واستخراجه من باطن الأرض يوجب القيام شعائر دينية . وفي بلاد
 (توجو) يسود الاعتقاد بأن الحياة تجري فيه ويسمونه (الذهب الحي)
 ويزعمون أن هناك حيواناً وحشياً أشبه بالقط يعيش في باطن الأرض
 يتغذى بالدماء ويفرز مادة الذهب .

وتقدس قبائل (كوتوكو) بعض أنواع الصخور التي لها أشكال
 خاصة كرية أو مستديرة ومن مراسم التتويج لديهم أن يجلس الملك على
 حجر منها إعلاناً باعتلائه على العرش . وتعتقد قبائل (كرى) أن في
 بعض الصخور حياة لأنها حارة الملمس في الليل ، وأن لها قوة الانتقال
 من مكان إلى آخر حين يجن الظلام . فإذا رآها أحد هكذا وحاول الهرب
 منها فإنها تتبعه وتقتله أما إذا عرف عاداتها فانه يحتل مكانها في الفجوة التي
 تركتها . وحينئذ تصطلم معه وتمنحه دواء نافعاً للحياة .

وفي هذه المنطقة نفسها وفي غيرها تقدس النصب (الأحجار المنصوبة)
 ويوجه إليها الدعاء ، إما لما فيها من خاصية ذاتية أو إلى الجان أو الآلهة
 التي تسكنها . ومن الأشياء المصنوعة (مثل المحاريب من الحجارة
 أو الأواني) ما يرمز للأسلاف أو الجان على أن لبعضها عندهم حياة
 مستقلة : فتعتقد (السارا) مثلاً أن سندان الحداد له روح . وأنه ينتمى
 من كل إنسان يؤذى الحداد وكذلك القوارب لها روح .

عبادة الأرض والعناصر والنجوم :

الأرض في الغالب موضع تقديس بين القبائل الزراعية . ومعلوم أن غالب قبائل الزنوج تعيش على الزراعة . وكل قبيلة تملك قطعة من الأرض لا بد لها أن تتحالف معها . وليس معنى الأرض هنا الكوكب الأرضي كله وإنما الوطن الصغير الذي تسكن في أنحائه القبيلة . وليس التحالف مع الأرض نفسها ولكن مع الروح الذي يكمن في ذلك الأقليم المعين . فإذا نزحت القبيلة عن أرضها واحتلتها قبيلة أخرى ، فعلى هذه أن تستأذن « شيخ الأرض » وهو رئيس القبيلة السابقة حتى يأذن لها في سكناها وزرعها .

وفي شمال ساحل الذهب يعتبرون الأرض هي المعبود الرئيسي ، ويرغمون أن الأرض تشرق من إراقة الدم عليها . فإذا قتل إنسان سارعوا إلى إقامة الشعائر الضرورية تحاشياً لغضبها ، واستجلاباً لرضاها ، وتجنباً للكوارث التي يستتبعها ذلك الغضب . ولذلك نرى أن من سلطة « شيخ الأرض » أن يفرض النزاع بين الناس . وهم يقدمون القرابين والأضاحي تكريماً للأرض بانتظام ، في عيدين : هما عيد بذر الحبوب ، وعيد الحصاد .

ونرى العادة نفسها متبعة بين جيرانهم وهم قبائل (لوبي) فهي تقدم القرابين من الخمر والحلوى وحب الذرة أمام محراب « آلهة الأرض » وهو شكل مخروطي من الطين يقام إلى جانب شجرة عظيمة . وفضلاً عن هذه المراسم الشعبية عند المحراب ، فإنه يحجى إليه كل مذهب خرج عن

شريعته بارتكاب المحرمات ، كالسرقة أو القتل أو الزنا ، معلناً توبته والتكفير عن جريمته . وإلا عزفت الأرض عن ابتلاع ماء المطر فيبور الزرع .

وتعتقد قبائل (أيو) في نيجيريا أن الأرض هي ملكة الكائنات الساكنة في باطنها . وجميع الناس مملوكة لها سواء منهم الأحياء والأموات . وهي (بالاشتراك مع أرواح الموتى من الأجداد) مصدر التشريع والقضاء في شأن الأخلاق ؛ فالقتل ، وسرقة المحصول ، والزنا ، وولادة توأمين ، أو ولادة مولود شاذ الحلقة ، تعد إهانة لها . باسم الأرض تشرع القوانين ؛ وباسم الأرض يقسم الناس . ولالهة الأرض توابع من الآلهة الصغرى ومنهم آلهة الماء .

وتعتقد قبائل (أوبانجي) أن الأرض هي الآب الأول للإنسان ، ويكاد اسمها يكون عندهم مرادفاً لاسم (سيتو) Seto وهو بطل حضارتهم المعروف بأنه إنسانى النزعة ، ذو دعاية ، وأنه يملك كل نبات في الأحراش والغابات .

وقد تختلط عبادة الأرض بعبادة الأشجار والأحجار والمياه . ولذلك تقدس قبائل (لوبي) بعض الأجمات والدوح العظيم والكهوف والزواحف التي تأوى إليها ، كما يقدسون النهر وماءه ويزعمون أن الجنس الأبيض يسكن مياه الأنهار .

والقبائل التي تسكن المناطق الجافة (مثل الدوجون والبابارا) تعطى أهمية خاصة لإله الماء والأنهار ، فاذا فاض نهر سارعت قبيلة

(مندى) إلى تقديم القرايين له ، ضارعين إليه أن يروى أراضهم حتى يزرعوها . وفي غرب الكامرون حيث تقيم قبائل (بامون) و (باميلكه) يزعمون أن الصخور العالية تمثل آلهة الأرض والماء وبلغ من تقديسهم لها أنهم إذا أرادوا إثبات صحة شهادة إنسان جعلوه يلحق هذا الحجر بعد طليه بالآفاويه والتوابل الحريفة . ونرى في مناطق الجفاف هذه أشخاصاً ذوى مرتبة دينية في القبيلة لا بد من وساطتهم لاستدراار المطر . ويطلق على الواحد منهم اسم « شيخ المطر » ، والغالب أن رئيس القبيلة أو شيخ الأرض يتمتع إلى جانب سلطاته بتلك القوى الخارقة .

وتعتقد البامبارا في عناصر أربعة هي الماء والهواء والتراب والنار كما تعتقد (الدوجون) أن الماء مكمل لقوة النار ، وليس ضدّها لها ، لأن النار تحدث بخار الماء الذي يرتفع للسماء ، ثم يعود إلى الأرض في هيئة المطر . وتلك هي دورة الحياة . وأما قبائل (الدنكا) بأعلى النيل فيعتقد بعض عشائهم أن النار من أجدادهم ، ولذلك من المحرم عليهم أن يطفئوها . وبعض عشائهم يعتقد أن الماء هو جدّهم . ولذلك لا يستعملونها إلا طبقاً لقواعد دقيقة .

وعلى ساحل غينيا يقدس الناس القمم العالية ، والرياح : لأن لها آلهة ؛ كما أن قوس قزح والضباب إلهان عند قبائل (الأوبانجي) يرمز لها بصورة كبش أو أفعى أو ضفدع . والريح إله لأن له صوتاً ناطقاً . كما يعتقد آخرون في غرب الكامرون بأن قوس قزح حيوان خطر ؛ وأما الأقزام فتعتقد أنه قوس الصياد الذي في السماء و قبيلة (السوازي) يسمونه « أميرة السماء » .

وتعتقد قبائل (كردى) أن الشمس والقمر افترقا من قديم الزمان على أثر شجار تماسكا فيه ، وجرح القمر في وجهه فظهر فيه الكلف . ومنذ يومئذ لا يظهران مجتمعين . وتؤمن (السار) بأن الشمس والقمر والنجوم كائنات حية ، وأن القمر زوج الزهرة ، وأن النجوم من نسل الشمس والقمر ، وكلما صغر النجم دل ذلك على حداثة سنه . ويرى (البوشيان) في جنوب أفريقيا أن النجوم والقمر آلهة عظيمة ، تدمم بالصيد والمطر . ويعتبر (السوازي) أن الشمس ذكر ويشبهونها بالملك وأن القمر أنثى ؛ وأن تغير أوجهه يسبب الأحداث المختلفة . ويعتقد (الدوجون) أن تابع الشعري اليمانية هو الذى تولد منه الكون ، وأنه هو الذى ينظم فصول الزمن وأوقاته .

الفصل الثالى

مجمع الآلهة — العبادات — فكرة نشأة الكون

الإله الأعظم :

يبدو أن جميع شعوب أفريقيا تعتقد بوجود إله متعال خالق للكون ، إلا أنهم يختلفون اختلافاً كبيراً في تقدير سلطانه في تصريف أمور الدنيا ، والفكرة السائدة بينهم هي أن هذا الإله يبعد بعداً شاسعاً عن العالم ، بحيث يصعب على الناس الاتصال به ، وأن الأحرى أن توجه العبادة إلى من دونه من الآلهة ؛ إذ أنهم المكلفون من قبله بالسهر على أمور هذه الأرض وهم رسله ووكلاؤه .

وتطلق قبائل (دوجون) اسم (أمّا) Amma على الإله الخالق . وله عندهم المكانة العليا ، يتضرعون له في كل مناسبة ، ويذكرون اسمه قبل اسم أجدادهم . وفي كل بيت عظيم من بيوت الأسرة يقام له محراب على شكل مخروطي من الطين اليابس ، كما ترى له على طرق السفر محاريب أخرى لحماية المسافرين . ويقدم رب الأسرة القرابين إليه . وله أيضاً كاهنات خاصات به ، يتعرضن لازمات عصبية ، ويزعمن أن في قدرتهن الكشف عن الغيب . غير أن العبادات التي توجه إلى هذا الإله العظيم أقل عدداً من العبادات التي توجه إلى الأجداد الأسطوريين .

وعند (البامبارا) يعرف الإله الأعظم باسم (فارو) Faro ولهم عنه فكرة عجيبة ، فهو نفسه مخلوق من السديم الأزلى ، وصار إله الماء ، ثم تغلب على إله الأرض (بمبا) Pemba ونظم شئون العالم . ويتصورونه فى صورة كائن مائى لونه بين الاشقر والنحاسى ، مزدوج الجنس ، يمثلونه فى صورة عروس البحر ، لها رأس بيضاء اللون ، وأذناها على هيئة زعانف تساعد على الحركة فى الماء . وهذا الإله غذاؤه دم الأضاحى وحبات الطماطم وحساء الذرة . وهو الذى ينزل الغيث ، ويهب الحصاد ويمنح الخصب للإنسان ، فيكثر نسله ؛ ويعلم البشر فنونهم وصناعاتهم ، وهو حافظ الأرواح ومصرف أمور الكون . والعواصف والمطر الجارف من فعله ؛ والجفاف والعقم من مظاهر غضبه ، والصاعقة سلاحه . ويستطيع هذا الإله أن يظهر فى أشكال عدة — فى شكل غزال أو كبش أو امرأة حسناء ، أو ينحدر فى صورة سيل جارف ، أو يعلو فى صورة ضباب كثيف يرتفع من أرجاء المستنقعات . ومكانه المحبب إليه هو ماء نهر النيجر . وله من الملائكة والجن فى كل مكان عدد يستخدمهم . وكاتم سره الخاص حداد مقطوع اليد ، ولا يجوز أن يلوث محرابه طمث امرأة ، ولا يجيب دعوة الداعى إلا عن طريق كهنته .

ويتخذ هذا الإله الأعظم أسماء مختلفة لدى القبائل التى تعيش على امتداد ساحل غينيا . فهو يعرف فى (أشانتى) باسم (نانا) Nana وعند (ايفا) باسم (ماو) Nawou ، و (أولورن) Oloroun عند (اليوروبا) و (شوكو) Choukou عند (الايبو) . ورغم أنهم

يقدسونه ويصفونه بأنه أزلى خالق للكون ، لانهاى ، يعتقدون ألا أهمية له كبيرة فى تصريف شئون الدنيا . وله معابد قليلة تتخذ على شكل اسطوانة من الطين ، ذات شعب ثلاث تسمى (شجرة الله) . ويعتقدون أنه يعيش فى سماء لا يدركها البصر ، وأنه وكل الآلهة الصغرى بشئون الأرض . ويفسر أهالى (توجو) تباعده عن الناس بأنهم كانوا لوثوا سماء بأيديهم القذرة .

وفى غرب الكاميرون يسمون الآله الأعظم باسم (نيامبي Nyambe) وهو الذى خلق الأرض ، ولهذا يظن بعضهم أنه يعيش فى باطنها إلى جوار الموتى . وتلقبه بعض القبائل باسم (الموت) فهو إله مؤذ يعذب الناس ويقول آخرون أنه يعيش فى أعلى عليين وراء القمر أو وراء أطباق السماء وأنه نزل إلى الأرض على نسيج أحد العناكب يحمل الرجل والمرأة ليسكنهما الأرض ، وهو بصير بكل شيء ، إلا أن أحداً لا يستطيع أن يصل إلى مكانه . فاذا ظهر الهلال فى السماء رفع الداعى أكفه بالضراعة إلى الله قائلاً : « إني لست من عبادك الجشعين » وبعضهم يتخذ من إزدواج مكانه إزدواجا فى ذاته ، فيكون هناك آلهان إثنان : إله تحت الأرض وإله فوق السماء ، ويعلمون عزلة إله السماء وبعده عن الخلق بأنهم عصوه بقتل الحيوان وسرقة النيران . ولما كان قادراً على كل شيء فهو مكتف بذاته لا يحتاج لأحد ، ولذلك لا يذكره الناس إلا قليلا ..

وتؤمن قبائل (أوبانجي) بأن الله كما أنه لا تتناهى قدرته ، لا تتناهى رحمته . ولهذا لا يخشونه ، ولكن يتقربون إليه بأقوال وأشارات أصبحت آلية . وقربانه لديهم بعض فئات الطعام يلقى به فى الغاب .

والقسم العظيم بإسمه : « السماء ناظرة إلى » . وأما الأقزام فيعترفون فيما يظهر بإله عظيم بعيد كل البعد عنهم لا يعنيه شيء . ويتقربون إليه ببواكير الصيد وبشائر الفاكهة الجديدة . .

وفي كينيا ومناطق البحيرات الكبرى ، الإله الأعظم (مولونجو) Mouloungou قادر على كل شيء . حاضر في كل مكان ، وله أربعة عروش يقع أحدها على قمة جبل كينيا . ولا يعبدونه إلا لماما ، ولكنهم يذكرونه كثيراً ، قائلين مثلاً « حماني الله في ليلتي » ويبدون إنزال الغيث وقد يمثل بالشمس ، في عبارات غامضة .

وأما قبائل أعلى النيل فتعتقد باله سماوى عظيم خلاق ، ينزل الغيث لا يعرفون له صورة مادية ، لأنه لا شكل له ولا تدركه الأبصار ، وإنما يدركونه بالعقل ، فهو روح عالمى هو مصدر الخير والشر على السواء . فإذا التبس عليهم معرفة شيء فذلك الشيء إله في نظرهم . ودعواتهم موجهة في غالب الأمر إلى وسطائه من الآلهة الصغرى ، فإذا عجز هؤلاء عن إجابة دعواتهم انصرفوا عنهم ولجأوا إلى الإله العظيم آخر الأمر . .

وفي جنوب أفريقيا يعتقد قبائل (دامارا) في إله خالق ، ويمثلونه بأمر الصيادين يسكن وراء النجوم حيث يأوى الموتى في ظلال الشجر . أما (البوشمان) فليس لديهم فكرة واضحة عن إله خلاق ، وإنما يزعمون أنه قذف بجذائه إلى السماء فخلق القمر بهذه الحركة ، ثم اعتزل منصبه — وعند (الهوننتوت) إله يسكن السماء ، وهو أحد قدامى أبطالهم جرح في ركبته في إحدى المواقع . ويلقبه (السوازى)

بالرئيس الأكبر وله رسول بينهم يعرف باسم (الساق) ولا تؤدى لها عبادات .

الآلهة الصغرى أو آلهة المرتبة الثانية :

والآلهة الصغرى جماعة موكلة من قبل الإله الأعظم بتصريف شئون البسيطة : ويختلف عددهم تبعاً للبلاد والأقاليم . وعامة السودانيون يتخذون أجدادهم الأسطوريين أو أبطالهم المؤسسين لمدينتهم ، بدلاً من هؤلاء الآلهة الصغار . ولدى قبائل (لوبي) ما لا يقل عن عشرين إلهاً صغيراً . ويختص كل واحد منهم بمهمة ما : فأحدهم يحمي الناس من المرض ، وآخر يحميهم من اللصوص ، وثالث يهب نعمة العقل والذكاء ، ورابع يمنح الآدمي الخصب والنسل ، وآخر يختص بوفرة الحصاد ، أو يحفظ الناس من أذى السحرة الخبيثاء ، وآخر يراقب النساء لينعمن من خيانة أزواجهن . وهكذا ، حتى أن أحدهم يصيب الإنسان بداء المفاسل (روماتزم) ..

فاذا اتجهنا إلى ساحل غينيا نجد أنه هو العنصر الذى يسود فيه الاعتقاد بهؤلاء الآلهة الثانويين . ولهم بها أسماء تختلف باختلاف القبائل ويبلغ عدد هؤلاء الآلهة بين قبائل (يوروبا) قرابة أربعائة ينشرون حمايتهم على القرى والعشائر . والآلهة عند قبائل « اشانتي » مائتون ، يرمز لهم بأحواض من نحاس . وعند قبائل « ايفة » زراعيون ، يسكنون الأحراج منهم الذكر ومنهم الأنثى ؛ فاذا اشتركت عشيرتان فى تقديس إله بعينه حرم عليهما القتال والزراع .

وفوق هذا الحشد من الآلهة الصغرى يوجد فى تلك المناطق نفسها إلهة الأرض أو الإلهة الأم ، يتصورونها زوجا لاله السماء . ويحتفل لعبادتها احتفالات سنوية فيها شذوذ أحيانا ، ومنها إله للجدرى ، ومنها إله الماء والبحر . ومنها إله شرير يدعى « لجة Legba » ، وهو فى الوقت نفسه مصدر الحياة ومصدر الكوارث ، يتجمعون لاستعطافه واسترضائه وله معبد فى كل قرية فى أفصح ميادينها ، وليس له كهنوت خاص به . وأما اله الجدرى فكهنته يقومون بواجب صحى ، إذ عليهم عزل المرضى ودفن الموتى ..

وفى تلك الأرجاء يطلق اسم « فودون Voudon » على كل شىء مقدس . ومنها نشأت العبادة الدينية « فودو Voodoo » المعروفة فى جزر الأنتيل ، ويقل عدد الآلهة الوسطى فى « أوبانجي » ، إذ لا يعرف هناك إلا ثلاثة آلهة : للسماء والعواصف وللأنفس .

وتتوجه قبائل أعلى النيل إلى رسول الاله الأعظم . وليس هذا الرسول سوى البطل المؤسس للقبيلة ، والذي جلب اليهم الحضارة . ويزعمون إنه اختفى أثناء عاصفة هوجاء . وتجل قدرته فى المحارب وفى شخص رئيس القبيلة حين يجلس على عرشه ..

وأكثر آلهة قبائل (الباتو) وقبائل جنوب أفريقيا الهة صيد . ويقدمون إليها جزءا من حيوان الصيد ، كالجمجمة مثلا ، قربانا لها . ولآلهة الصيد معابد وكهنوت عند قبائل (أفيمبوندو) .

الجن :

يوجد في كل مكان بتلك الأرجاء ما يسمى (جن الغاب) . وبعضهم يصعب تمييزه عن الآلهة الصغرى . وبعضهم الآخر يشبه الإنسان والحيوان .

فثلاً يوجد عند قبائل (الدوجون) فريق من الجن يدعى (يبيان Yéban) وهم مخلوقات صغيرة الجسم نحيفة ، لهم رؤوس ضخمة ، وهم سلالة الإنسان الخالد ، ويسكنون الكهوف والامحات الملتفة ، وقد تحمل منهم النساء . وهم الملاك القدماء للأرض . ومنهم فريق يدعى (ادمبولو) Adoumboulou وهؤلاء هم الذين خلقوا الموت . لهم لحي طويلة ، وأجسام ضئيلة . وفريق آخر (جينان Gyinan) وهؤلاء يتميزون بأن لهم ذراعاً واحداً ، وساقاً واحدة ، وشعراً أخضر اللون ، ويسكنون الأشجار وهم يسببون المرض .

وأما عند (الماندانج) فيعرفون باسم (وكلو Woklo-ou) وهؤلاء يتجولون حول البيوت ليسرقوا الطعام . ولذلك ترى النسوة يحرقن على تغطية الأواني ويمنعن أطفالهن من الخروج ليلاً خوفاً عليهم من أذاهم . وتعرف الجان عند (البامبارا) باسم (دازيري Dasiri) وهي تحرس الدور وأخرى تسمى ه سوبا ، تحرس الطرق . وتقدم لهذه القرايين من ثمر الكولا أو من خيوط القطن حتى يتخلص الناس من أذاها ..

وتزعم قبائل (مندى) أن لها جانا تكشف المستقبل للشخص في

أحلامه . إذا قدم لها قربانا ولتلك الجان أشكال مختلفة بعضها على شكل سلسلة من الذهب ، والآخر على شكل صفارة ، وثالث على هيئة رجل أشيب ذى لحية بيضاء يستدرج المسافرين إلى الأدغال .

وفي ساحل الذهب تكثر الجنيات وعفاريت الغاب وهؤلاء بالمثل صغار الأجسام ، لهم رؤس كبيرة ، ويغطى أبدانهم شعر كثيف . فإذا آذاهم إنسان أصابوه بالجنون . والجنيات عند (الأشانتي) لها قدم فى أعلى الرأس ، ولها ساق معكوسة الوضع ، وهى تصفر بدلا من التكلم . ومع هذا فهى عون للتطبيين فى أبرائهم للرضى ..

ولدى (السارا) مردة تسمى (سو Su) ويزعمون أنهم عاصروا الاله الأعظم قبل نشأة الخليقة وهم الذين يضعون قوة الفو فى البذور ويخرجون الأجنة من ظلمات الأرحام إلى نور الوجود ، وينزلون المطر . ويعيشون فى باطن الأرض أو فى جوف بعض الطبول وعندهم جان يدعى (كوتى Koï) وتخشاه المرأة خوفا من اعتدائه على عفافها ، لأنه يستطيع أن ينفذ إلى رحها ، ولذلك ترى النسوة يلبسن منطقة يتدلى منها بين الفخذين قطعة مستطيلة من الخشب ليضلن بها هذا الجنى الفاسق ..

وعند (الأوبانجى) حشد من الجنيات ، وهى أرواح مؤذية تجتمع ليلا لقتال نفوس الناس ، لها أصوات كمواء القطط ، تسمع حول البيوت . وهى تستطيع أن تحل فى الأبدان ، ولا تطردها منها إلا حفلات (الزار) .. ويتصورون جن الماء جنأ أبيض اللون ولهذا يقدمون إليه قرباناً أبيض اللون كذلك ، كالدجاج الأبيض والبيض والذرة .

وعند (المانجا) نجد الجن على هيئة ثعبان ضخم ، وقرينته حيوان بحرى . وأما جن الغاب فهو مخلوق قزم ، مشوه الخلق ، له شعر طويل وجسم قوى ، وهو يجوب الغاب حاملا رحله تتبعه كلاب الصيد ، فإذا التقى برجل طلب إليه النزال . ومع هذا فهو جنى طيب القلب ؛ وقد علم الإنسان الصيد واستعمال النار :

العبادات :

تتخذ معابد قبيلة (دوجون) أشكالا متباينة ، فبعضها دور مربعة الشكل ، مزينة بنقوش وصور رمزية ؛ وبعضها ذات أبراج اسطوانية عالية ؛ وبعضها تطل واجهته على حافة صخرة منقورة . ونجد فى داخلها المحاريب والمذابح ، وهى حجارة مقعرة أو مخروطية ، وبها كل ما تتطلبه العبادة من أدوات .

والحقيقة أن بيت رب الأسرة (جنا) Ginna هو نفسه يعد معبداً ؛ إذ أن بواجهته تجاوى ذات عدد رمزى تحوى أدوات مقدسة لأفراد الأسرة . فرب كل أسرة هو كاهنها . وأما الكاهن الأكبر للجماعة كلها فيعرف باسم (هوجون) Hogon مقدس لديهم . ويزعمون أن ثعباناً معروفاً باسم (ليه) Lébé يمثل الجد الأول ، يسعى إليه كل ليلة ، فيلحق جسمه ويمنحه القوة كي تطول حياته حتى غده . ويجب ألا يتسبب عرق من جسده ، وإلا ذهبت قواه . ولذلك يفرض على الناس أن يحملوه على ظهورهم . وإذا لمست قدمه حقلاً مزروعاً أصابه الشلل والجفاف ؛ لأن أثره كأثر الشمس المحرقة . أما لعبه فهو الذى يسبب رطوبة الجو .

وفى عرفهم أن الموت يطلق ويشد القوى الحيوية لليت ، ويحدث اختلالا شاملا فى توازن القوى ويظهر هذا الاختلال بوجه خاص فى تخير الذرة وهو القربان الذى يصب على محارب الأسلاف . وإذا سكر قوم وعربدوا من الشراب احتفظوا بالقوى الحيوية لموتاهم الذين يرضيهم ذلك لأنه يعين على توزيع قواهم الحيوية بين محاربيهم . فيحدث التعادل . وقد صرح (أوجوتلى Augotemmel) للعلامة (جريول) بقوله : « إن شرب الخمر إلى حد السكر يكاد يكون فرضاً دينياً على الطاعنين فى السن : لأن عربدتهم تبدو اختلالا فى الظاهر ولكن الحقيقة أنها وسيلة من وسائل الاحتفاظ بالنظام الطبيعى لتوزيع القوى ، . والاتجاس : وهم طبقة معقاة من مراعاة المحرمات (مثل الحداد أو بعض أفراد الأسرة الذين اختيروا بوسائل غيبية) يستطيعون وحدهم التصرف فى القوى الحيوية المندفعة من الموتى دون أن يصيبهم منها أذى لما يمتنعون به من مناعة .

والغرض من نحر الذبائح للقربان هو استعادة القوى الحيوية . وكلمة (قربان) فى لغة (الدوجون) مشتقة من كلمة معناها (إعادة الحياة) . فالمرض وارتكاب المحرمات تسبب فقدان بعض تلك القوى ، ولا يمكن استعادتها إلا إذا سال دم الضحية وصبغ به المحراب ، أو سكب عليه خبيصة مطبوخة من الذرة . وبهذه الوسيلة يستعيد المتعب تلك القوى التى ضاعت منه ، كما تستعيد أسلافه قواهم ؛ لأن القربان والضحايا تحدث شركة روحية بين الأحياء والأموات . والمثل السائر بينهم هو (إن كل فرد يمنح الجميع ويأخذ من الجميع) ..

وأعظم الأعياد الدينية عند (الدوجون) هو عيد (سيجي Sigui) وهو يتكرر في نهاية كل ستين عاماً ، احتفالاً بتبديل القناع الأكبر القديم بالقناع الأكبر الجديد . والقناع الأكبر عندهم هو حامل روح الجد الأول للقبيلة . وفي هذا الاحتفال يخصصون جماعة من المراهقين حملة الأسرار الدينية ، لخدمة هذا القناع وصيانتة . والقناع عبارة عن تمثال من الخشب يمثل أفعى هائلة تنتهي برأس دقيقة . ويضحي عندئذ بحیوان و طير ، لنقل روح تلك الضحايا وتحل في تلك الأفعى الخشبية ، فتدب فيها حياة رمزية . وكل قرية لها قناعها الخاص بها . ويلبس المراهقون الذين يشتركون في هذا الاحتفال لباساً مركباً من لباس الأثني والذكر . وتستمر هذه الأعياد اثنين وعشرين يوماً ، يقضيها القوم في التنقل والرقص واحتساء الخمر . .

والفرض من هذه الاحتفالات أن تغفر خطايا الشباب الذين كانوا سبباً في موت جدهم ؛ ويهدف بها في الوقت نفسه إلى تجديد الهیئة الاجتماعية بإمدادها بقوى مجددة لحيويتها ، وإلى توثيق عرى الأخوة والاتحاد الروحي بين أبناء القبيلة ، باشتراكهم في هذا الشراب ، وأما القناعات العادية ، وهي من خشب لين ، فتتخذ أشكالاً رمزية معروفة ، تمثل الحيوان (كالوعل أو الأرنب أو القرد أو الفهد) أو الطير ، أو شخصيات ، أو أشكال بيوت . وهذه الأفعى هي أدوات الرقص في الاحتفالات . ويحتفظ بها في مأوى خاص بها . والنقوش الرمزية ذاب الطابع الخاص بتباين ألوانها ويستعمل فيها التربة ، والرماد ، ودقيق الأرز ، وصدأ الحديد ، ودم ذبائح الضحية . وهذه الصور يقصد

بها إلى الاحتفاظ فيها بالقوى الحيوية للبوتق . ويصحب هذه الاحتفالات رقص في الميدان الكبير أو فوق سطح المنازل . ويسير موكب الأقنعة حسب نظام مقرر . لكل نوع خاص من الرقص يؤديه في الحلبة . ولهذا الأقنعة محارب خاصة بها ، وتتصل اتصالاً وثيقاً بالشعائر التي تقام طلباً للنصب أو استسقاءً للطر .

البامبارا :

تصف مدام (ديتيرلين) العبادة عند قبائل البامبارا بقولها : « إنهم يعبدون السماء ، وأركان الأرض الأربعة ، والجن ، ويتخذون من الحجر أو الشجر أو أماكن الماء محراباً للذبح الضحية ، كما يذبحون الضحايا عند المحارب المحفوظة في المعابد الخاصة أو العامة . وكل بالغ إذا كان رب أسرة مالكا لمسكن وأجريت له عملية الختان فهو أهل لأن يقوم بالتضحية » .

وفي اعتقادهم أن القوى الحيوية للذبيح تنتقل إلى المعبود الذي تقدم إليه الضحية الآباء ، أو الجن ، أو (فارو) في الشعائر الزراعية . ويضحى في العادة بحيوان أليف (طير ، أو كبش ، أو ثور) إلا إذا كان المتقرب صياداً فلا بد أن يقدم حيواناً برياً . ويلزم أن تطول مدة احتضار الذبيحة لأن شكل حركاتها يتخذ العرافون للتكهن بالغيب . ويوزع لحم الضحية على الحاضرين ، وفيه رمز الوحدة الروحية بين الجميع وفي الماضي كانت العادة أن تقدم ضحية بشرية ، في الأحوال الخطيرة التي تهتم المملكة .

وكانت الضحية في الغالب شخصاً أشقر اللون (عدو الشمس) وهو اللون الذى يفضله الإله (فارو) وتتغير مراسم التضحية حسب الظروف فهى :

١ - فى المشاكل الخاصة بالحكم كان الشخص يشطر عرضاً إلى شطرين بجبل يشد حول بطنه وذلك فى حضور الملك الذى يفرض عليه أن يحتفظ بسكونه دون أن يبدى حراكاً ثم يحمل الشطر الأسفل فيلقى فى النهر قرباناً للإله (فارو) وأما الرأس فتدفن تحت عرش الملك .

٢ - وفى الازمات المالية يفرز فى حلق الشخص عصا من الغاب الهندى فتتفد إلى بطنه

٣ - وفى حالة وفاة عدد كبير من أسرة واحدة ، يتقدم رب الأسرة إلى الملك ليحصل منه على إذن بتضحية شخص أشقر . فإذا ذبح هذا أخذ لسانه وأنفه وعيناه لتأكلها الأسرة . وأما الجثة فتدفن فى فناء المسكن . وكانت العادة عند قبائل الدوجون قديماً أن يضحوا بشخص أشقر اللون فى احتفالهم الدينى بتجديد الكون .

والعبادات المنزلية تستهدف الاحتفاظ بالقوى الحيوية للأسرة ، ودفع كل خطر قد يصيب الجماعة ، واستقبال أرواح الموتى ريثما تحل فى أجسادها . وتفرد فى البيت حجرة تضم المحاريب الخاصة بكل فرد منها ، والمحاريب العامة للجماعة ، وتصور جدرانها بصور ترمز للأموال والأحياء وأجزاء الكون . وفى فناء البيت يوضع الكرسي الخاص برب الأسرة مرتكزاً على جثة شخص أشقر . وعلى بضعة أشياء رمزية .

ويحيى هذا الكرسي أفراد الأسرة كل يوم ويقدمون له القرابين من شراب أو ثمر أو ضحايا . والغرض من ذلك أن يزيدوا قوى رئيسهم .

وفضلا عن هذه الشعائر المنزلية توجد شعائر جماعية للقرية توجه للآله (فارو) أو للأسلاف ، تقدم فيها ضحايا من الضأن أو الطير ، أو قرابين من القطن وثمر الكولا ، على أن تكون كلها ذات لون أبيض .

وتدفن في أسفل المحاريب الخاصة بالأسلاف ، جمجمة وأدوات زراعية .

وإلى جانب هذه العبادات اليومية العادية ، تقام عبادات موسمية . فمثلا في نهاية كل شهرين تجمع قامة القرية التي يزعمون أن بها قوى حيوية كثيرة — ثم تحرق بعد ذبح الضحية ، ويقدم جزء من رمادها إلى إلههم (فارو) . والبقية إلى أعضاء مجلس (الكومو) الدينى ليخلطوه بطعامهم . وكذلك تنحر الضحايا قبيل موسم الأمطار وبعده حول شجرة مقدسة أو على شاطئ نهر . ويقترن هذا العيد باحتفالات للغناء والرقص واللهو ، وكذلك تقام شعائر لاستقبال العام الجديد وتوديع العام القديم . والطقوس الزراعية لاحتصر لها في هذه الجماعة التي للزراعة عندها المقام الأول .

الشعوب السودانية الأخرى :

العبادة عند السودانيين تقوم على أساس محلى ، هو الأسرة والقرية دون ما واسطة من كهنوت .

فقبائل (مندی) تقدم القرابين في أوقات الحرث وبذر الحب والحصاد، أو إذا انتشر بينهم مرض. وتقام حفلات التبعيد حول قبر أو في مكان مقدس. ثم ينادون أسماء موتاهم بترتيب اللاحمية، ويدعونهم، ويقدمون لهم قربانين من الارز والدجاج، ثم تقام ولائم يقدم فيها الاطفال على الكبار، ثم يترك شيء من الطعام بعد الحفل لنلقطه الطيور، أو يأكل منه عابر السبيل، فاذا وجد كما هو في اليوم التالي دل ذلك على غضب الاجداد، ولا بد من إعادة الحفل حتى يرضوا عن ذريتهم.

ولقبائل (لوبي) محراب أمام كل بيت، وقد يكون على سطح البيت وقربانهم في محاربههم خمر، أو حساء ذرة مطبوخة، أو ذبح دجاجة. وكل ذلك مقرون بالدعوات. وأما في داخل البيت فتوضع أصنام من الطين اليابس تمثل الهة الأسرة أو الهة الاسر الحليفة، لحراسة الدار ويتولى رب الأسرة إقامة الشعائر الدينية بالنيابة عن أهل بيته. غير أن كل فرد له حق القيام بشعائره الخاصة. فاذا حدث أن انتقلت الأسرة إلى مسكن آخر، حملت معها أصنامها. فاذا تعذر نقلها لضخامتها قطعوا رؤوسها حتى يسهل نقلها.

على ساحل غينيا:

تتميز العبادات في تلك الأرجاء بوجود الكهنوت والجمعيات الدينية للالهة الصغرى. ولكل إله لديهم كهنوت خاص به، كما أن لكل الهه معبداً، وهناك معابد كبيرة من الطين الصقيل المزين بنقوش مختلفة

الالوان . وليس من الحتم أن تقام الشعائر الدينية فى داخل تلك المعابد الكبيرة ، فقد تقام فى محاريب صغيرة فى الحقول أو الغابات المقدسة ؛ أو فى كوخ متواضع . وفوق ذلك فكل بيت فيه محاريبه ، ويحتوى كل معبد على أدوات متنوعة . ففي معبد اله الجدرى نجد أنواعا من الجلود والعظام ، مع ورق من شجر معين ، و تراب من مكان معين ؛ تخلط بعضها ببعض . ويقدم المتدينون للكهنة الهدايا المتنوعة : كاللحاح والدجاج والزيت وخر الذرة أو غيرها من الخور ، والقماش . ويقوم المتعبدون من الكهنة . فإذا نحر الضحية وزع شئ من لحمها على الحاضرين

وفى داخل أديرة (اشاتى) نجد أوعية من نحاس أو سلالا تحتوى قطعاً من حجر الصواعق ، والسن ؛ والقرن . وفى داخل أديرة (داهوى) توجد صور منحوتة لوجوه لا يرفع عنها الستار .

ولكل إله يوم خاص يعبد فيه . ولا يجيب الإله على سؤال سائل إلا بلسان كاهنه إذا كان فى حال انجذاب وغيوبة حين تنقمصه الأرواح كما يقولون ، مؤزرآ مسوحة الكهنوتية . وغالباً ما تكون القرابين من زيت النخيل أو ثمار الكولا أو القواقع . ويضحى بالطير والكلاب والخنائير والغنم والثيران ، حسب الملابس ، طبقاً لما يطلبه إلههم الإله . فالدم من نصيب الآله ، أما اللحم فيوزع على الحضور لادماجهم فى الوحدة الروحية . وغرضهم من نحر الضحية نقل قوة الحياة وقوة الأخصاب منها إلى المتعبد . وفى الوقت نفسه قد تكون كفارة عنه ؛ وفى الزمن الغابر كانوا يتقربون للآلهة بالضحايا البشرية ؛ وهذه إنما تكون

في المناسبات الخطيرة ؛ كالكوارث أو عند موت الملك أو في الأعياد السنوية .

والعجيب أن الضحية من البشر كان يتقبل ذلك عن طيب خاطر ، اعتقاداً منه أن روحه ستحل بعد قتله في جسم شخص خطير المكانة .

وفي المعابد المنزلية يقيم الصلاة أكبر الأعضاء سنناً ، وهو عارى الكتفين ، رمزاً للتوقير والتعظيم . أما الحاضرون من غير رجال الدين فيبقون بعيداً جاثمين على الركب . وفي العبادات التي يؤمها رجال الكهنوت ، تكون مهمة الآخرين القيام بالغناء والترتيلات أو التصفيق .

وتقبين موهبة رجل الدين وهو في سن مبكرة . ويستمر في مهمته مدى حياته . وغالباً ما يكون للكاهن صناعة أخرى ، كالصيد ، أو الحدادة ، أو العرافة ، أو بيع التائم المقدسة . ولكل إله توائمه ومخلفاته الخاصة . وفي (داهومي) يلقبون الكاهن باسم « حارس المقدسات » . ومنصب الكهنوت أما وراثي ، وإما أن تدل عليه عوارض مس الجن . والكاهن هو أمين الصدقات والندور ، ومع ذلك يقولون « أن الله هو الذي يعطيه القوت ! » .

وقد تستغرق مدة التدريب على الكهانة من سنتين إلى ثلاثة ، يفرض فيها على المتدرب مراعاة العفة التامة والامتناع عن شرب الخمر ، والشراهة في الطعام ، أو الاشتباك في شجار . ويعيش الذين تحت التدريب في رعاية كاهن وتحت إشرافه . ففي السنة الأولى يلقنون شعائر التطهر وينامون في الأخراج المعمورة بالاشباح والأطياف . وفي السنة الثانية يتعلمون

الطلاسم والتماثم والمحرمات الدينية ، وفي الثالثة العرافة والكهانة .
 ويعتبر الكاهن في مرتبة (زوج الإله) وهو مكلف بخدمة بيته (صيانة
 معبده) وتقديم طعامه (أخذ النذور والقرايين والضحايا) . كما أنه
 يعتبر (لسان الإله) وهو وحده الذى يعبر عن إرادته بصوت خاص .
 ويجوز أن يكون للإله كاهنات من النساء . ويخضع المتدينون أيضاً
 لتدريب جماعى في الأديرة . وقد وصف (بارندر) Parrinder أحد
 هذه الأديرة في داهومي بقوله : « دير إله السماء عبارة عن مكان مكشوف
 فى الهواء الطلق ، يحيط به سور ، وحوله أكواخ يعيش فيها المبتدئون .
 وفى وسط المكان شجرة ضخمة عظيمة الفروع وارفة الظلال ، يصبغ
 الدم جزعها ، وحولها صف من محاريب وأشياء مقدسة ، من عصي
 وأعلام وآنية مقلوبة تحت أغطية من القش . وتجثو الكاهنة على ركبتيها
 عند إقامة الصلاة ، بينما تدق الطبول وتصدح الأغاني فى سكون الليل » .

ومدة الترهيب فى الدير للبنات أطول منها للصبيان . فقد تستمر
 ثلاث سنوات . ولا بد للمبتدئ أن يغير من شخصيته ، وأن يتنكر
 لأهله وأصدقائه ، ويقطع الصلة بهم ، وأن يتعلم لغته على وضع جديد .
 وغالباً ما يطلب الكاهن إلى أسرة ما أن تخصص أحد أطفالها للخدمة
 الدينية . ومحرم على كل إنسان من غير رجال الدين أن يدخل الدير
 أو يتصل بساكنيه ، حتى أن الأسرة حين تقدم الطعام لآبناتها تضعه لهم
 خارج أسوار الدير . وعندما يلتحق المبتدئ بالدير يجز شعره ، ويعرى
 صدره إلى وسطه ، ولا يعطى لإلقباً وطبقاً . ولكل من البنات والصبيان
 مكان خاص به . فالعفة واجب مقدس ، وكانت عقوبة من ينتهكها

الإعدام . وتدور الحياة في الدير حول أداء التراتيل والصلوات ، وحركات الرقص ، والتثقيف الديني ، والتدريب على الورع ، كما يتعلم المبتدئ صناعة أدوات من نسيج الاليف النباتية لاستعمالها في الاعياد وتوشم وجوههم ورقابهم وصدورهم وظهورهم وأغذاهم ، وهي المواضع التي تقع عليها عقوبة الضرب من الإله إذا هم باحوا بالأسرار المقدسة التي لقنوها . وقد يسمح للبستئين بالخروج من الدير بعد تسعة أشهر ، بشرط أن يختفوا وينتكروا فيظنهم من يراهم أشباحاً أو أرواحاً . وعند انتهاء مدة التدريب يحتفل بالخريجين احتفالاً عظيماً ، تحضره جميع الأسر ، حيث يقطعون الوقت بالرقص وصب الخمر قرباناً للالهة ويدفع أهل الخريج منهم فدية ، لأن هؤلاء الخريجين يعتبرون كأنهم أسرى قد جاءوهم من بعيد . وكثيراً ما يعود بعضهم إلى الدير ليقضوا به فترات للخلوة والتعبد .

وفي البلاد التي يسود فيها نظام الملكية ، ولا سيما في (الاشانتي) و (داهومي) تحتل عبادة الملوك القدماء مكاناً بليغاً من الأهمية ؛ لأنهم يزعمون أنه يتوقف على رضا هؤلاء الموق العظام نعمة خصب الأرض وتكاثر النسل .

وفي قبائل (ايبو) تعد عبادة الأرض هي العبادة الرئيسية ، وكاهن الأرض هو صاحب السلطان في تنفيذ الشرائع المدنية والاخلاقية . والصناعات الخرفية متقدمة تقدماً ملحوظاً في تلك البلاد ، وفي كل أفريقيا السوداء . ولها أغراض دينية ورمزية .

أفريقيا الاستوائية وأعلى النيل :

تقام العبادات في غرب الكاميرون داخل مكان عار عن الشجر والنبات ، على شكل دائرة ، يحيط به سور من الشوك قريب من القرية ، وللنساء دور هام في الأعياد الدينية الزراعية التي تقام هناك . وعبادة الاجداد لدى قبائل (أوبانجي) تقام حول فرع ذى شعب من فروع شجرة مقدسة مغروسة بالقرب من بيت الأسرة ، تعلق به جماجم الصيد وآلاته . وتوضع فيه القرابين ، ويتجمع حوله أفراد الأسرة للولائم الدينية . وحول مسكن رئيس العشيرة ، يقام محراب الاجداد ، وهو عبارة عن مذبرين من خشب مقدس ، توضع عليهما ثلاثة جذوع غليظة . كما توجد بيوت للوتى وهى وتد صغير يحيط بها سور من القش . وهناك شعائر خاصة منها ما هو للعاصفة ، ومنها ما هو لإله النفوس .

وعند قبائل (سارا) تقام أعياد دينية زراعية لإله الذرة . وهم يزعمون أن الذرة خرج من يقطينية . يدعى هذا الإله فى وقت بذر الحبوب ، وتقدم بشائر المحصول قربانا له ولهم آلة موسيقية يستعملونها فى الرقص الدينى يزعمون أن روح صاحبها السابق تحل فيها زمناً بعد وفاته وإنما أودعها ملكته الموسيقية . ولهم أقنعة يلبسونها فى الاحتفال الزراعى الدينى . ولها أهمية عظيمة كما هو الحال فى (الكامرون) . ولكل أسرة قناعها الخاص بها وأما قبائل الأقزام فليس لديهم فيما يظهر شعائر دينية كثيرة ، بل أن وجود فكرة السحر عندهم محل جدل بين العلماء . ولقبائل أعلى النيل معابد لآلهتهم الوسطى . والمعبد عندهم عبارة عن كوخ يوضع

فوقه بيضة نعام . ولهم في كل عام عيدان كبيران : عيد وقت نزول المطر ، وعيد وقت ظهور الثمار . ورؤساء القبائل هم الذين يقدمون القرابين والذبايح في الاحتفال بعيد المطر . وبعضهم مكلف برعاية سلامة الماشية وإنتاجها . وما يلفت النظر في هذه المناطق كثرة ظهور المتنبئين الموحى إليهم ولقد لعب هؤلاء دوراً خطيراً في مقاومة انتشار المؤسسات الإسلامية والأوربية في بلادهم .

وفي أفريقيا الشرقية والجنوبية :

تنحرق قبائل (كيكويو) الاضاحى لله ، ويتوجهون إليه بالدعاء في حالتى الوباء والجفاف ، كما يقيمون صلاة شكر له عند جنى المحصول الجيد . وعند تناول الطعام يلتقى شيء من فئات المائدة على محراب الاسرة ، ويتلى شيء يسير من الادعية . فإذا نحرت ماشية أهدوا جزءاً منها إلى روح الاجداد . وإذا أقيم عرس دعيت أرواح الآباء والاجداد من الاسرتين لحضور حفل الزواج ، تبركا بهم . وارتكاب المحرمات جرم عظيم لديهم يستلزم التطهير منه ، التضحية بشاة ذكر أو أنثى ، والحنث فى القسم جريمة مشثومة ، تجر الكوارث . وهى فى الغالب قاتلة لمن يتحلل من قسمه ، وهو قسم جماعى . وفى قبائل أوفيمبوندو يخصص كاهن للوتى من جهة الآباء — وهذا الكاهن هو رئيس القرية . كما يخصص كاهن للوتى من جهة الامهات . وأما (الدامارا) فيستلهمون قبل خروجهم للصيد والقنص ناراً مقدسة تمثل عندهم الشمس الطالعة . وفى زعمهم أن الموت قوة تحمل أسباب العدوى ، ولذلك يحترسون من

وضع أقدامهم على القبور ؛ إذ يجوز أن تنتقل إليهم منها عدوى المرض القتال . وهم يتقربون للوتى من آبائهم بهدايا من التبغ . وتخصص قبائل (سوازي) كوخاً لعبادة الآباء والأجداد ، ويقدمون إليهم النذور من اللحم والخمر يضعونها ليلاً على قبورهم . والحفل الرئيسي عندهم (انكوالا Incwala) يحية الملك والملكة الأم ، ويستمر الاحتفال ستة أيام . ويزعمون أن الملك إذا مات بعث حياً ليزود شعبه بقوى حيوية جديدة . ويحتجب الملك عن الناس طيلة أيام الاحتفال ، بينما تشترك القبيلة في الرقص بزي خاص ، ومعهم نباتات طازجة ، وحبوب مستنبتة ، سريعة الإنبات . ويحرم أثناء هذه الاحتفالات حمل السلاح وإراقة الدماء .

(ح) « فكرة الكون وأساطير نشأة الخليقة »

شغلت مظاهر الكون والخليقة بال الزنوج البدائيين ، كما شغلت لب بنى الإنسان من قديم ، وحاولوا أن يعللوا وجود الجنس البشرى على البسيطة ، ويحددوا مدى صلته بالكون ، فأضعفهم خيالهم بضروب شتى من التفاسير والاساطير ، تختلف اختلافاً عظيماً بين بيئة وأخرى ، بل قد يحدث اختلاف فى التعليل والتفسير بين أبناء القبيلة الواحدة ، فتقنع العامة بالتافه من الأقاصيص ، بينما تعتقد خاصتهم من عارفى

الأسرار بتفسيرات مغايرة ، يحرصون على كتبها . على أن هذه العقائد المتعددة المعقدة عن الكون لم يكتشف منها حتى الآن إلا جانب ضئيل . في مناطق محدودة ، ولا سيما بين قبائل (الدوجون) و (البامبارا) بفضل العلامة (جريول Griaule) وتلاميذه . ويكفى أن نقول أنه أمضى عشرين عاماً في دراسة وتمحيص فكرة الكون عند الزنوج ، وتشعب خيالاتها واستجلاء غامضها ، وحل عقدها ؛ ثم انتهى إلى القول بأنه لا يزال بعيداً جد البعد عن استيعاب موضوعها . ولذلك فسقتنصر منها على صور متفرقة موجزة الفكرة عند قبائل (الدوجون) و (البامبارا) ، ثم نعرض بعد ذلك عرضاً سرياً بعض التفسيرات والفلسفات عند القبائل الأخرى .

الدوجون :

يزعم هؤلاء أن الإله (أما Amma) خلق النجوم بأن قذف في الفضاء كرات من الطين ، وخلق الشمس والقمر بأن سوى كرتين بيضاوين أحاط إحدهما بدائرة من النحاس الأصفر ، والأخرى بدائرة من النحاس الأبيض ، وأن الجنس الأسود ولد في الشمس ، والجنس الأبيض ولد تحت القمر ، ثم ألقى كرة أخرى من الطين دحا منها الأرض وبسطها من الشمال للجنوب في صورة أنثى ، ثم اقترن بها فولدت ابن آوى ، ثم ولدت له عدداً من الجن (نومو Nommo) فرأى أحدهم أمه عارية فكساها كساء من لحاء الشجر ، غير أن ابن آوى لما رآها عارية اغتصبها فسال منها دم الطمث . وهكذا ارتكبت الخطيئة

الأولى ، وهى معصية الاقتران بالمحارم ، فتدنست الأرض ، ثم خلق الإنسان من الطين مباشرة جنساً واحداً ، كل واحد منهم يجمع بين طبيعتى الذكر والانثى ، حتى إذا أجريت عملية الختان تميزت الانثى من الذكر ، ووضح الفرق بينهما .

ويزعم الدوجون أن نشأة قبيلتهم ترجع إلى ثمانية أجداد أسسوها منذ نشأة الخليقة . ولهذا فهى تنقسم إلى ثمان عشائر . وكان هؤلاء الأجداد يسكنون السماء ويأكلون من أصناف الحبوب الثمانية المباحة لهم . فلما نفذت تلك الحبوب اجترأ اثنان منهم على أكل حبوب (القونيو) المحرمة ، ثم هربا من السماء وكانت هذه فرصة أتاحت للأب الأول لينظم الكون . وهم يتصورون الكون على هيئة سلة من الطين مقلوبة ، قعرها يمثل السقف ، فالسقف هو السماء ، والقاع هو الشمس ، وللسماء جهات أربع لكل منهما سلم له عشر درجات — فالشمالى يحمل الإنسان والاسماك ، والجنوبى يحمل الحيوان المستأنس ، والشرقى أنواع الطيور ، والغربى الوحوش والنبات والهوام ، ثم استولى هذا المؤسس الأول على النار ، وخلق منها كور الحداد ، فرماه الجن وهشموا أعضائه ، فأصبحت ذات مفاصل ، فهبط من السقف وابسكر أول حقل ، فنشأت الزراعة . ثم تبعه بقية الأجداد . غير أن الجد الثامن وصل إلى الأرض قبل السابع ، ففضب السابع وتحول ثعباناً ، فقتله الناس وأكلوه ، واستسلم هو لهم ، وتحمل خطاياهم ، وضخى بنفسه لخلاص البشر . وكان الثعبان قد ابتلع الثامن ، ثم لفظه من فيه فى صورة حجر ، فرجع الثامن هكذا إلى الوجود . ويسمى هذا الجد

(ليبيه Lébé) وهو سيد الكلام وترتيبه في الوجود التاسع لأنه تجسد مرة أخرى وفي هذا بعث جديد ..

والغريب أن كل شيء يستخدمه (الدوجون) من أدوات ونظام في حياتهم اليومية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتلك الأساطير الخرافية ويرمز لشيء منها في دقة متناهية . فصوت آلات الحياة ونحوها يمثل الكلام والكلام يمثل خيط النساجة ، والقعب المستدير يمثل في آن واحد الشمس والرحم . وكذلك نجد واجهة بيت الأسرة مقسمة إلى ثمانية صفوف فيها عشر فجوات . فالصفوف تذكرنا بالاجداد الثمانية ، والفجوات ترمز إلى الأصابع العشرة حتى أن تخطيط القرية مصمم على نمط يرمز لإنسان مستلق على الأرض رأسه إلى الشمال ، وجسمه إلى الجنوب . فنجد بيت الحداد ومكان اجتماع مجلس القرية ، دلالة على الرأس المفكر في الانسان . وحجر المسن والمحراب يمثلان الجنين الذكر والأنثى . والنقوش والرسوم في المعابد تعين على نمو النبات . والعلامات والإشارات لها دلالات دينية أو ترمز لتقاليد خاصة أو تصور أبراج السماء في صورة تدل على نشأة الكائنات من الماء ، وعلى تكاثرها بعد ذلك ؛ كما تصور نجم الشعري كأنه هو الذرة الأولى ، أو البيضة التي أفرخت العالم ، بدورها دورة حلزونية .

البامبارا :

درست مدام (ديتلين) فكرة نشأة الوجود والافاصيص التي تدور حولها بين تلك القبائل ، واهتدت إلى أن عندهم صورة متحركة

(ديناميكية) لهذه النشأة ، فهم يزعمون أن الكون كان في البداية فراغا هائلا ، يتحرك بحركة ذاتية حول محورين حلزوينين ، يدوران في اتجاهين عكسيين فالطلقت من بينهما قوة هائلة (زو Zo) نشأ منها العقل (يو Yo) فلما دار الجهاز في الجهات الأربع الأصلية تكونت عنه عوالم أربعة فالعالم الحاضر هو الثالث ، والرابع هو عالم المستقبل . وعلى ذلك تكون قوة الذبذبة هي السبب في تكوين العالم . ثم تبع ذلك نشأة المخلوقات . وأولها ثلثان وعشرون عنصراً هي الخصائص العامة للكائنات ، وهي عناصر التفكير . ثم تلا ذلك سقوط مادة ثقيلة (بمبا) في ذلك الفراغ ، فتولدت عنها الأرض . وفي الوقت نفسه يقوم جانب من العقل (فارو) Faro يعلو فيخلق السماء ، ثم تهبط هذه القوة من جديد على الأرض في هيئة مطر ، فتتمدها بالحياة ، فيظهر بالتوالي : العشب ، ثم العقرب ، ثم السمك والتمساح ، وحيوانات أخرى مائية . وكان الإنسان نفسه في بدء خلقه حيواناً مائياً خرج من الماء . ولذلك يزعم البامبارا أن الصيادين (بوزو) هم أول المخلوقات . ثم يتحول الإله (بمبا) وهو رمز الأرض وتربتها إلى بذور (البالانزا) أو الأكاشيا . ثم يجرد (بمبا) هذا من شخصه شخص زوجته (موسو كوروني) Mausso Koroni ثم يتولد الرجال من (فارو) ، ويوجهون دعاءهم إلى (بالانزا) . وكان الرجال في بدء خلقهم مخلدين : كلما بلغوا التاسعة والخمسين عادوا أطفالاً في سن السابعة . وكانوا يعيشون عراة الأجسام كسالى لا يؤدون عملاً ما ، ولا ينطقون إلا همهمة . ولما طلب (بمبا) أن تقترن النساء كلهن به ثارت امرأته

(موسو كوروني) وأعمتها الغيرة فجابت العالم صارخة منتقمة من الرجال والنساء ببتير أعضائهن التناسلية (أصل فكرة الختان والحفاض) وهكذا بذرت بذور الاضطراب في الخليقة ، ونشرت التعاسة والموت بينهم ، ولوثت الارض الطاهرة . وأخيراً ماتت (موسو) هذه واكتشف (بمبا) ما للدم من قيمة حيوية . وهناك طلب من الرجال أن يقدموا ضريبة من دماهم . فلما استنفد دماهم أو كاد لجأوا إلى (فارو) فهداهم إلى ثمرة الطماطم التي تتحول في أجسامهم إلى دم وإلى جنين . ثم حمل حملة شعواء على (بمبا) حتى هزمه وأبطل عبادة (بالانزا) ولكن الشجرة أذرت الناس بأنهم منذ اليوم لن يكونوا خالدين .

ثم انفرد (فارو) بتنظيم الكون بعد أن هزم سلطان المادة ، تخلق الليل والنهار والفصول والساوات السبع وأجزاء الأرض السبعة ، وجعل الناس شعوباً وقبائل ، وبين لهم المحرمات ، ومنحهم الاقوات من البذور الثمانية . وهو إله الماء ، وهو الذي يمسك في قبضته الينابيع الإثني عشر التي سيطلقها يوماً لتغرق الأرض تمهيداً للإتيان بخلق جديد هو عالم المستقبل . و (فارو) هذا ينتقل في هيئة زوبعة هائلة حلزونية الشكل كل أربعائة عام ليرقب نظام العالم ، ويرمز (لفارو) هذا بقبعة مضفورة من ثمانى دوائر ، كانت في القديم لباساً للبلوك والاعتقاد في قوة الأعداد مشترك بين البامبارا والدوجون . وكلاهما يعتقد في رقم (٨) ويعتقد البامبارا أيضاً في رقم (٧) ويزعمون أن به قوة سحرية رمزية ، لأنه مجموع أعضاء التذكير الثلاثة وأعضاء التأنيث الأربعة .

ويجاور البامبارا قبائل (البوزو) وهي تعيش من صيد البحر .

وقد اعتنقت الإسلام سطحياً ، وما تزال تعتقد (بفارو) إلهاً خالقاً ، وتعتقد بأن حبة (الفونيو) وهى أصغر شئ فى الوجود هى أصل الخليقة .

القبائل الأخرى :

إذا جاوزنا قبائل (دوجون) و (بامبارا) نجد تصورات أخرى لدى بقية القبائل السود . فعند (اللوبى) نجد الاعتقاد بأن السماء عبارة عن قبة معتمدة على الأرض ، وأن السماء يسكنها الإنسان الأحمر ، وتحت الأرض الإنسان الأسود .

وعند (الكردى) أن النار كانت أول بدء الخليقة ، ثم أرسل الله الطوفان ، وكانت الجبال من رواسبه .

وأهل (داهومى) يشبهون العالم أرضه وسماءه بوعاء وغطائه . فالقسم الأعلى هو الجو وخط الاستواء هو الأرض المسكونة . وما تحت الأرض هو عالم الغيب ..

وعند (المانجا) إن الإله خلق الذكر والأنثى من الطين ، ثم حلت بذريتهم كارثة أبادتهم ، فلم يبق منهم غير (سيتو) Seto شيت وأخته . فارتكب معها خطيئة الاقتران بالمحارم ، وأعدم الموت الذى كان حيواناً مفترساً ، فأصبح شيئاً لا يرى . ورزق الله (سيتو) البذور وقوة استئناس الحيوان ، ثم خرق (سيتو) الوعاء الذى كان يخزن الماء

فانبجست منه الانهار ، ثم اكتشف النار وعرف حيل الصيد ، ثم صعد إلى السماء وصار نجماً (أوريون) Orion .

وعند (النور) على أعلى النيل عقيدة أن الإنسان — قد خلق في جنوب بحيرة (نو) ويشيرون إلى تلك الجهة على وجه التحديد .

وبين قبائل (بانتو) نجد تفسيرات مختلفة لبدء الخليقة . منها أن العالم أنشأه الآب الأول الذي يشبه أن يكون إله السماء . ومنها أنه أنشأته الأم الأولى (إذا كانت القبيلة تنسب إلى الأم) ومنها أن العالم أنشأه الزوجان الأولان من الناس ، أو زوجان من الكائنات : سماء وأرض ، شمس وقر ، قمر ونجوم . ومنها أن العالم أنشأه إله خالق . ويندر الاعتقاد بأن الناس ظهروا هكذا مصادفة من كهف في الأرض أو من بين أدغال الأحراج والغابات الكثيفة . بل يظهر أن بعضهم (كالبأ سوتو) يظن أن العالم أزل ، ما عدا الإنسان والحيوان .

تلك هي العقائد والتصورات الشائعة ولكنه توجد في مناطق عدة نظريات سرية . فمثلاً نجد في جنوب (جابون) أن الخالق نفخ في الظلام فخلقت من زفرته امرأة بيضاء (دنتسونا) Dintsouna تحمل الشمس في يمينها والقمر في يسارها . وينطلق من ثديها الأيمن سيل من الدم ، ومن ثديها الأيسر سيل من اللبن ، وأن الكواكب تستمد نورها من سناء هذه المخلوقة ، وأن رواسب زفرة الخالق وهي أشبه بالنطفة الحية هي التي لقحت الليل فتكونت من ذلك النجوم . واتخذ الكون شكل زهرة ، تسكن على أوراقها أجزاء العالم ، ثم اقترنت الشمس بالقمر ، فانبجبا إلهما قسم الكون إلى أبعاده الثلاثة : الطول والعرض والعمق ، التي يسكنها

ثلاثة أفواج من الآلهة . ثم خلق الإنسان الذكر والانثى من مزاج دم المرأة الاولى بلبنها ، ثم طرد الزوجان من سرّة الارض خيت شجره الحياة ، وأصبحوا غير خالدين ، ثم تكاثر النسل من التزاوج بين الآدميين ، أو بينهم وبين الآلهة .

الفصل الثالث

(١) تلقين الأسرار وعلم السحر

أسرار التلقين الأول — الغرض من هذا التلقين هو تهيئة الغلبان والفتيات ، وأعدادهم للانتقال من مرحلة الطفولة إلى مرحلة المراهقة . ويقوم هذا التلقين على تثقيف ديني وخلقى فى خلوة وعزلة . ويتلقى الجنسان ذلك التلقين كل على حدة . وتجربى على الجنسین فى أثناء ذلك عملية الختان .

ويضم هذا الاحتفال التلقينى كل الاطفال من الخامسة إلى الخامسة عشرة . ويعتبر جميع الاطفال الذين يجرى تلقينهم معاً طبقة واحدة فى السن ، يقوم بينهم نوع من التضامن يحافظون عليه . وعند بعض العشائر فى قبيلة (يوروبا) تتأخر عملية الختان حتى سن الخامسة والعشرين ، لضمان النسل فى حالة موت الشخص ، ولكن هذه حالة استثنائية .

وهذه الشعائر الأولى حد فاصل بين حياة الطفولة وبين حياة المراهقة والمغزى الدينى منها أنه نشور أو نشء جديد ، إذ يعتقدون أن الطفل بعد اجتيازه هذه المرحلة قد مات ماضيه ، وأنه خلق خلقاً جديداً . وقد تختلف مراسم حفلة التلقين هذه بين قبيلة وأخرى ، غير أن مرماها

ومعناها واحد لا يتغير . وقد وصف (فيرجيا Vergiat) إحدى هذه الاحتفالات وأخذ لها صوراً شمسية كثيرة ، في قبيلة (المانجا) فقال :

إنه عند بدء فصل الجفاف يقام لهذا الغرض معسكر بظاهر القرية في غابة صغيرة على مقربة من نهر ، حيث يحشد الأطفال الذين ستجرى لهم عملية الختان . وهناك ينامون على أسرة من جريد ، وحشيات من ورق الشجر ، يشدون إليها كل ليلة ، ليظلوا راقدين على ظهورهم . ويقام في وسط المعسكر محراب مقدس ، هو عبارة عن فرع شجرة مطوق بطوق من نحاس . وأول ما يدخل الأطفال المعسكر يفرض عليهم الصوم ثلاثة أيام ، يتدربون فيها في الوقت نفسه على الرقص . ثم يغتسلون في النهر ، ثم يقومون بعرض رياضي ، مارين بين صفين من المراهقين الذين اجتازوا محنة التلقيح فيما قبل ، فيعرضون منهم للضرب بالسياط . ثم تبدأ عملية الختان وهم وقوف على شاطئ النهر ، وترعى غرائهم في مياه النهر ، وتعصب جروحهم . وفي مساء اليوم نفسه يرغمون على الرقص دون أي اهتمام بما ينزف من دمهم . وبعد انقضاء اثني عشر يوماً داخل المعسكر في مران وتدريب ، يسمح لهم بالخروج للصيد . ومن تقاليد هذا الحفل طلاء الرأس والجسد بغرين أبيض اللون ، على صورة وشم متنوع الأشكال . ويلبس كل طفل أزاراً من ليف الشجر ، ويعلق على رأسه وبدنه أوشحة وزينات تقليدية مختلفة . ويتناول منهج التعليم تدريباً على الرقص الديني ، وإرشاداً إلى التعاليم الأخلاقية والعادات القبلية ، ووصايا عملية في الحياة ، وتنبيهاً إلى المحرمات ، وتربية جنسية . ويعاقب كل من يرتكب عملاً شائناً في تلك الفترة أو كان ارتكب قبلها ، ومن

بين العقوبات القيام بجمع غسل النحل البرى ، والتعرض للدغ النمل ، والتسخير فى أعمال الحقل تحت ضربات السياط .

وقبل أن يخرجوا من المعسكر تصبغ أجسادهم العارية بطلاء أبيض ثم تمحى أسماءهم القديمة ، ويتسمون بأسماء جديدة . ويحرم عليهم مخاطبة الناس إلا بعد ثلاثة أيام ، رمزاً إلى أنهم قد ماتوا ثم بعثوا من جديد . وبعدها يحرق المعسكر بكل ما فيه من ملابس قديمة ، ثم يفرج عنهم بعد هذا الامتحان العسير ، ويسمح لهم بالعودة إلى أهلهم فى القرية .

وأما حفل تلقين البنات فيستمر شهراً قرياً كاملاً فى مكان منعزل ، ويفرض عليهن قضاء ليلة فى الغناء والرقص ، ثم الاغتسال فى النهر . وتجرى لمن عملية الختان بواسطة إحدى عجائز الحى ، ويلقى ما اقتطع منهن فى النهر ، كما صنع للغلمان . وبعد تطيب جراحهن يرقصن فى الليلة نفسها ، وتطلى أجسادهن بالزيت ، وتصبغ باللون الأحمر . ويتلقين كذلك تثقيفاً وتدريباً خاصاً بهن .

ورغم أن عادة الختان للجنسين منتشرة انتشاراً واسعاً بين القبائل السودانية ، وخاصة سكان الغابات ، فإن كثيراً من القبائل على ساحل غينيا تستنكر هذه العادة وتستعجنها ، حتى أن بعضها يشترط ألا يتولى زعامتها أمير محتون ؛ لأنهم يزعمون أنه يفقد قواه هذه العملية .

بل أن بعض المناطق السودانية القديمة الواقعة بين المنطقتين السابقتين لا تعرف عادة الختان قط ، وتحل محل تلك العادة فى حفلة

التلقين عادات أخرى عندهم . فعند (الزوير) توسم الجبهة بآلة حادة . وعند قبائل (سارا) توسم الحدود وتقتلع بعض الثنايا السفلى ، وتجعل بعض الثنايا العليا مدببة الأطراف . كما تمارس بينهم عادة ختان البنات ، ويفرض على الأطفال في أثناء التدريب أن يشربوا حساء تسيح فيه مواد غريبة ، ويزعمون أنه حساء يحول قلوبهم إلى قلوب رجال ، ثم يسمونهم بالاسم الجديد . وحفلات التلقين تقام عندهم كل ثلاث سنوات وقد تستمر شهرين .

وفي جنوب الكونغو تبدأ حفلة تثقيف البنات عند ظهور أول طمث . أما قبائل الهوتنتوت فإنها تحور عملية الختان بمط أشفار عضو التأنث حتى يوارى .

ويحظر على النساء وفي كل الأحوال ، حضور احتفالات تلقين الذكور ، كما يحظر على الرجال حضور احتفالات تثقيف البنات ؛ لأنها احتفالات خاصة بتحديد الجنس . ويزعمون أن المرأة تصاب بالعقم إذا أصابها رشاش من دم محتون .

وأما قبائل (باسوتو) فزالوا برغم اعتناقهم المسيحية يحتفظون بتقاليدهم الوثنية في إقامة حفلات التلقين . غير أنهم جردوها من مغزاها الديني ، وسموها باسم (مدرسة المراهقة) التي يتلقى فيها الأطفال التربية الاجتماعية والجنسية ، ويتلقون السنن المتوارثة عند القبيلة .

الجمعيات الدينية :

(أولا) في السودان الغربي — تنتشر هذه الجمعيات ، التي تلعب

دوراً هاماً في الحياة السياسية والاقتصادية التقليدية للقبائل ، وكلها ذات أساس ديني . وكثير منها مهمتها الأولى هي الاحتفال بعبادة معبود . ويحتفل عند الانتساب إليها احتفالاً يذكر باحتفال التلقين . ويختص الأعضاء ذوو المراتب الدينية الرفيعة فيها بمعرفة سر نظام الكون والرموز المقدسة معرفة تامة .

وتتكون جمعية (كومو Komo) في قبائل البامبارا من جميع المراهقين المختونين في القرية . ورئيس هذه الجماعة حداد يتولى حراسة المعبد وإدارة شؤون التراث القبلي ومعبدها الكبير ، في كوخ يضم محاريب كثيرة فواحد للأنفس ، وآخر للنياما ، وثالث لإله الذرة . وشعار الجماعة (قناع كومو) وهو فطيع المنظر يدخل الرعب في القلوب . عبارة عن رداء أسود اللون ، له ذراعان يذتهبان بمخالب مسمومة ؛ ويقبل في عضويتها في وقت واحد كل من ختنوا في دفعة واحدة . ويقام لذلك احتفال ديني في الليل . وفي أثنائه تشرح لهم الأدوات والآثار التي خلفها السلف ، ثم يلقنون مغزى القناع ونظام التشكيلات القبليّة ، وتؤخذ عليهم الإيمان والمواثيق بألا يهوجوا بشيء من الأسرار التي لقنوها . وينتهي الحفل بالتآخي فتذبح عنز يشرب الجميع دمه رمزاً للوحدة الروحية التي انتظمتمهم . وكلما تقدمت بهؤلاء السن ازدادوا تعمقاً في الأسرار الخفية العليا . ويجلس الأعضاء في هذا الاحتفال حول الرئيس ، كل طبقة حسب درجتها قرباً أو بعداً منه . وتدور في هذه الجلسات مناقشات ومساجلات حول مشاكل القرية والجماعة ؛ ثم تتلوها حلبة الرقص بالقناع في حلبة وضجيج . فإذا حثت

أحدهم يمينه وباح بأسرار الجمعية جرح بمخلب القناع وقضى نحبه .
 وأهم أعمال هذه الجمعية (كومو) هو تنظيم الحياة في القرية ، ولاسيما
 المراسم الزراعية المقدسة ، واتخاذ القرارات السياسية ، وتنظيم العمل ،
 وإقامة العدل . ومجلس الكومو هو حارس التقاليد الاجتماعية ،
 والاساطير القبلية . ويعتبر هو العمود الفقري في مجتمع البامبارا .
 ولا تقبل النساء في عضوية هذه الجمعية .

وفي قبائل (مندى Mendè) توجد جمعية (بورو Poro) تشبه جمعية
 (كومو) في البامبارا . ويشترك فيها الذكور فقط . ولا يلتحق بها عضو
 إلا بعد دفع اشتراك للعضوية . وتفرض على طالب العضوية الإقامة منفرداً
 في الغاب بضعة أسابيع ، وتحمل وخزات ووسمات في الصدر والظهر
 والعنق . ويرغمون أن هذه من آثار عض الجن وفي تلك العزلة يلقي
 المبتدئ تقاليد القبيلة والأناشيد ، وأساليب الرقص الديني وقواعد
 عملية خاصة ، وآداب السلوك والأخلاق (كضبط النفس ، والتعاون ،
 والخضوع للأبناء) . كما يلقي كيفية الاتصال بعالم الجن والعوالم
 الخفية . وتلعب هذه الجمعية دوراً هاماً في الحياة الاقتصادية والسياسية
 القبلية . وأما النسوة فلهن جمعية منفصلة قائمة بذاتها على نظام البورو .

ونجد جمعية (ديورو Dyoro) عند قبائل (لوبي) . وللجمعية
 كاهنها الكبير ، ودونه كهنة آخرون . وهذه الجمعية هي المنظمة
 الوحيدة التي تجمع شتات هذا الشعب الفوضوي . وهي تنظم احتفالاً
 دينياً كل سبعة أعوام لتجديد المواثيق بينهم وبين الأرض . فتختار
 من بين الأبنكار عروساً تزف إلى أحد أبناء الأسر العريقة المؤسسة

للقبيلة . فإذا أنجبت طفلاً أشاروا لذلك بقولهم : « لقد أنجب النهر » . ثم تلى ذلك فترة الإباحية والفوضى ، تبدأ بقيام بعض الكبار بقتل شيء من الدجاج والماعز ضرباً بالعصى . وتذق الطبول حينئذ إيداناً بيده حفلات العيد . وعندها يتحدد أشخاص الفتيان والفتيات الذين يقع عليهم الاختيار لتلقى الأسرار . ثم يتجه الجميع إلى مكان معين ، حيث يفرشون الأرض ويشربون الماء المخلوط بالطين ، ثم يغسلون ويظهرون بماء النهر المقدس ، ثم تطلّى أجسامهم بغرين من قاع النهر ، ويخيفونهم بما يسمى (الغول) إذ يقال لهم أنه سيهاجمهم فيمزق أجسادهم في الظلام . ولذلك يطلقون في الليل أصواتاً منكرة مفرقة ، يقال لهم إنها صوت الغول . ثم تخلق رموسهم وتبدل أسمائهم بأخرى ، ويلقنون الرقص واللغة السرية ، ثم تنشأ علاقات بين الفتيان والفتيات ، فإذا عادوا إلى القرية تجاهلوا الحياة الواقعية ، وأنوا بحركات وأعمال مصطنعة تدل على البله . فثلاً يضعون الطعام في آذانهم لا في أفواههم ويوقدون النار على التراب في القدور بدلاً من الطعام ، ولا يلقون إلا بألفاظ ساذجة . وهكذا يصبح تعليمهم الحياة من جديد ضرورة لا مفر منها فيبصرون بالمراد من قصة الغول ، ويطلبون إليهم كتمان هذا السر ، وتكون هذه المراسم نهاية مرحلة الطفولة ، وبدء مرحلة المراهقة .

وأما على ساحل غينيا فإن هذه الجمعيات لا تقبل في صفوفها جميع أفراد القبيلة ، وإنما هي عبارة عن أندية خاصة ، لا يلتحق بها إلا من يصلح من أفرادها . ونفوذ هذه الاندية السياسى والاجتماعى على جانب عظيم من الخطورة . وهى أشبه بجمعيات سرية فمنها جمعية (أورو Oro) بين قبائل يوروبا . وهى تمثل أرواح الآباء والأجداد ، وتعتبر عن إرادتهم

فيحكم أعضاؤها بالإعدام على كل من انتهك عادات القبيلة. ومقدساتها ، ويخرجون في الليل لينفذوا هذه الأحكام سرّاً . وعلى النساء أن يبقين في بيوتهن إذ ذاك ، حتى لا يرين هذه المشاهد . وكذلك عند (الايو) جمعية (أمو Mmo) السرية ، تزعم أنها هي لسان الأرض ووكيلة الآباء والأجداد في العمل على صيانة العرف الموروث ، وضمانة احترام العادات المقدسة . ومن سلطة أعضاء هذه الجمعية أن يطردوا المرأة الزانية من بيت الزوجية ، وأن يعذبوا المتهمين بالسحر — وهم يقومون بهذه الاعمال وهم محجوبون بالقناع . ويدخل في سلطانهم كذلك مراعاة القيام بمراسم الجنائز . وفي (پوروتوفو) نجد عصبة سرية تعرف باسم (قناسة الليل) ويخرجون في هيئة أشباح مقنعين أو واضعين على نواصيهم قروناً ، ويرتدون ثياباً كاسية فضفاضة من الحشائش ، ويطلقون من أنوفهم أصواتاً مزعجة في الظلام ، وتجتمع هذه العصبة في إحدى الغابات المقدسة . والذين يريدون الانتساب إلى الجمعية يختبرون بألوان التعذيب والضرب بالسياط ، دلالة على صلاحيتهم ويدفع العضو منهم اشتراكاً عن عضويته .

وفي (داهومي) و (توجو) توجد جمعية (ميثاق الدم) أسسها المدعو (هازوما Hazoumé) . ومن نظام الاحتفال فيها تكديس بعض الأدوات والنخاليط ، وتخطيط مجموعة معقدة من النقوش الرمزية المختلفة على الأرض ، ويجلس الأعضاء الجدد حولها ، حيث يحضر شراب يوضع في جمجمة بشرية ، به خليط عجيب من تراب ورماد وحجر

الصواعق وحديد البنادق . ثم يؤخذ دم فصادة من كل أحد من مقدم ساعده ، يلتقط هذا الدم السائل على قشرة ليمون ، ويصب في الملعقة التي تدار عليهم ليشربوا منها . فإذا تم ذلك أصبح كل الحضور أخوة في الدم ، ووجب عليهم أن يتآخوا ويتعاونوا في السراء والضراء ، ويحمي بعضهم بعضاً . ويعتقدون أن كل من يخالف هذا الميثاق يصاب بالجنون المطبق ، أو تنزل به أشنع الكوارث . أو تولد له ذرية شاذة الحلقة ، وأنه عرضة للدغة حية سامة يموت منها وهو يعوى من شدة الألم .

وكانت تنتشر في الماضي بتلك الأرجاء عصابة سرية ، عرفت باسم «عصابة الفهود الكاسرة» نشرت الشر والإرهاب بين السكان ، بل أنه توجد حتى اليوم في شرق ليبيريا وغرب ساحل العاج جمعيات من أكلة لحوم البشر ؛ ولكن أعضائها يتسترين تسترأ تاماً حتى لا يكشف أمرهم ، وأدى هذا التستر الشديد إلى خفاء أسرهم على علماء الأجناس البشرية . ولبت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل تعداه إلى وجود عصابة رهيبة لا كل لحوم الموتى . ولا تزال هذه العادة الوحشية تمارس في مناطق المستنقعات لنهر كازامانس وغينيا البرتغالية .

(ثانياً) الجمعيات الدينية في أفريقيا الاستوائية : تعتبر الكامرون ، وخاصة الجزء الغربي منها ، عشاً للجمعيات السرية . وبلغ من رهبتها أن أحداً لا يجرؤ على التحدث عنها أو حضور جلساتها دون إذن خاص . ومن يخالف ذلك فجزاؤه الموت المحقق . وتملك كل جمعية منها قطعة أرض خاصة ، في وسطها دار لاجتماعاتها . ولكل منها أفنعتها الخاصة بها ولباسها ورقصاتها ولغتها السرية الاصطلاحية . وأكثر هذه الجمعيات

يتقاضى أجوراً عينية عالية من الشخص الذى يرغب فى الالتحاق بعضويتها . ويفرض بعضها ضريبة على بقية السكان . وكل من يتقدم بطلب عضويتها يتحتم عليه اعتبار قناع الجمعية روحاً مقدساً . فإذا قبل فى صفوفها فعليه أن يتآخى مع بقية الأعضاء ويشرب معهم ما يسمى (شراب العهد) . ويصبح بذلك مقيداً بمواثيق الجمعية ، ولا يستطيع منها خلاصاً . وتزعم كل جمعية سرية أنها تعلم ما ظهر وما بطن ، ولها الحق أن تعقد جلساتها فى هيئة محكمة ، فترغم المدين على دفع دينه وتعاقب السارق والزانى والسحرة المشعوذين ، وتحمى الممتلكات . ولا يقبل فى هذه الجمعيات نساء ولا أطفال .

وفى مناطق أخرى جمعيات مشابهة للجمعية السرية فى الكامرون ، ونذكر من بينها جمعية (انجوا Ngoua) السرية عند قبائل (ماننجوبا) ويستلزم الدخول فى أسرارها ثلاث درجات من التلقين . ومن شأن هذه الجمعية أنه إذا وضع أعضاؤها تمثالا صغيراً أمام بيت أحد من الناس كان علامة على أن صاحبه ارتكب ذنباً . ويفرضون عليه أن يقدم إليهم فدية من المواد الغذائية ونبذ النخل . وقبائل (باندجون) تزعم أن أعضاء جمعية الأفعى يستطيعون التحول إلى أفعى تلدغ الناس . وجمعيات (الرجل القهد) فى قبائل (باكوكو) و (البولو) جمعيات خطيرة للغاية ؛ إذ يخرج الأعضاء تحت جناح الظلام فى لباس من جلد الحيوان ويسرون على أربع وفى أيديهم خطافات من الحديد يمزقون بها أجساد فرائسهم وينزعون منها القلب ليتزودوا بقوة إلى قوتهم . ولكن هذه الفظائع قد امتنعت اليوم أو كادت . ورغم أن هذه

الجمعيات ما تزال باقية محتفظة بطابعها الدينى واجتماعها السرية ومواكبها المقنعة ، قد اقتصر دورها اليوم على المسائل السياسية والاقتصادية والنقابية (وهو ما يشاهد عند قبائل باميليكه على كثرة الجمعيات عندهم) .

وعند قبائل (سارا) نجد جمعية هيوندو Hyondo تضم جميع رجال القبيلة وتلقنهم معارف السحر (وخاصة السموم) . وهى أساليب يخضعون بواسطتها الأطفال والنساء لارادتهم . وتستغرق مراسم التلقين فى مدارس الأدغال عندهم عدة سنوات . وتشمل تعليم الرقص محاكاة للحيوان ، وتلقين لغة سرية والضرب بالسياط وأحداث خدوش وجروح فى جسم الطالب .

وعند (المانجا) و (الباندا) فى منطقة أوبانجى تشتهر جمعية (أنجا كولا) Ngakola ومؤسسها شخص يسمى (أنجا كولا) اشتهر بأنه طاغية عظيم القوة ذو بشرة شديدة السواد ، مغطاة بشعر كثيف ، وكان يقيم فى وسط الاحراش كما عرف عنه أنه يأكل الناس وقد يلفظهم أحياء . وقد تخلصوا منه بالسم ، إلا أنهم يقدسون قوته . وكان من شأنه أن يعاقب كل من يخونه بالموت . وإذا غضب على الناس رماهم بالمرض إنتقاماً منهم . فإذا حدث ذلك كان من الضروري أن تعاد مراسم التلقين فى مكان منعزل بجانب نهر وهناك يسمع صوت (أنجا كولا) . يحدثونه بنقر طبل (tam-tam) بقضيب من الخيزران . حيث يقوم معلم التلقين بدور (أنجا كولا) . ويفرض عليه طول مدة التلقين التى قد تستمر سنتين التمسك بالطهر والعفة وألا يغتسل أبداً . وأما المتلقنون فيلبسون تاجاً من ريش طائر على رؤوسهم ، ويربطون أجراساً صغيرة حول

ركبهم . ويفرض عليهم أن يعترفوا بذنوبهم . ومن ثم يبدأ بشعائر توهم بأنهم فارقوا الحياة فيلقى على أجسادهم الرماد ، كما تستخدم أجسادهم مقاعد للجلوس ، ويضربون بعضى من خشب مقدس ، وتذلك عيونهم بزيت نباتى ، ثم تنتهى تلك المراسيم بالقائمهم فى ماء النهر . ومغزى كل ذلك ان (أنجا كولا) Ngakola قد التهمهم ثم لفظهم وأعادهم إلى الحياة من جديد . ثم تلى ذلك تدريبات واختبارات تنتهى بعودتهم إلى قراهم ، فيدخلونها فى هيئة راقصة وقد جعدت وجوههم بتجاعيد صناعية . والتلقين عندهم على عدة درجات .

ويقرر (بيرندا Birinda) أن جمعية Bouity (بويتى) فى جنوب جابون تمارس شعائر التلقين على أربعة مراحل . وتشمل حفلاتها الرقص والأناشيد ، وتناول نوع خاص من النبات يحدث غيبوبة لمن يتناوله . وله تأثير خاص أنه يطلق العناصر التسعة المكونة لكل شخص والتي تقابل عدد الطبقات المؤلفة للكون فى عليهم . ولا يستطيع الشخص إطلاق العناصر العليا إلا أن يكون من كبار المطلعين على الأسرار ، إذ بانطلاق العنصر السابع تظهر له الآلهة الخالقة (دنستونا) وهذه الرؤية موصوفة وصفا دقيقا فى لغة سرية خاصة . ومراتب معرفة الأسرار مدرجة عددياً حسب العناصر التى تظهر له .

وبعد انتهاء الحفل تبدأ مرحلة التلقين ، التى تستغرق عاماً كاملاً . فاذا عاد المتلقن إلى الحياة العادية ، ظل تحت وصاية معلمه فترة ما إلى أن يصبح هو نفسه معلماً . وعندهم أن كل كائن حى مركب على غرار تركيب الكون . ولذلك ينبغى أن يعرف كل إنسان نفسه ويسهر

على العناية بزياده قواه الحيويه . وعندما يقضى المتلقن نخبه تنطلق من جسده عناصره التسع ، فينضم كل عنصر منها إلى مكانه في الأجزاء التسعه التي يتركب منها الكون . وأما الذين لم يتلقوا أسرار التلقين فتظل أجسادهم في الثرى غير متميزة العناصر . وجمعية (البوتى) قاصرة على الرجال فقط . وللنساء جمعية مشابهة لها خاصة بهن . وإلى جانب هذه المدارس السرية الدينية نجد في تلك المنطقة جمعية سياسية تضم طبقة الحكام ، ويقوم سلطانها على العلم بالسحر وأساليبه .

(ب) الكهانة والسحر

من الطبيعي ، في بيئة تتحكم فيها وتحركها (قوى حيوية) ظاهرة وخافية ، أن يكون غاية ما يتمناه الانسان فيها أن يضمن لنفسه ولعشيرته الاحتفاظ بهذه القوى والاستزادة منها . وقد كفل الدين كل ذلك للجماعة . وإلى جانب الدين نشأ السحر ، ليستعين به الأفراد على اكتساب تلك القوى ، أو على صدقوى شريرة غير قدسية تهددهم في أمنهم . وقد ميزوا بين نوعين من السحر : السحر الأبيض أو الحلال والسحر الأسود أو الخبيث . واختص بالاول جماعة معترف بها ، احترفوا تلك الصناعة ، ويلقب الواحد منهم (الكاهن الطيب) ومهمته الاتصال بالقوى الخفية لاستنباط الجواب منها عن سؤال معين كالسؤال عن نوع مرض أصيب به شخص ، أو عن مدى نجاح السائل إذا أقدم على الاشتغال بعمل ما . فيشتغل الساحر بأساليب الخاصة لمعرفة الجواب ، ثم يجيب السائل على سؤاله حسب ما هداه اليه سحره . وقد

يضيف إلى ذلك وصف دواء ما وطريقة استعماله . ونرى أن هذا الكاهن الطبيب يلعب في القبيلة الدور الذى يقوم به فى عالمنا المتحضر العرافون والأطباء والصيدلة . وهو لا يقتصر على وصف الداء والدواء ، بل يتعدى ذلك إلى ما يشغل بال الإنسان فى حياته . وهو يبيع الناس التعاويذ والتمايم لمختلف الأغراض للشفاء من المرض ، ولاستئزال المطر ، ولاجتلاب الحب ، ولا استعادة القوة ، وكذلك للنجاح فى الامتحانات والانتخابات ..

وقد تكون صنعة العرافة متوارثة من الوالد إلى الولد . وقد تظهر على شخص ما أعراض من الصرع مثلاً ، تدل على أن الاله قد اختاره ليعبر عن إرادته . والعرافون أو الكهان عند (الماندانج) يحملون خرجاً من جلد الماعز ، يحتوى خليطاً من أدوات العرافة : جذور نبات ، وخيوط ، ووعاء من طين يابس به ماء ، وتمثالان لرجل وامرأة ، ونصلان مقوسان ، وأربعة أجراس اسطوانية ، وصرة من الودع ، وقرنان مزركشان . فإذا فرغ الساحر من مهمته وتلاوة العزائم أفرغ خرجه على الأرض ، ثم نثر الودع على الجلد ، وأخذ يستنبط الجواب من الشكل الذى اتخذته هذه الخرزات على سطح الجلد . وبعض السودانين يستعملون أدوات أخرى ، مثل العصى والحصى وقطعا من الحديد . وفى جنوب منطقة الفلتا العليا وأعلى ساحل العاج يستعملون شرائط من الجلد ، أو سباطاً صغيرة ، أو ماء فى يقطينة يضيفون إليه بعض الاصباغ . ويستشفون الجواب من الشكل الذى تتخذه الرواسب فى الماء من انعكاس ألوانها فيه . وقد جلب المسلمون معهم نوعاً جديداً

من التنبؤ الحسابي ، يعرف بحساب الجمل الكبير ، وحساب الجمل الصغير ، وضرب الرمل .

وفي موطن قبائل (لوبي) . يعرف العراف المتطبب بين الناس بما يصديه من صرع ، أو ما يأتيه من أعمال جنونية ، كالتهام القمامة أو التفوه بكلام غير مفهوم . والاستخارة عندهم بوساطة أوضاع الخرز ، أو اهتزازات حصير معلق ، أو بترقيص تماثيل صغيرة معلقة بخيوط ، أو بالاستماع إلى متكلم يتكلم من بطنه بفرض أن صوته يعبر عن كلام الإله . وتوجد جمعية لهؤلاء العرافين تلقن أعضاها تعاليم خاصة ، وتعلمهم لغة سرية . وهؤلاء يبيعون للناس تعاويذ وتماثيل من مواد متنوعة ، كالخشب أو القرن ، أو أغصان الشجر ، أو عقود من الخرز ، أو قطعة من حديد . طروق أو نحاس ، أو فاكهة الخ . وكل واحد من قبائل (لوبي) يحمل ما لا يقل عن ثلاث تعاويذ .

ولدى جيرانهم من القبائل القاطنة في شمال ساحل الذهب يقيم كل ساحر محراباً منزلياً يستشف منه الغيب من حركة عصا سحرية مشبته في المحراب .

وعلى ساحل غينيا نجد الكهانة وبيع التماثيل فاشية بين السكان . والعرافون بين قبائل (اشانتى) يستعملون وسائل أخرى في الكشف عن الغيب ؛ كسوط ذى سبع شرائح ، وقدر وأمعاء دجاجة ، ومراة سحرية وخرزات تطرق على أحد القبور . وقد يستعملون وسيطاً للارواح يتمكن بالغيب أمام أحد القبور .

وأكثر التعاويذ انتشاراً بين سكان الساحل المكناس الصغيرة من ليف الشجرة ، والقرون ، والمساحيق المنوعة ، وأنياب الاسد ، وأنياب الأفعى ، للوقاية من سمها ، وقصبة بندقية للوقاية من الرصاص ، وصفارة للوقاية من مؤامرات الأعداء ؛ بيدنا نجد تعاويذ أخرى لحماية الجماعة بأسرها ، كشمرة اليقطين وخيوط القطن ، وبعض التماثيل الصغيرة . وللزرع كذلك تعاويذة لصيانتها سدادات من القش محشوة عظاما . وهناك غير ذلك أكسير للحب ، وتماثيل تجعل صاحبها يرى الناس ولا يرونه .

وبين قبائل (فون وايفه وبوروبا) ينتشر نوع من السحريتهم يكن أصحابه بواسطة ضرب الرمل ، وهو من تعاليم إله المستقبل المسمى عندهم (فا) Fa وهو الكاشف عن أسرار الوجود والمعبر عن إرادة الإله الأعظم . ويعرف كهنة (فا) هذا باسم (بوكونون) Bokonon وهؤلاء يحيون حياة مثالية فاضلة ، لا اثم فيها ولا كذب . ولكل منهم رواده على قدر صيته وصدق تنبؤاته ، وإن كان يشاع عن بعضهم أنهم أمتهنوا السحر الخبيث إلى جانب مهنة العرافة وعلاج الأمراض . ومن فضلاء هؤلاء الكهنة المطيبين الذين طارت شهرتهم في تلك الآفاق ، الشيخ الوقور (جدجبه Gèdégbé) وكان رئيس الكهان في بلاط الملك (بهانزان) فقد شهد (موبوال) Maupoil لذلك الشيخ برجاحة العقل والورع والتقى ، حيث استشاره الملك يوما عندما أراد إعلان الحرب على الفرنسيين ، فتنبأ له بالهزيمة والتشرد ، وصارحه بذلك . وأعجب من هذا أن تنبأ (جدجبه) هذا لنفسه باليوم والساعة التي توفي فيها .

و (موبوال) المذكور فرنسى درس أساليب السحر الأبيض والعرافة
فى داهومى .

والعراف (البكونون) غير متجول، بل يشتغل بصناعته فى مسكنه حيث
يقيم محراباً يتألف من جرة منكفة على فمها ، تحيطها أجراس صفار .
فإذا بدأ الاستخارة رمى بشمرة جوز أو ثمرة الكولا على لوح مبسوط
فترتفع وترتد ، وله فى إرتفاعها ووقوعها حساب ورموز يستخلص من
مجموعها الجواب الشافى . وهو حساب غاية فى التعقيد ففيه (١٦) علامة
كبيرة و (٢٤٠) علامة صغيرة ويتقضى أن يمر (البوكونون) بثلاث
مراحل تلقينية حتى يصير عرافاً .

وفى غرب الكمرون تستعمل (السلة المسحورة) ، وتوضع فى قلبها
اصداف من أنواع وأشكال مختلفة ، وقطع من صخر شفاف ولحاء شجر
وقواقع ، وعظام ، وبرائن (أبو جلبوا) ، وآلآء ، وجلجل الخ . .
فيأخذ العراف السلة ويهزها حتى يختلط ما فيها ، ثم يطرح محتوياتها على
الأرض . ومن ثم يتمعن فى أوضاعها . ومن أوضاعها ينطق بالجواب .

وفى بلاد (أوبانجى) يتجول هؤلاء المتطيبون المتكهنون ويطوفون
بالبلاد ، فى زى من جلد حيوان ، وحول رقابهم حبال بها عقد وتماثيم ،
يرقصون على أصوات أجراس وجلجل مشدودة إلى أرجلهم . وكل من
أراد أن يحترف التطيب فى هذه المنطقة لابد له أن يجتاز امتحاناً
عسيراً ، إذ يبطح أرضاً فى حفرة ، وقد شد ذرعاه إلى أوتاد ، ثم يغطي
جسمه بلحاء الشجر والحطب ، ثم تشعل النار فى هذا الهشيم ، ولايستنقذ

من هذا الأخدود الأبعد أن يصاب جسده بحروق جسيمة . ويزعم المتكهن منهم أنه يعرف الغيب بعلامات يستشفها من سنج أنابيب القصب على الماء ومن حركة اشتعال النار التي يرقصون حولها ويحصل الشفاء بأن يمتص الطبيب الداء من جسم المريض بفصد العضو المريض فإذا أمتص منه الدم أخذ يتقله في هيئة قطع من العظام ، علامة على تمام الشفاء . وهذه الطريقة منتشرة في أنحاء أفريقيا السوداء .

وتستعمل (اليقطينة المسحورة) في الاستخارة عند قبائل أعالي النيل وشرق أفريقيا فيوضع فيها بذور ، ثم تهز بحركة شديدة ، ويعتبر الصوت الصادر عنها صوتاً صادراً من الآله .

ورسامة طالب الطب والكهانة عند قبائل الأقزام تكون بامتحان عسير رهيب ، إذ يربط الطالب إلى جثة ميت ، وجهاً لوجه ، ثم يدلى الإثنان في قبر ويتركان فيه ثلاثة أيام . فإذا لم يصب الطالب في نهايتها بالجنون دل هذا على قوة سلطانه على أعصابه وضبطه لنفسه ، وعلى أن الأرواح العليا قد حلت فيه .

وينفرد الساحر المتطرب عند قبائل (البوشيان) بقدرة خفية هائلة ، إذ يزعم أنه يستطيع أن يستدرج الصيد من مكانه ، وأن يتحول إلى حيوان ، أو يصعد إلى السماء بتسلق جبل يقذف به إلى أعلى ليستنزل المطر وعند (الدامارا) سحرة وهبوا القدرة على استئزال المطر برقصات خاصة يرقصونها ويستطيع بعضهم أن يتنبأ بالغيب عندما ينصت إلى صفق نعليه .

والاستخارة بطرق فقرات من عظام معروفة في الجنوب الشرقى لأفريقية . وتوجد بين قبائل (باسوتو) و (سوازي) طبقة من النساء متخصصات في مداواة داء الصرع ، يداوين المصاب بارغامه على الرقص دون استراحة ، حتى تنتهك قواه ، ثم يلقي به في الهر فتفر من جسده الأرواح الشريرة التي سببت المرض .

أنواع أخرى من الكهانة والسحر :

لا تقتصر صناعة السحر على الكهان المحترفين ، بل توجد أساليب أخرى من السحر والكهانة يزاولها الأفراد غير المحترفين ، إذا كانت تكمن فيهم قوى خفية تكشف لهم عن الغيب .

ومن ذلك ما يفشو لدى قبائل (بامبارا) من التكهن بالإعداد الاثنين والعشرين التي تقابل عدد العناصر المكونة للخلقة . فالعدد (١) يقابل الإله (فارو) وعدد (٢) للتوائم و (٣) للرجل و (٤) للراة و (٧) للكون بتمامه .. إلخ ، وكل أحد من قبائل (البامبارا) يستطيع أن يستخير الأعداد التي يصل إليها عن طرق متعددة ، كأن يقيس طول ظله وقت الزوال بخصره ، أو باستعمال ثمرة الكولا أو بطرق الودع أو بضرب الرمل ..

وعلى العموم يوجد نوعان من الكهانة كما يقول (مونتي Monteil) كهانة إلهامية ، وهي تكهن المتصلين بالأرواح ، وكهانة حسابية وهي صناعة الكهان المحترفين .

وإلى النوع الأول تنتسب جميعات في قبائل (خاسوكه) Khassouké حيث يتقمص إله الماء جسم الكاهن ، فيتكلم هذا بلسانه . وقبائل (كونياجي) يسألون الميت عن سبب موته ؛ إذ يحمله شبان القبيلة على رؤوسهم فيصيبهم بالصرع والاضطراب بشكل يؤدي إلى اكتناء الجواب من حركاتهم .

والاحلام والرؤى في قبيلة (الكردى) نوع من التكنن بالمستقبل . فاذا رأت امرأة في حلمها ضفدعة طويلة الأرجل دل ذلك على أنها ستلد ذكراً ، فاذا رأت نوعاً آخر من الضفادع دل ذلك على أنها ستلد أنثى وتتطير هذه القبيلة من البومة ، فهي فأل شوم ، بينما ترى في الغزالة فألاً حسناً . ومن رأى في النوم ثعباناً (وهو يذكر بالحبل) تذباً بأنه سوف يقتنص ويصير عبداً رقيقاً .

والتكنن في السودان بالاستقراء (لحساب) والاستنتاج شائع مختلف الأشكال . ومن أكثرها انتشاراً طريقة استقراء أمعاء الدجاج . وذلك بذبح الدجاجة على المحراب ، ثم تطرح على الأرض . فاذا نفقت وبطنها إلى أعلى كان الجواب خيراً . وأوضاع بقية الجسم تدل على تفاصيل إضافية .

كما يتكهنون في تلك الجهات أيضاً باستقراء حركات الفأرة بوضعها في قاع إناء إسطوانى الشكل ، في أعلاه سطح مثقوب توضع عليه حبوب مخلوطة بأشياء أخرى ، فاذا تحركت الفأرة من أسفل إلى أعلى لتأكل الحب عبثت بالأشياء الأخرى وغيبت من مواضعها . وباستقراء هذه الأوضاع يستطيع التكنن بالجواب عن المسألة المطلوبة .

وفى الكامرون يستخبرون (العنكبوت المتنبئ) وهو نوع من العنكبوت يزعمون أنه أول الخلائق الحية . فإذا عثر أحد الناس على جحر هذا العنكبوت نظف حول بابه ، ثم سوره بحجارة جافة ، ثم يهمر للعنكبوت بكل مشاكه وهمومه ، ويسأله الجواب عن سؤاله . ثم يضع حول الباب أوراقا من الشجر ، أو قطعاً من اليقطين ، ينظمها على رسم معين . فإذا انصرف الرجل خرج العنكبوت من جحره ، وأخذ يعيث في سيره بتلك الأوراق والأشياء ، ثم يعود الرجل أدراجه ويستقرى أوضاعها التى تدله على المستقبل . بل تزيد على ذلك فتدله على الطريق السوى الذى يجب عليه أن يسلكها فى حل مشاكه .

ويتصل بأعمال السحر طائفة من المعتقدات والمخاوف النفسية ، التى تعرف لدينا باسم الخرافات . فمثلاً نجد قبائل (الباسا) تمتنع عن العمل فى فصل المطر ، ونجد لديهم أيام نعى وأيام بؤس . فإذا رأوا فأر النخيل فى فناء الدار كان ذلك نذيراً بنزول الموت بأهلها وإذا آذى إنسان هرة أصيب بالحدب .

وقد تكمن فى الأشياء أو الأفعال قوة سحرية تفعل فعلها . فمثلاً نجد فى إشتاتى ما يسمى (سومان Souman) وهو شئ من النبات يزعمون أنه تسكنه روح ، يباع فى السوق ، وبعضه يتعوذ به من أخطار الحرب . بعض أنواعه له كهنوت وأتباع . وبذلك يستطيع الإنسان أن يحصل على مراده ببضعة قروش . وهذه العبادة التفعية ، عبادة (سومان) ، حلت محل عبادة بعض الآلهة الصغرى .

وتعتقد قبائل النيل الأعلى أن اللعنة إذا أصابت إنساناً قتلته ، وخاصة لعنة الوالدين . وبلغ من اعتقاد قبائل (كيكويو) في قدسية القسم واليمين وقوته السحرية أن كل من يحنث في يمينه يترقب أن يصيبه الموت المفاجيء — وقد استغل تلك القداسة جماعة (الماوماو) في ثورتهم ضد المستعمرين في تلك الأرجاء وتعتقد كثير من القبائل مثل (الآوبانجي) بهذه القوة السحرية الكامنة في الدعوات والاقوال ، والتي تسمى أشد وقاً ونأثيراً في الليل أو في السحر ، عندما يكون الناس رقوداً لا يستطيعون دفاعاً عن أنفسهم ولا مقاومة . كما يعتقدون ، بتأثير النفث في العقد أو التفل على عضو من الجسم لإيصال الخير أو الشر للشفاء من المرض ، أو الابتلاء به ، أو لمنح قوة الاخصاب ، أو لحرمان الرجل من قوته الجنسية . ويستعمل البوشيان قوساً صغيرة وسهما مسمومة لوقاية أنفسهم من مكاييد السحر التي يوجهها إليهم أعداؤهم . والسحر الذي يستسقى به المطر من أعظم ما تهتم له القبائل الزراعية . وغالباً ما يكون هذا السحر تضرعاً دينياً يتوجهون به إلى الاسلاف والآلهة غير أنه ، لكي ينصاع الآلهة فستجيب الدعاء ، يلجئون إلى وسائل عدة : فعند (قبائل لوندا) مثلاً يبللون الفؤوس قبل بدء العمل على الأرض ، أو يبللون التربة بطين رطب ذي لون أحمر وأبيض ، أو إقامة تمثال لرجل وامرأة معاً . وعند قبائل (سوازي) يختص الملك وحده بالقدرة على استئزال الغيث . ويزعمون أنه يملك حجراً خاصاً للنظر يحفظ به ويستره عن الناس . وأنه يستعمل لذلك أيضاً ماء استقته عذراوان طاهرتان ... وما يزال هذا الاعتقاد سائداً بين رؤساء بعض

القبائل حتى الذين اعتنقوا المسيحية . وهذه القدرة على إززال المطر هي
المجرر الوحيد لسلطان الملكية وتقديسها بين القبائل .

السحرة :

نطلق اسم السحرة هنا على أولئك الذين يعملون على إيزاء الناس
بسحرهم ، وإن كان يطلق أحياناً على المتنبيين والكهان . والاعتقاد
بقدره السحرة على إيصال الأذى شائع في كثير من البلاد . ويعتقد
الناس أنهم السبب الرئيس في انتشار المرض والموت ، وأنهم أعداء
الشعب الذين يجب الكشف عنهم وإززال العقاب بهم إذا ثبت عليهم
الاشتغال بهذا النوع من السحر الخبيث . ولا يثبت ذلك إلا بامتحانهم
بالوان من التعذيب كما كان يفعل بهم في القرون الوسطى بأوروبا .

وليس من الضروري أن يعرف الساحر عن نفسه أنه ساحر ؛ فقد
يجوز أن طفلاً دميم الحلقة أو مريضاً أو توأمين يرى فيهم الناس روحاً
خبيثة يحل بسببها ذبحهم . ومن الغريب أن الأشخاص الذين يبين هذا
الاختبار المزعوم أنهم سحرة يرضون بهذه الوصمة . ففوة السحر المؤذى
قد تكون قوة لاشعورية ، تحل في الشخص دون أن يكون له إرادة
في ذلك ؛ كحسد العين مثلاً . ولكن الغالب في هؤلاء السحرة الخبيثاء أنهم
يوصلون الأذى للناس عن عمد . ولهم في ذلك وسائل تختلف باختلاف
القبائل ومواطنها . فنلأ :

تعتقد قبائل (لوبي) أن الساحر يستطيع أن يرسل دهم في سباته
توأمه الروحي ليأكل كل توأم شخص آخر . ويتجمع هؤلاء السحرة في شبه

نقابات لیتصيدوا توائهم أعدائهم وينزعوا منهم أكبادهم (معنوياً) وياً كلونها بعد شوائها ، فيبقى هؤلاء على قيد الحياة ، ولكن مرضى . كما يستطيع الساحر أن يطير في السماء على أجنحة الخفافيش ، وأن يغوص في باطن الأرض ، أو يتحول إلى حجر أو إلى حيوان متوحش كالضبع مثلاً . كما يستطيع أن يوجه الحظوظ المنكودة إلى الناس ، وخاصة عند مرور جنازة ميت . ولا يمكن لإبطال سحره إلا إذا امتص المتطبب عمل الساحر من جسم الشخص المسحور . وفي الغالب يخرج من الجسم على هيئة قطع من العظام أو رؤوس سهام أو أشواك قنفذ .

وتعتقد قبائل اشانتي أن الساحرات الخبيثات لا يؤثر سحرهن إلا في عشرينهن ؛ وكثيراً ما توجه تهمة السحر الأسود إلى الحالة في الأسرة . وتستطيع الساحرات امتصاص دم ضحاياهن بطريقة خفية ؛ ويستعن على إيذاء الشخص باستعمال جزء من جسمه أو ملابسه ، تكتسلة من شعره أو أظافره ، أو خيط من ثوبه ، أو أثر قدمه في التراب . وأن لهن القدرة على التشكل بشكل طير (حدأة أو غراب أو بومة أو بغاء) أو التشكل بشكل حشرة (كالذباب أو القمل) ، أو بشكل حيوان (كالضبع أو الفيل أو الوعل أو الأفعى) . ويجتمع الساحرات في أحلاف بعضهن مع بعض أو مع الجنيات ، ويرقص الجمع في ظلام الليل رقصاً خليعاً . وامتحن الساحرة في الماضي لإدانتها أو تبرئتها كان بتجريعها سماً ؛ فإذا لفظته اتضحت براءتها ، وإذا أصابها المرض ثبتت التهمة عليها . وأما في الوقت الحاضر فتستطيع الساحرة أن تعترف

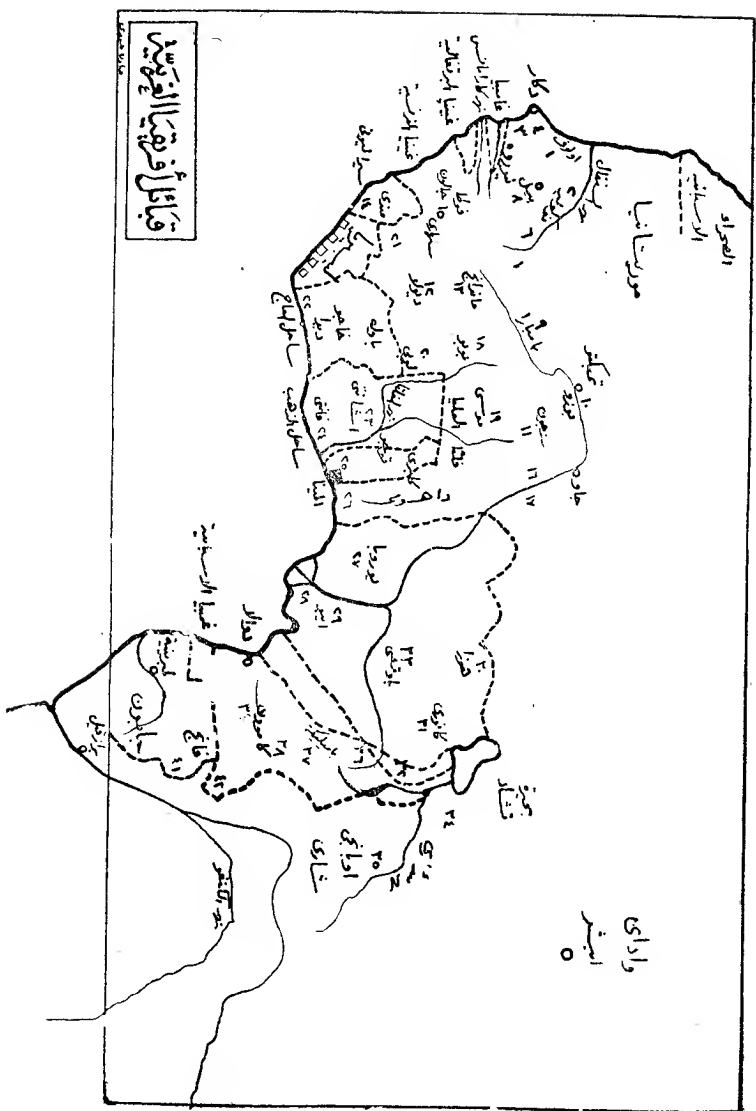
بجرمها أمام (السومان) وعندئذ يستطيع تطهيرها من الروح الشريرة ،
فتعود إلى الحياة العادية بين أسرتها . ومثل هذه المعتقدات فاشية بين
الناس في خليج غينيا .

وفي جنوب كامرون وفي جابون يعتقد الناس في (الإيفو Ewous)
وهو (خادم) الساحر الخبيث ، يرسله في هيئة حيوان صغير الجسم
يخفى على العين ليلتهم قلب عدوه فيحل به الموت بعدها بقليل ؛ بل هو
السبب الرئيسي في أكثر حوادث الموت عند كثير من القبائل . والمثل
الساثر بينهم هو : أن الموت وليد الحقد ، ويعرف هؤلاء السحرة باسم
(أكلة لحوم الآدميين) وهم أنفسهم يعتقدون أنهم هم سبب القتل .
وبعض الناس يعتقد أن للساحر أربع عيون ؛ ثنتان لليل ، وثنان للنهار ؛
وأن السحرة تتجمع بالليل لترقص ، وأنهم يزرعون شجرة موز تثمر
في الليلة نفسها ، فإذا سقطت أول ثمرة موز منها تفرقوا . ويعرف
السحرة من عيونهم الحاسدة ، وسهام كلماتهم اللعينة ، التي توصل أذاهم
للناس . غير أن الناس من جهتهم يستطيعون أن يتحاموا شرهم باستعمال
مادة زيتية خاصة يدهنون بها أجسادهم ، أو بتعليق البصل في فناء الدار ،
أو وضع تعاويذ في تجويف بوق . وتلجأ الجماعة إلى امتحان كل من
يشك في أمره بمختلف الوسائل ، ولا سيما محنة (شربة اللبن) وهي
مادة نباتية صمغية إذا لفظها شاربها كان ذلك دليلاً على براءته ، وإلا كان
ساحراً وتعرض للتنكيل بالضرب وأنواع التعذيب ، كتسليط جماعات
النمل البرى على جسمه ، ثم ينتهى أمره بالقتل .

وفي أوبانجي تتعري الساحرة وتركب عصا مكسفة . والنوير يعتقدون

في الغيلان التي تقف تحت الموقى عقب دفنهم . وعند (الباسا) في كامرون يتخذ لليت قبران : أحدهما ظاهر والآخر مخبوء ، حتى لا يهتدى إليه السحرة من أكلة لحوم الموقى . وعند قبائل (لوندا) يعتقدون بوجود أرواح شريرة يستخدمها بعض الرجال ؛ ولكن السحر من خصائص النساء طبيعتهم ؛ لأن الشرف في عرفهم كامن في جنس الأنثى . وسحرة قبائل (افيموندو) يقتلون الأطفال لجعلوا منهم خداماً لهم ، ثم يرقصون عراة أمام مسكن فريستهم . والشائع أن السحر وراثي في السلسلة النسوية للأسرة ، غير أننا نجد في هذا الوسط أن كل فرد ناجح في حياته موفق فيها توفيقاً ممتازاً غير عادي ، يجر عليه نجاحه تهمة الاشتغال بالسحر الأسود .

وفي قبائل (السوازي) يكون السحرة فيما بينهم اتحاداً يتآخون فيه مقسماً إلى مراتب ودرجات . والترشق بتهمة السحر كثير الوقوع بين أفراد الأسرة الواحدة . وأفظع التهم التي تستوجب القتل أن يتهم ساحر بأنه سبب بوار الزرع . وعند قبائل (باسوتو) لا تقنع الساحرات بأكل لحوم الموقى ، ولكنهن يترصدن أرواحهم عند ما تذهب إلى عالم الأرواح لاقتناصها والتهامها . وكثيراً ما يحدث أنه إذا خرج إنسان على العادات والعرف المألوف أو تعدى آداب السلوك عرض نفسه لتهمة الاشتغال بالسحر الأسود . وهذا من أقوى الأسباب التي تحمل الناس على التزام الطريق السوي .



أسماء القبائل وأرقامها

Adiokourou (۲۲) ادیوکورو	Oulouf . . (۱) اولوف
Achanti . . (۲۳) اشانتی	Toucouleur (۲) توکولیر
Fanti . . (۲۴) فانتی	Sérés . . (۳) سیریس
Ewé . . (۲۵) إيفه	Lébou . . (۴) لیبو
Fon . . (۲۶) فون	Peul . . (۵) بیل
Yourouba (۲۷) یوروبا	Sarakolé (۶) سارا کولا
Ibibio . . (۲۸) إیبیبیو	Khassouké (۷) خاسوکه
Ibo . . (۲۹) ایبو	Coniagui (۸) کونیاگی
Haoussa (۳۰) هاووزا	Bambara (۹) بامبارا
Kanouri (۳۱) کانوری	Bozo . . (۱۰) بوزو
Kirdi . . (۳۲) کردی	Dogon . . (۱۱) دوجون
Baoutchi (۳۳) باوتشی	Dioula . . (۱۲) دیولا
Kotoko (۳۴) کوتوکو	Mandingue (۱۳) ماندانج
Sara . . (۳۵) سارا	Mendé . . (۱۴) منده
Bamoun (۳۶) بامون	Sonrhai (۱۵) سونرهای
Bamiliké (۳۷) بامیلیکه	Gourmanché (۱۶) جرمانشی
Banen . . (۳۸) بانن	Djerma . . (۱۷) دجرما
Bassa . . (۳۹) باسا	Bobo . . (۱۸) بوبو
Boulou . . (۴۰) بولو	Mossi . . (۱۹) موسی
Fang . . (۴۱) فانج	Lobi . . (۲۰) لوبی
Pygmée . . (۴۲) أقزام	Guerzé . . (۲۱) جرزة

الفصل الرابع

خصائص العقائد الوثنية وتطورها

كنا حتى الساعة بصدد عرض يحمل للحقائق التي استطعنا الوصول إليها عن الديانات الوثنية للزئوج في أفريقيا . وفي هذا الفصل سنحاول أن نلقى عليه نظرة عامة ، لنستخلص منها بعض خصائصها ، ولنضعها في مكانها بين الديانات البشرية ، وأن نعقب على ذلك بتقدير مدى تطورها .

الصفات المشتركة :

تلتقى هذه الديانات كلها عند أساس واحد ، هو عمق الإحساس بالروابط الوثيقة التي تربط المجتمع البدائي بالبيئة الطبيعية التي يعيش فيها . وسواء أكان مجتمع صيادين أو ملاك قطعان أو زراع ، فهم يعيشون في كنف العناصر الطبيعية وعلى نظامها ، حيث لا يتميز الإنسان عن الأشياء ولا تتميز الأشياء عن الآدميين ، وحيث يعتبر البشر أنفسهم صورة من صور الكون الكلى ، ويشكلون حياتهم وفقا لما يتصورونه عن هذا الكون . ولا يرى المجتمع القبلي في الحيوان والنبات . ولا في الجملاد ، إلا مخلوقات لا تختلف هوعنها وليس له عليها سيطرة ما ، فأضفى

عليها كل صفاته وأحاسيسه ورغائبه الإنسانية ؛ وصور له خياله بسبب ذلك الاحساس أن الانسان بالمثل ، حياً كان أو ميتاً ، له قوة يستطيع بها أن يتخذ شكل حيوان أو نبات . وأن الجماعة الانسانية ما هي إلا حليفة ونسبية لجماعة الحيوان ، وأنها تستطيع استخدام قواه في حمايتها وقد بلغ من شعورهم بهذه الصلة أن يستأذن الصياد فريسته كي يقتلها ، ثم يقدم لها القرايين ليسترضيها ويهديء من سورة روحها ، أو أن ينحرضحية ما تقربا لقوسه أو بندقيته حتى لا تخطئ أحدهما الهدف .

والإنسان في هذه البيئة لا يحاول معارضة الطبيعة ومقاومتها ، وذلك لإحساسه بأنه جزء لا يتجزأ منها ، وأنه يستمد وجوده ومقدرته من صميم قواها ، ظاهرة كانت أو خافية ، تلك القوى التي يدين لها بسلامته ويخشها على نفسه ، والتي يرتبط بها ارتباطاً دائماً وأبدياً . وقد يتبادر إلى الذهن أن تبعية الإنسان وخضوعه لعوامل الطبيعة هناك من أسباب ضعفه . إن الذى يزعم ذلك يفكر بعقليتنا الحديثة فى مجتمع حديث يجاهد الإنسان فيه لاستخدام قوى الطبيعة وإخضاعها لإرادته . ومع هذا فلن تستطيع أن نتناسى أن ذلك الإحساس الرقيق بالتعاطف بين الإنسان وبيئته الطبيعية إحساس يضئ على معتقدات الزوج الوثنية سمات الجمال والشاعرية ، وأنه قد وسع أفق مشاعرهم حتى شمل أرجاء الكون ، بدلا من أن يمحضروا كل همهم فى نفع الإنسانية وحدها ، تلك الانسانية التى أسرفت المدنية الحديثة فى جعل مصلحتها هدفها الاسمى ووضعت لذلك ما وضعت من فلسفات متباينة .

إن البيانات الوثنية أدركت الكون وفهمته على أنه وحدة لا تتجزأ أساسها الأخوة الشاملة وهو إحساس قصرنا نحن المتمدنين عن إدراكه . فهم لا يميزون بين الطبيعة وما وراء الطبيعة ، ولا بين المادة والروح ، لأنهم يؤمنون بأن القوى الحيوية الكونية تسرى في الخليقة بأكملها ، وترتبط بعضها ببعض . فالروح عندهم هي زفرة من نفس متردد ، أو شعلة خالدة يستطيع استردادها . وما المرض إلا قطعة عظم أو خشب إذا استخرجت من الجسم فارقه الداء وحل به البرء . ولا يفرقون بين الحلم والحقيقة . وكل ما انفصل عن البدن ، ولو كان قلامة ظفر ، أو خصله من شعر ، أو أثر قدم على الأرض ، أجزاء تنبثق من الروح ، وتسرى فيها القوى الحيوية ، يمكن استخدامها بالسحر للاحاق الضرر بصاحبها . والطبيعة ليست مادة ، ولا روحاً ، وإنما هي قوى حيوية هائلة . والحياة هي جوهر الخير ، هي الحقيقة التي ليس وراها حقيقة ..

إن كل من يصف الزنوج الوثنيين بأنهم خضعوا لقوى غيبية ، رهبة وفزعاً ، لا يبعد عن الصورة الحقيقية لهم ، ولكنها صورة غير كاملة ، أن للزنجي عذراً لأنه يعيش في كنف تلك القوى . إنها قد ترهبه وتؤلمه غير أنه رغم إساءتها له ، يستمد منها حياته وكيانه وقوته . وما شعوره بالاعتماد عليها وإحساسه بقدرتها على التصرف فيه إلا مزيج من الاستسلام والثقة في بيئة مألوقة له ، عركها وعركته . وما الشعائر الدينية والمحرمات التي خطرهما عليه المجتمع إلا وسائل يتدفع بها طلباً للوقاية والسلامة والاستزادة من القوى الحيوية . وإذا كان الفرد منهم مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً

بالطبيعة فهو أشد إرتباطاً بالمجتمع الذى ينسب إليه ، إذ لاتقف صلته به عند حدى مولده وماتة ، بل تظل هذه الصلة قائمة حتى بعد الموت ، إذ نجد أن الموتى من الآباء والأجداد يهيمنون على الأحياء من وراء أجسادهم ، إذ أنهم المؤسسون للأسره أو القبيله ، والقوامون على حفظ القانون والنظام والأخلاق والعادات ، كما أن لهم الحق فى عقاب المذنبين والخارجين ، ومكافأة المطيعين . وكما يرتبط الفرد بآبائه وأجداده فإنه يرتبط كذلك بآلهة الجماعة إرتباطاً تفسره الاساطير والاقاصيص التى توارثتها الأجيال عن تاريخ نشأة الكون . فالديانة لديهم هى حلقة الاتصال بين افراد المجتمع فيما بينهم ، وبين المجتمع والقوى العلوية الالهية وكما أن كلمة (ديانة) مأخوذ أصلها من كلمة (صلة) فى اللاتينية فإن الكلمة نفسها فى لغة قبائل (بامبارا) تفيد كلا المعنيين (الصلة والدين) ..

ومن البدهى أن ديانة هذا شأنها (نبئت بين جماعة صغيرة ضيقة الحدود منطقية على نفسها) لا بد لها من أن تفرض على أفرادها سلوكاً مثالياً ، وخضوعاً مطلقاً لعاداتها :

تعال معى نستمع إلى حديث المبشر الكاثوليكي (أوبياس) Aupiais وهو أحد أفذاذ المشتغلين بعلم الاجناس فقد أطرى آداب الزواج وأخلاقهم ، بما لم يمتدحهم به أحد من قبل . قال « أن تمسك مجتمعم بالاوزاع المتوارثة قد أورثهم استقراراً وثباتاً ، تمكنوا به من أن يشيدوا تراثاً هائلا من الاخلاق ، يشيد جيلا بعد جيل ، على مر الزمن السحيق ، ثم أشاد برجاحه عقولهم واتزانهم واحترامهم للقانون

وأولى الأمر منهم ؛ كما نوه بدقة نظامهم الاجتماعي وفضائلهم الفطرية فلموهم وطربهم ماهو ألا تعبير عن عمق استمتاعهم بالحياة ، وتجاوبهم مع العالم الذى يعيشون فيه ؛ كما أمتدح ظرفهم ، وحسن سلوكهم ، وأدبهم الجلم ، وصبرهم على المكاراة ، ونكرانهم لذواتهم واستغراقهم فى الحياة الروحية . وهذه هى مقومات حضارتهم الفطرية الواقعية ، التى وصلت إليهم من خلال شعائر وتلقينات وعادات ومهارات وأساطير ومعارف عن نشأة الكون .

ويبدو أن الوثنية ديانة لها مراتب من العلم متفاوتة بين الناس يقتصر علم العامة بها على بسائط المعتقدات التى يسميها (البامبارا) قشور العلم . وهى جزء طفيف من الرموز وأسرار الكون ، التى لا يعلم حقيقتها الا خاصة من حملة الأسرار العلوية . وهذه الأسرار معقدة تعقيدا مقصودا حتى تعمى على الفهم ، وتستغلق على الأذهان . وكان تعقيدها سببا فى صعوبة الالتهاد إلى حقيقة الديانات الوثنية ، وفى تضليل الباحثين عنها . وفوق طبقة العامة توجد طبقات عديدة من حملة الأسرار ، يقل عددها كلما ارتفعت مرتبتها ، حتى نصل إلى درجة من الأسرار الدينية يصعب على الفهم ادراكها جملة وتفصيلا . وأمة الزنج مثلهم فى ذلك مثل بقية بنى الإنسان ، توجد بينهم قلة من الرجال الذين تأملوا فى أسباب الحياة وأسرار الطبيعة وصاغوا فلسفتها وأساطير الخليقة الأولى . وهؤلاء هم الصفوة الممتازة التى تعلم التفسير الكامل لأسرار الوجود وما الشعائر والرموز سوى ناحيتها الظاهرة لسواد الناس ، والتى تتحكم فى وجوه نشاطهم . فما من حركة دينية أو عادة اجتماعية ، أو أصول مرعية بين

لناس ، إلا ولها مغزى ديني . بل العالم المستتر الخفي حاضر في اذهانهم وخلدهم ، لأنه مائل في رموزهم . ومن هنا يدرك أهمية الاحتفالات والاعياد الدينية ، فكل حركة يتحرك بها أنسان حتى أقل حركة من الحداد لها أصولها في دينهم . والاحتفالات الجماعية هي أعظم الشعائر الدينية ، لأنها تعبر تعبيراً تاماً عن الحياة الخلقية والاجتماعية والفكرية للجمتمع . مظهره ومصدر حيويته . هو ماسماه الاب (أوبياس) بالروح الاحتفالية المتأصلة في الزوج قال « أوبياس » . « يجب أن نعلم أن — الجماعة هي الروح المتأصلة في طبيعة القبيلة الزنجية . وما الاجتماعات والاعياد ألا مظهر شغفهم بها . والزوج يفكرون تفكيراً جماعياً : فإذا دعوا آلهتهم دعوها جمعا ، وإذا أبتهجوا كان أبتهاجم وطربهم جماعياً في وحدة عجيبة تربطهم بعضهم ببعض ، حاضرهم وغائبهم ، وحيهم وميتهم . وتلك الحيوية العارمة المتدفقة تبدو في انفعالاتهم الصارخة وسط مظاهر عظيمة من الاحتفال والابتهاج الجماعي ، حول سماط واحد مزدحم بألوان الطعام يشترك فيه الجميع سواسية . »

ولهم في جميع إبتهاجاتهم الروحية وشعائرهم الدينية أغراض نفعية . فهي في زعمهم تجديد لعالمهم ، واستزادة من القوى الحيوية ، أو وسيلة لاستئزال الغيث أو تكثير النسل . وهم كذلك يسترضون بها آباءهم ، ويتوسلون بها لإلههم ليستدروا عطفهم وحمايتهم ؛ كما يتوسلون بها إلى آلهتهم وإلى سائر القوى الخفية التي تسيطر على حياتهم . ولا يرون في السحر تناقضاً مع دينهم ، وإنما يستعينون بقوته الخفية على إدراك مصلحة فردية . ولهذا يعتقدون أن الطلاس مثلها مثل المحاريب في البيت ، منهل

من مناهل القوى . فالسحر في عرفهم ما هو إلا وسيلة لاستجلاب القوى الحيوية الكونية ، واستدزات تلك الطاقة العلوية التي تعتبر هي الجوهر الفرد في جميع عقائد الزوج الوثنيين ، حتى الهوا السحر في قبائل غينيا الجديدة ..

تعدد الديانات :

أن كثيراً من عناصر تلك الديانات مشتركة فيما بينها . إلا أن الأوضاع الجغرافية ونوع الحياة والنظم الاجتماعية تجعل لبعض تلك العناصر الغلبة على غيرها في بعض الأصقاع . ولذلك تعددت الديانات بشكل جعل من العسير حصرها وتبويبها .

ففي قبائل البوشيان ، وهي تعيش من الصيد والقنص وتلبس الغذاء من الطبيعة ، نجد أن الجماعة تحيا حياة البدو ، لكثرة تنقلها . ولذلك تتميز بالبيئة الطبيعية ، وهم لذلك يمجدون الحيوان بوصف أنه أخ للإنسان أو توءمه ، وهو الحامي والراعى للقبيلة . كما يعتقدون في جنسيات الأحراش ، ويؤلهون الشمس والنجوم . ولهذا السبب نرى السحر الخاص بأغراض الصيد يحتل في معتقداتهم مكانا بارزا . وبين قبائل أفريقيا الجنوبية والشرقية ، وهي قبائل زراعية في صميمها ، نجد أساطير عن الشمس والفصول والسماء والظواهر الجوية . ونجد القبيلة تلتف حول عبادة أبطالها القدماء وآلهة السماوات . وأما الموتى من الآباء والأجداد فهم أموات إلا أنهم أحياء ، يدخلون في زمرة آلهة الأرض والعالم الذي يعيش في باطنها . وقبائل النيل الأعلى يعبدون أيضا أبطالها وآلهة الظواهر الجوية .

أما في الغابات الاستوائية الأفريقية فيسود الاعتقاد بفعل السحر لاصطياد الحيوان وتراعى الشعائر الدينية الزراعية إلى جانب عبادة الآباء والأجداد وتقاليد الختان. والآلهة بينهم أما ذكور وأما أنثى ، تبعا لتكوين المجتمع القبلي فاذا كانت السيادة فيه للرجل كان الاله ذكراً ، وإذا كانت السيادة فيه للمرأة كان الاله أنثى . والأساطير التي تدور حول الحيوان والنبات منتشرة بينهم . وهي تؤكد صلات القربى بين الانسان وبين الحيوان والنبات .

وأما الزوج الاصيلون المنتشرون من أعلى غينيا إلى أعلى النيل فصيادون . ولذلك يزعمون أن أصولهم تنحدر من بعض الحيوان ، شأنهم في ذلك شأن بقية قبائل الصيادين . ولما كانوا أهل زرع أيضاً فيعبدون إلى جانب ذلك إلهة للطبيعة وإلهة للأرض ، كما يقصدون أسلافهم المؤسسين للقبيلة . ولما كان نظامهم السياسى لا يفرض عليهم الخضوع لرئيس ما فقد تبعت كل فئة منهم عقيدة خاصة . وبذلك انقسمت إلى فئات دينية متعددة .

ونجد بين القبائل الزراعية في المناطق السودانية نفس العناصر الدينية وهي عبادة الأرض ، وعبادة الأجداد والابطال ، غير أن تلك القبائل أكثر عدداً وأشد تماسكاً . وتضم الجمعيات الدينية هناك كل المراهقين المحتوين الذين تلقوا مراسم الأسرار في القبيلة . وتلعب هذه الجمعيات دوراً هاماً في توثيق الروابط القبلية بإقامة الحفلات الدينية العظيمة بين فترة وأخرى ، بمناسبة المواسم الزراعية . ونرى الأساطير عن خلق الكون وعن بدء الخليقة ، والذخيرة اللمة من الرموز منتشرة ومتشابهة

فى تلك المنطقة الفسيحة (من السودان الفرنسى حتى أعالى نهر فلتنأ) .
وأما فى المناطق الممتدة على ساحل غينيا (فى الجزء الشرقى من ساحل
العاج، والأراضى الواطئة من ساحل الذهب، وتوجو، وداهومى،
وجنوب غربى بلاد نيجيريا) فالحال تختلف عن بقية المناطق، إذ تتميز
تلك الأجزاء بقيام ممالك ذات حضارات راقية نسبياً، بفضل إتصالها
بالعالم الخارجى . ولذلك طرأت عليها تطورات خاصة فى عباداتها تفوقت
على أنواع العبادات المعروفة، وأصبح السائد فى تلك الأصقاع عبادة الملوك
وآبائهم وأجدادهم، وعبادة أبطال الأساطير، وعبادة الإلهة الصغرى
لها كهنتها واديرتها وأتباعها. كل هذا أضعف فى قبائلها عبادة الآباء
وتقديس الأرض . ونلاحظ إلى جانب ذلك أن انتشار العرافة والتنجيم
والسحر والجمعيات الدينية أضعف من روح التماسك القبلى، فتحرر الفرد
من سيطرة المجتمع وتكونت له شخصية قائمة بذاتها وكيان مستقل لانرى
نظيره فى القبائل الأخرى، وأصبح للفرد فى تلك المناطق من الحرية
ما يجعله يختار لنفسه معبوداته ونوع عبادته أو الجمعية التى ينتمى إليها
ويتآخى مع أفرادها، ولم يعد مجرد خلية من خلايا المجتمع . وهذه الحرية
الفردية الدينية التى يتمتع بها هؤلاء جعلت للآديان الجديدة الطارئة عليهم
من الخارج إغراء خاصاً حتى اعتنقها بعضهم .

كيف نسمى الديانات الافريقية ... ؟

لقد حاول الاوربيون أن يطلقوا اسما عاما يشمل ديانات الزنج،
قباسا على ماتعودوه وهم من ديانات ذات مبادئ محددة ثابتة يدل عليها

إسم شامل هو المسيحية . وكان البرتغاليون ، وهم الرعيل الاول من المستعمرين على ساحل غينيا ، أول من حاول ذلك فأطلقوا على ديانة الزنوج إسم عبادة التماثيل (Fetichisme) لأنهم ظنوا أنهم يعبدون تلك الدمى الصغيرة وهي دمي على هيئة حيوان أو إنسان أو شيء ما . ولكن هذه الدمى لم تكن في حقيقتها إلا رموزاً تمثل آباءهم أو آلهتهم فتسميتهم عباد تماثيل خطأ لا يقل عن خطأ من يسمى الكاثوليك عباد أصنام لأنهم يصلون أمام الصليب وتماثيل العذراء .

وجاء (تايلور Taylor) فنحت اصطلاحاً جديداً كان له رواج واسع وقد استحسنه واستعمله (ديلافوس Delafosse) والاصطلاح هو (عبادة الحياة) Animisme وتقدم (ماكس مولر Muller) بكلمة (عبادة الطبيعة) Naturalisme و (بارندر Parrinder) بكلمة (تعدد الآلهة) Polythéisme وقامت بين الباحثين في الديانات مساجلات لمعرفة هل توجد في أفريقيا عبادة الأسلاف من غير البشر ، المسماه بالطوطمية Totémisme أو عبادة أرواح الموتى Manisme : ومنهم من اقترح كلمة تلقائية dynamisme أو حيوية Vitalisme :

ولكل من هذه المصطلحات مدلول يتفق مع وجه واحد من أوجه العقائد الزنجية فكلمة animisme تدل على الاعتقاد بوجود نفوس أو بالاحرى أرواح خفية تسرى في الطبيعة بجميع أجزائها . . و (تعدد الآلهة) يدل على الاعتقاد بأكثر من إله واحد والطوطمية تدل على عبادة حيوان انحدر منه الأسلاف وتتجسد فيه وحدة القبيلة . و (المانزم) يدل على الاعتقاد ببقاء النفس بعد فناء الجسم . والحقيقة

التي لاشك فيها أنه توجد من جميع هذه العناصر في ديانات الزوج . ولكن ليس لأحدها الشمول والغلبة على غيرها بحيث يفرض نفسه على عامة معتقداتها . وأما التلقائية والحيوية فنظريات لها تطبيقاتها الفلسفية خارجا عن نطاق الديانة . وحيث أنه من غير المستطاع أن نرد تلك الديانات إلى أصل واحد يشملها ، فقد رأينا من الأنسب أن نطلق لفظه جاهلية Paganisme وهي كلمة أطلقت في الماضي على الديانات القديمة المحلية في أوروبا ، تمييزاً لها عن الدينين العالميين الجديدين ، وهما الاسلام والمسيحية . ونعتقد أن هذه الكلمة أصلح المصطلحات وأدقها فانها فضلاً عما توحى به من المشابه للديانات الأوروبية القديمة تذكرنا في الوقت نفسه بأنها ظهرت قبل كل شيء في مجتمعات قروية غير متحضرة (Pegus = Pays. Païen = Paysans)

ولا ينبغي أن يتطرق إلى الذهب أن هذه التسمية فيها احتقار أو زراية ، بل على العكس إذ أن الديانات القديمة هي التي شيدت تلك المدنات العظيمة ، كالمدينة المصرية والمدينة الرومانية والمدينة الاغريقية ، التي تولدت عنها إلى حد كبير ثقافتنا الغربية .

مقارنات :

أن ديانة الاغريق القدماء ، وخاصة في العصر العتيق ، تشبه من وجوه كثيرة ديانة الزوج ؟ إذ نجد عند سكان جزر بحر إيجه هذه الرموز الدينية نفسها : الشجرة والعمود والقرون والأفعى والكائن الخرافي الذي هو نصف آدمي ونصف حيوان . ولهذا الأخير صور

ما تزال نقوشها ظاهرة على اللوحات الأثرية في فرنسا وإسبانيا (الأرجح أنها كانت أقنعة تشبه أقنعة الزنوج) .

وكانت حضارة اليونان البدائية حضارة زراعية كذلك ، تقدر الزراعة ، وتقيم لها الأعياد الجماعية وحلقات الرقص وكانوا يقدسون الجبال والأشجار والأرض التي يخلعون عليها صفة الأمومة كما اعتقدوا بتجسد أرواح الموتى في شخصية الجماعة ، وبأن بعض الأشياء كاللبن والخبز والماء وهى قربانهم للآلهة ترتبط بها خصائص دينية . وكانت عندهم الضحايا من الحيوان وكذلك من البشر . كما نجد عندهم الصلة بين الأفعى وبين تقديس الموتى . وشمل اعتقادهم خرافات الحيوان الآدمي ، وقدسوا الحيوان الراقص (الدب فى أثينا ، والكركى فى ديلوس) وكان من سنتهم طلاء أجسامهم باللون الأبيض وتثقيف الأطفال وتلقينهم أسرار المراهقة ، واستعمال الأقنعة وانتشار الجمعيات السرية الدينية ، وتقديس الحداد ، والاهتمام بالتوائم ، والاعتقاد بالأحلام وبالخط ، وإقامة الأعياد الجماعية الموسمية ، والاعتقاد فى الآلهة العليا البعيدة عن المخلوقات ، والى تكاد تنحصر مهمتها فى حماية الوجود ، دون أن يكون لها دخل فى الحوادث . وهناك أيضاً طراً تحول على عقائد اليونان باتساع أفقها السياسى . فبعد أن كانوا يعتقدون فى تلك القوى الخفية التى تحمى المجتمع المحدود ، واتجهوا إلى تقديس العظام فى شخص أبطالهم الذين أسسوا حضارة المجتمع الأغر يق . ومع هذا فقد بقى فى اليونان القديمة من تلك الديانات المحلية آثار تدل على تقديسهم لمواطن خاصة

ومحارب معينة كانوا يزودون قواها بدماء الذبائح، كما بقيت عندهم عادة الكفارات للآلهة الذين تحت الأرض، والاهتمام بالعديدين ٩،٧ وبالرموز والتماثيل، وكذلك بقيت الآلهة والجنان التي تعمر أرجاء الطبيعة حولهم بلا حصر ولا عدد.

وأما الرومان (اللاتين) فكانت ديانتهم قريبة جد القرب من الديانة الأغريقية، بحيث يصعب التفرقة بينهما. فالدور الذي لعبته فكرة الأسلاف، وتقاليد المجتمع القديم، ومحراب الأسرة، واعتبار الأب كاهناً للأسرة، والقاضى الكاهن، كانت كلها مظاهر لديانة اجتماعية اشتراكية، غير أن فتوحات روما وتوسعاتها حطمت ذلك التماسك الاجتماعي القديم، فتحرر الأفراد واعتنقوا ديانات أجنبية، وانتشر بينهم السحر والشعوذة، وتأسست الفرق الدينية التي لا تربط أعضاؤها روابط عنصرية. وهكذا بدأ السير نحو ديانة عالمية.

فاذا قارنا الديانات الزنيجية بديانة قدماء المصريين وجدنا أوجه الشبه بينهما أوفى وأوفر. فتاج فرعون كان على شكل حلزونى تحيط به أفعى. وفرعون نفسه كان يعد مصدر الحياة والقوة والخصب للأجيال، وخاصة فى النواحي الزراعية. ونجم الشعرى اليمانية قدسه المصريون، وكان هو أساس التقويم المصرى القديم. وكان يرمز لفرعون بصورة صقر كما اتخذت بعض الجهات فى مصر القيل والحدأة والشمس شعاراً لها. وأما (كا) Ka وهى الروح الشائعة التى يستمد منها كل كائن حياته وقوته فتبلغ أقصى اكتمالها وتماها فى شخص فرعون نفسه. وكان (أوزيريس) إله الماء والنيل والزراعة. وشرع المصريون قوانين صارمة

لحماية المجتمع كانت المحظورات فيها لا تحصى ، وكانت مخالفتها تعتبر جرماً ضد نظام الكون ..

ونحن نستطيع هنا أن نستكثر من هذه المقارنات وأوجه الشبه بين ديانات الزوج وبين الديانات القديمة في القارات الأخرى ، وبينها وبين الخرافات السائدة إلى اليوم في القارة الأوربية ، بل بينها وبين الأديان العالمية مثل المذهب الكاثوليكي ، إذ نجد فيه عقيدة الإله الخالق لكل شيء ، والايان بالأرواح ، والخطيئة الأولى للإنسان ، وقداس القرايين وشعائر (سر المناولة) وهذه أشبه ما تكون بشعائر التنقيف والختان عند قبائل الزوج الوثنية .

وقد يخطر لسائل أن يسأل : إلا أن يكون أصل ذلك التشابه من جراء تفاعل وأثر متبادل من الجانبين ؟ .. والجواب أنه ما من شك في ذلك ، إذ أن القارة الأفريقية ليست من المنعة بحيث لا يمكن النفاذ إليها كما كان يعتقد البعض . فلا شك أن مصر كانت على اتصال دائم بسائر أجزاء القارة ، عن طريق مجرى نهر النيل وعن طريق الصحارى التى كانت أكثر رطوبة وأقل جفافاً في الماضي البعيد مما هي عليه الآن . وما من شك في أن القوافل قد نقلت إلى بلاد الزوج بعد ذلك إصداء من معتقدات الإغريق عن خلق الكون . ولم يكن تأثير الإسلام في شمال القارة بأقل من تأثير المسيحية فيها من جنوب الساحل الغربي . وأغلب الظن أن ما نقله (بيرندا Birinda) عن الاعتقاد بالالهة البيضاء وشجرة الحياة في الممالك الزنجية بالقسم الأدنى للكسغو لم يكن إلا أصداء وصلتها عن السيدة العذراء وسفر التكوين ، عن طريق المبشرين

البرتغاليين في القرن السادس عشر . وأما عبادة الأفعى التي يرمعون في الساحل الشرقى أن روح الجدد الأعلى تقمصتها وأنها خرجت منه لما تحلل جسده فقد يجوز أنها من أصل في الملايو أو مدغشقر .

ورغم كل ما قدمناه فلن نستطيع أن نجزم برأى قاطع في تحديد تلك المؤثرات الخارجية ، ومدى اقتباس الديانات الزنجية منها ، ونستطيع أن نقول في ضوء علومنا الحالية أنها اقتباسات جد سطحية ، وأنها لن تغير شيئاً من الحقيقة الواقعة ، وهى عمق الروح الدينية وتمكنها من النفس الزنجية ، ولن تجرد هذه الديانات من خصوبة خيالها وثروة أساطيرها الشيقة ...

وإنما كان هنأ في تلك المقارنات أن نثبت أننا نجد في نواح أخرى غير أفريقيا أوضاعاً دينية تشبه في تكوينها الديانات الزنجية ، وأن الزوج لم ينفردوا بعقائد تشذ عن عقائد الآخرين ، وليسوا استثناء من القاعدة العامة . وأن الانسانية في مراحل تطورها الفكرى تؤلف وحدة متجانسة وأنها أشد وحدة وتجانساً مما كان يظن فيها .

تطور المعتقدات الزنجية في الوقت الحاضر :

أن ديانات تقسم بهذا الطابع الجماعى وهذا السلطان المطلق في بيئة جغرافيا ضيقة الحدود ما كان لها أن تنشأ إلا في جماعة قليلة العدد شديدة

التماسك، في ظروف وأحوال سادتها الفوضى وانعدام فيها الأمن، وشقت فيها حرية التنقل لو عورة المواصلات ومخاوف الطريق، فأنحصرت تلك الجماعة في رقعتها المحدودة، وخضعت لسلطات دينية أو سياسية قاسية. فتى طرأت على حياة القبيلة ظروف جديدة ضعفت فيها هذه الروابط الاجتماعية ووهنت سيطرة الدين وتطورت مظاهرة. لقد تغيرت الظروف فعلا، وحدث هذا التطور تحت وطأة الاستكشافات الحديثة في القارة الأفريقية، وتحت وطأة زحف المستعمرين إلى قلبها، فأحدث بها الانقلاب السريع الذي نشهده اليوم. نعم أنه أسرع في بعض الأصقاع منه في البعض الآخر إلا أنه يحتاجها كلها اجتياح السيل الجارف. هكذا أدى استتباب الأمن نتيجة للاستعمار إلى شل سلطة زعماء القبائل، ولم تعد هناك ضرورة للتماسك الاجتماعي في الدفاع عن كيان القبيلة، فتسع ذلك تضعف السلطة الدينية وسلطة الرؤساء الروحانيين وقدسيتها الملوك وأصبحت الأوقات التي كانت مخصصة للاحتفالات الدينية تزاخمها وجوه أخرى من النشاط. فالיום يقصد الأطفال مدارسهم، ويستغلون ليكسبوا رزقهم ويسددوا الضرائب المطلوبة منهم ويقتنوا حاجياتهم من السلع والمصنوعات، فاختصرت الحفلات أو عطلت. وأصبح العلم بأسرار الرموز والأساطير في المرتبة الأخيرة من مشاغلهم، ولم يبق للاعياد الدينية ذلك الاغراء وتلك الجاذبية للشباب، بل أصبحوا لا يجدون حرجاً في أتيان المحرمت التي كانت محظورة عليهم.

وكان الفرد في الماضي مرتبطاً بموطن القبيلة ارتباطاً تاماً . أما اليوم فقد اضطرت له الأحوال الاقتصادية الحديثة أن يفارق بيئته طلباً للعمل والتكسب بعيداً عنها ، فوهنت الصلة بينه وبينها وبين آلهيها وأسلافها . فإذا رجع إليها عاد وفي جعبته مال يفوق بشكل بارز للعيان كل ما كان يملكه أجداده . وبذلك استطاع الفرد أن يتحرر من ربة الجماعة وتحكمها في كيانه ، وهجر كثير منهم مواطن آبائه وأقام في المدن تخلصاً من هيمنة المجتمع . وحتى أولئك الذين يعودون إلى حضيرة القبيلة فإنهم لا يشتركون في أعيادها الدينية وعقائدها بكل قلوبهم ولا بكامل خضوعهم ؛ ذلك لأنهم عادوا يحملون عقلية جديدة وأسلوباً آخر للحياة . .

وثمة عامل آخر كان له أبلغ الأثر في حياتهم الفكرية ذلك هو التعليم الحديث الذي أمدهم بمعارف وحقائق حديثة تناقض ما تلقنوه عن آبائهم وأجدادهم ، ووجدوا في العلم الحديث طلبتهم في الوقوف على سر الكون الذي لم يعرفوا له تفسيراً مادياً غير الأساطير والافاصيص التي توارثوها عن أسلافهم . .

تحت تأثير تلك العوامل كلها تخلص الفرد من تحكم الأسرة والمجتمع في كيانه غير أنه خسر من ناحية أخرى ؛ إذ باء بالحُرمان من ذلك الأمن والاطمئنان الذي كانت تبعته في نفسه علاقته بالجماعة ونظرته إلى البيئة الطبيعية . ومن هنا نشأ الشعور بين الناس بالحاجة إلى إعادة بناء الهيئة الاجتماعية وبالحاجة إلى معتقدات جديدة تتمشى مع التطورات الحديثة ؛ فقد عجزت الديانات الموروثة أن تضطلع بعبء هذا التجديد وسد تلك

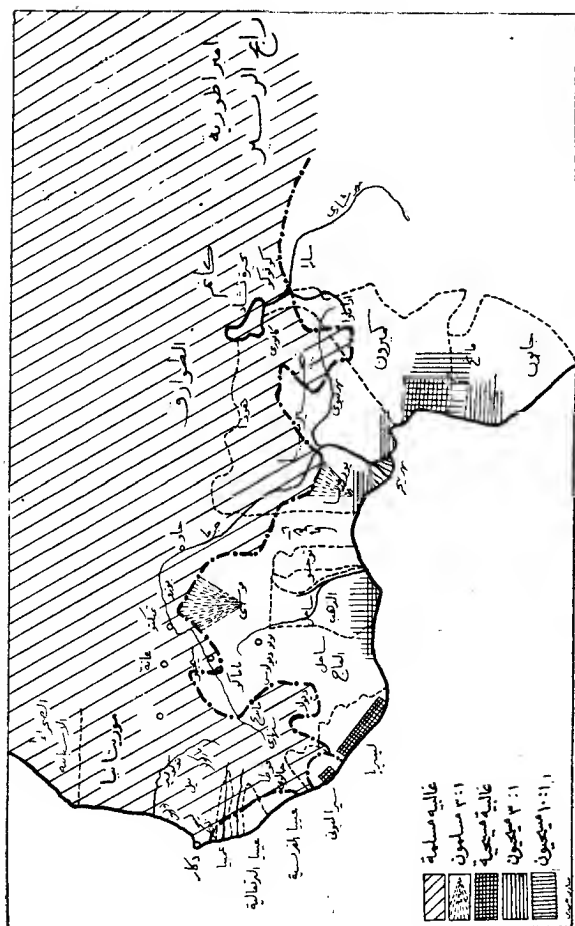
الحاجة ، لأنها لا تقوم على أسس ثابتة واضحة أو كهنوت منظم ، ولأن المراتب العليا من علومها ظلت أسراراً غريبة متقلبة ومعقدة تعقيداً شديداً . فلم تستطع البقاء على حالها ، إلا في أكثر المناطق البعيدة عن العمران والتي يعيش أهلها منطوين على أنفسهم ، ولا سيما القبائل الأصلية في الزنجية .

وأما في المناطق القريبة من المدن أو من المواصلات ، وحيث يوجد المنجم أو المزارع الشاسعة التي تصدر محاصيلها ، وفي المناطق المتفرقة السكان التي ينتزع سكانها من مواطنهم تلبية للحاجة إلى اليد العاملة ، ففي هذه الأرجاء يسير التفكك الاجتماعي والديني سيراً حثيثاً . ومن هنا نبت الشعور بين هؤلاء الزوج المتحررين بالحاجة إلى أجوبة جديدة تهدى اضطرابهم الروحي وتشبع فطرته الدينية .

ولقد استطاعت الديانات الموروثة في بعض الأحيان أن تجد هذه الأجوبة بعد شيء من التعديل كلما استطاعت إلى ذلك سبيلاً . هكذا نجد في ساحل غينيا مجتمعاً يؤمن بالآلهة الصغرى مكوناً من عناصر متباينة ، فيهم المختونون المتطوعون ، وفيهم الرهبان والكهنة ، وأعضاء الجمعيات الدينية . وهو مجتمع أقرب شهاً بالجماعات الأوربية منه بالجماعات القديمة ذات العقائد المتحكمة والمؤسسة على مبدأ القرابة . وكان انتشار السحر وحلقات الزار وظهور آلهة جديدة وطوائف دينية مستحدثة (كما سنرى) مما أشبع هذه الرغبات الجديدة .

غير أن الذي استفاد استفادة حقيقية من هذا التفكك المستمر للديانات القديمة ، ومن هذا التحرر المفاجئ ، للأفراد الذين فقدوا إيمانهم

بدين آباؤهم مع احتفاظهم بفطرتهم المتدنية ، هما الدينان العالميان الطارئان
والقائمان على الوحي السماوي : أعنى الإسلام والمسيحية . هذه الحالة
التي تمر بها زنوج أفريقيا اليوم شديدة الشبه بحالة الديانة الإغريقية
الرومانية في فترة اضمحلالها عند ما اجتاحتها الديانات الكبرى الشرقية .
وأفريقيا اليوم تجتاز هذه الفترة العصبية من الاضطراب الروحي التي
تؤذن بانبثاق فجر جديد ..



القسم الثانى الدينان الجديدان

الفصل الاول

الإسلام

(١) انتشار الدين الإسلامى :

الإسلام فى غرب إفريقيا الفرنسى : عاشت الأديان الزنجرية الوثنية بمنأى عن العالم الخارجى ، يحمىها البحر والصحراء . ولكن الصحراء لم تكن من المنعة بحيث لا يمكن النفاذ إليها ، فطرق القوافل تخرق أرجاءها . وحدودها الغربية البحرية أشبه ما تكون بحجر يربط بين مراکش وبلاد السنغال ، تغطيه المراعى الصالحة لرعى الماشية وحياة البدو . .

وقد ارتاد تلك المراعى فى القرن الحادى عشر قبائل (لمتونة) من البربر . ومن المحتمل أن تكون قد فرت أمام غزو العرب^(١) . ثم نزل

(١) وهم قبائل بنى هلال التى أرسلها الخليفة الفاطمى لإخضاع إفريقيا النائرة عليه . .

بينهم شيخ صالح هو « ابن يس » وأقام في جزيرة صغيرة قريبة من ساحل السنغال ، حيث أسس له رباطاً (زاوية) وعرف أتباعه باسم « المرابطين » وقد اعتنقت قبائل لمتونة الإسلام على يديه ، وعاهدوه على الجهاد في سبيل الإسلام ، فاتجه بطن منها فغزا مراکش (وأسسوا بها دولة المرابطين) ، واتجه آخرون إلى غزو البلاد المجاورة وهي مملكة (غانة) الزنجية الوثنية (بين سنغال والنيجر) فاستولوا عليها في ١٠٧٦ م واعتنق السكان وهم قبائل (سارا كولا) الدين الإسلامي . ولم تقف دعوة المرابطين عند هذا الحد ، بل تخطته إلى قبائل أخرى ، فقد حدث أن اعتنق أمير قبائل الماندانج الدين الإسلامي ، فراراً من ثورة شعبه عليه عند ما فشل في إنزال المطر بأرضه . وأسس أحد خلفائه (سوندياتا كيتا) Son-diata Keita في القرن الثالث عشر إمبراطورية (مالي) Mali التي امتدت إلى أعلى النيجر ، فأصبحت مملكة غانة خاضعة له . وخلف سوندياتا هذا (مانسا وله) Mansa Oulé ويلقب بالملك الأحمر ، وقد أدى مناسك الحج في مكة . والواقع أن بلاد السودان تمتد في قلب أفريقيا ، دون أن تعترضها حواجز طبيعية . وبها من النبات والسكان ما يسهل للمسافر المزود بالمؤونة والهدايا والاعوان اجتيازها في غير عناء . وقد كانت هذه الإمكانيات في حوزة ملوك الماندانج ، إذ كانت عندهم مناجم التبر التي استغلوها في بامبوك Bambok حتى أن أحدهم وهو (جونجو موسى Gongo Moussa) لما خرج ليؤدى فريضة الحج في القرن الرابع عشر بطريق ساحل البحر الأبيض المتوسط ، أظهر من أبهة الملك والبذخ ما بهر أعين العرب في تلك الأنحاء .

وكانت صلاته بمراكش ومصر وثيقة ، وقصد بلاطه جماعة من العلماء والأدباء . وفي هذا العهد خضعت مملكة (السونرهاى) التى أسسها زعماء قبائل (لمتونة) فى حوض نهر النيجر الأوسط (جاو وتمبكتو) لسلطة إمبراطورية (مالى) . ثم استرد ملوك السونرهاى استقلالهم فى القرن الرابع عشر . وفى أوائل القرن السادس عشر الميلادى أدى أحد ملوكهم (مامادو توريه) Mamadou Touré (أى محمد توريه) فريضة الحج فى مكب حافل ضخيم ، وقابل وهو فى طريقه إلى مكة خليفة المسلمين إذ ذاك . ولما عاد من الحج أعاد تنظيم مملكة على أساس ما رآه من النظم الإسلامية فى الممالك الشرقية التى مر بها ، وضم إلى مجلسه العلماء والأدباء . ومنذ ذلك العهد بدأت تشتهر مدينة تمبكتو . ومد ملوك (السونرهاى) فتوحاتهم على طول نهر النيجر حتى (داهومى الشمالية) ولكنهم اصطدموا فى الجنوب بمقاومة قبائل (الموسى) ولم يفلحوا فى نشر الدعوة الإسلامية بينهم . ومن جهة أخرى استطاعت قبائل بامبارا الوثنية فى منطقة النيجر الوسطى أن تلتصق إمبراطورية (مالى) وتتخطف أطرافها . وفى عام ١٥٩١ أرسل سلطان مراكش فرقة من المرتزقة اخترقت الصحراء مزودة بالأسلحة النارية التى استعملت لأول مرة فى تلك الأرجاء ، فاستولت على مملكة (السونرهاى) وخربتها وقضت عليها ، وحكمت جاو وتمبكتو باسم السلطان ، وأشاعت فيها الفوضى ، وأرهقت أهلها بالضرائب وهكذا اضمحلت أعظم سلطة سياسية إسلامية فى تلك الأنحاء ، إذ استردت منها الوثنية بعض أراضيها ، فاتحاز الإسلام بذلك إلى حدود الصحراء . ورغم ذلك فقد ظلت بعض القبائل على الإسلام ، مثل قبائل

(سارا كولا) و (السورهای) وبعض قبائل (الماندانج) كما ظلت قبائل (توكولير) في حوض نهر السنغال على إسلامها منذ أن اعتنقته على يد المرابطين . وقد حدث أن خضعت قبائل توكولير هذه زمناً ما لسلطان قبائل (البيل) الوثنية ، إلا أنها تحررت منها في القرن الثامن عشر الميلادي ، واتخذوا لمجتمعهم نظاماً إقطاعياً دينياً ونصبوا عليهم إماماً يخضعون له ، وأصبح موطن قبائل (التوكولير) وهو يعرف باسم (فوطاتورو Fouta toro) مركزاً من أكبر مراكز الدعوة الإسلامية والتحمس لها في غرب إفريقيا ، بفضل اتصال تلك القبائل بطريقتي القادرية والتيجانية ، اللتين وصلتا إليهم من شمال إفريقيا . واستطاعت قبائل (النوكولير) هذه أن تجعل قبائل (الأولوف) القاطنة في غربها على اعتناق الإسلام . كما اعتنق جيرانهم قبائل (البيل) الدين الإسلامي وأسسوا اتحاداً دينياً في الهضبة المعروفة باسم (فوطا جالون) في غينيا ، وجعلوه مركزاً لنشر الدعوة الإسلامية بين القبائل الوثنية المجاورة . وقبائل (البيل) من القبائل الرحل التي تعنى بتربية الماشية ، وقد اتخذت مدينة (ماسينا) على نهر النيجر الأوسط موطناً لها ، حتى أصبحت لها كثرة عددية فيها وفي نيجيريا الشمالية . وكانوا خاضعين وقتاً ما لملوك القبائل الوثنية من «البامبارا» و «الهوزا» إلا أن دعاة المرابطين من أهالي «توكولير» حرضوهم على الثورة ضد هؤلاء في القرن الثامن عشر ، وانتهت ثورة «البيل» إلى خلع سيادة «البامبارا» وإلى تأسيس ملك مستقل لهم بمدينة «ماسينا» وأما في قبائل «الهوزا» فقد قام المرابط «عثمان دان فوديو Dan Fodio

بالدعوة بينهم، فدخلوا في الإسلام أفواجا، فأثار ذلك ملوكهم الذين دأبوا على اضطهاد المسلمين. فما كان من عثمان الداعية إلا أن دعا إلى الجهاد فاجتمع له جيش كثيف من الفلاحين والرعاة من قبائل «هوزا» و«البيل» الحاربين من إرهاب الحكام الاقطاعيين وفي عام ١٨٠٤ أعلن الجهاد بالفعل، وهزم جيوش الوثنيين وأسس إمبراطورية عظيمة في شمال نيجيريا، واتخذ له عاصمتين هما «سوكوتو» و«كانو» وأعلن نفسه أميراً للثومنين. وقد انقسمت إمبراطوريته بعد وفاته. إلا أن قبائل «الهوسا» اعتنقت الإسلام وأصبحت حصناً من أقوى حصونه انتشرت منه الدعوة إلى أواسط نيجيريا وشمال بلاد كامرون :

وفي عام ١٨٦٠ قام الحاج (عمر تال Tal) وهو داعية من المرابطين من قبيلة (توكولير) وموطنه السنغال الأدنى، بعد أن قضى زماناً مجاوراً بملكة، فأسس في بلاد (فوطا جالون) شعبة قوية للطريقة التيجانية. ثم أعلن الجهاد على قبائل (البامبارا) الوثنية، وهزمهم واحتل عاصمتهم (نيورو)، ثم اتجه بعد ذلك لضم بلاد السنغال، إلا أنه اصطدم بجيوش المستعمرين الفرنسيين تحت قيادة الجنرال (فيدرب Faiderbe) فحول اتجاهه إلى ملكة (البيل) المسلبة وأخضعها بعد أن قتل ملكها. ومنذئذ نشب الشقاق والتناحر بين أتباع طريقتي القادرية (وهم البيل) والتيجانية (وهم أتباع الحاج عمر)، ولكن (البيل) لم يصبروا على تحكم الحاج عمر فيهم، فغاصروه وألجأوه إلى مغارة، وأطلقوا عليها الدخان، فأت فيها محتقناً. ثم خلفه ابنه امادوا

(أحمد) وظل ملكاً في عاصمته (سبجو) حتى قبضت عليه الجيوش الفرنسية المستعمرة ..

وظهر في حوض نهر النيجر الأعلى داعية آخر يسمى (سامورى طوره Samory Toré) من قبائل (ساراكولا) أو (الماندانج)، ولم يكن إلا زعيماً لعصابة قليلة، وليس له حظ كبير من العلم بالدين الإسلامى، إلا أنه وراه ستار الدين دأب على مهاجمة السكان الوثنيين ونهبهم وبيع الرقيق. ولما شعر بقوة الجيوش الفرنسية نقل مركز قيادته من النيجر الأعلى إلى أعلى غينيا، ثم إلى أعلى ساحل العاج حتى نهر فولتا، وأخيراً أسره الفرنسيون في إحدى المعارك في عام ١٨٩٨. وكان من أثر حروبه القضاء على كثير من السكان الوثنيين، وتمهيد الطريق أمام انتشار الإسلام في تلك الربوع.

وسائل انتشار الدعوة: لم يكن انتشار الدعوة الإسلامية كإرأينا مستمراً ومتواصلاً في أفريقيا الغربية، إذ أنه اصطدم بمقاومة عنيفة من بعض السكان الوثنيين، مثل (البامبارا) و (الموسى) وانحاز الإسلام إلى المناطق الجافة من السودان؛ إذ وقفت أمامه قسوة الجو المشبع بالرطوبة على الساحل، وكثرة الغابات المتنفة التي لا مسالك فيها، والمستنقعات المنتشرة في تلك الأرجاء، وكثرة الجماعات الوثنية وتنوع عقائدها، وعداؤها لكل أجنبي عنها. وكذلك قوة الممالك الوثنية ذات الكثرة العددية في شرق الساحل، حيث الملوك هم الرؤساء الدينيون، وهم الذين بيدهم إنزال الغيث والإتيان بالحوارق. كل هذه العوامل

حالت دون تغلغل دعاة المرابطين ، كما حالت دون زحف الجيوش الإسلامية .

ولهذا استطاعت بعض القبائل الكبرى أن تحتفظ بمعتقداتها القديمة ، إما بفضل قوة نظامها الاجتماعي الديني (كما في البامبارا والدوجون) أو بفضل متانة نظامها السياسي مثل قبائل (الموسى) ، أو بفضل وعورة موقعها الجغرافي في الأرجاء النائية أو الجبلية مثل قبائل (لوبي) وقبائل (باوتشي) في شمال حوض نهر (بنوى Benoué) أحد فروع نهر النيجر ، أو بفضل شكل حكمها اللامركزي ذي النزعة الاستقلالية ، حيث لا يخضع الفرد فيه لرئيس . وهو نظام لا يستسيغ أفراداه التقيد بوضع جديد مثل قبائل (بوبو) .

وقد لجأت الجيوش الإسلامية في فتوحاتها إلى تخيير الوثنيين بين خصال ثلاث : الإسلام أو الجزية أو الحرب . ومهما يكن من أمر فإن انتشار دعوة الإسلام في غالب الظروف لم تقم على القسر ، وإنما قامت على الإقناع الذي كان يقوم به دعاة متفرقون من المرابطين ، لا يملكون حولا ولا طولا إلا لإيمانهم العميق بدينهم . وكثيراً ما انتشر الإسلام بالتسرب السلمي البطيء من قوم إلى قوم ، فكان إذا ما اعتنقته الأرستقراطية وهي هدف الدعاة الأول تبعتها بقية القبيلة ، وقد يحدث أن تستفيد الدعوة من الظروف كأن يخلو مكان الرئيس الديني في عشيرة وثنية ، فيتقوض بنيناها الاجتماعي ، ويستجيب أفرادها للدعوة الإسلامية . وقد يسر انتشار الإسلام أمر آخر ، هو أنه دين فطرة بطبيعته سهل المتناول لا لبس ولا تعقيد في مبادئه ، وسهل التكيف

والطببق على مختلف الظروف ، وأن وسائل الانسحاب إليه أيسر وأيسر ، إذ لا يتطلب من الشخص لاعلان إسلامه سوى النطق بالشهادتين حتى يصبح في عداد المسلمين . ولم يفرض الاسلام على الزوج أن يغيروا من نظام معيشتهم أو تفكيرهم الدينى . وسنوضح للقارى أن كثيراً من القبائل الزنجية التى اعتنقت الاسلام احتفظت إلى جانبه بآثار كثيرة من عقائدها وعاداتها . هذا إلى أن عقيدة التوحيد التى جاء بها الاسلام لم تكن غريبة عليهم ، بل كانت تتمشى مع عقيدتهم القديمة فى الاعتقاد بوجود إله خالق . وقد حُبب الاسلام إليهم مظاهره البعيدة عن التكلف ، مثل الثوب الفضفاض ، والمسبحة ، والكتابة العربية ، والوقار الدينى ، وشعائر الصلاة ، مما يضفى على المسلم مكانة مرموقة ، وجاذبية ساحرة . فالذى يدخل فى الاسلام ولو فى الظاهر يشعر بأنه أصبح ذا شخصية محترمة ، وأنه قد ازداد من القوة الحيوية .

ولما كان الزنجى جماعياً بنشأته ، ومعتزاً بانتسابه إلى جمعياته الدينية القديمة ، فقد وجد فى جماعة المسلمين وأخوتهم خير بديل عنها ، وخاصة فى الأيام الأولى للدعوة ، عند ما كان المسلمون قلة . ثم حلت عنده جماعات الطرق الصوفية وأتباعها الكثيرة محل الجمعيات الوثنية الماضية ، فى صورة أوسع وأعظم . وقد يحدث أن تجد الوثنية نفسها أقلية ، وسط أكثرية مسلمة ، فتمتنق الاسلام طوعاً تحت تأثير شعورها بهذا النقص ، ولو أن بعضهم كان يسخر من صلاة المسلمين ويتخذ ركوعهم وسجودهم هزواً .

وبالرغم من أن الاستعمار الاوروبى أوقف زحف الجيوش

الإسلامية فانه مهد للإسلام سرعة الانتشار السلى، بما أنشأه من الطرق الممهدة الآمنة، التي مكنت للرايطين ودعاة الطرق الدينية والاشراف والتجار المسلمين من (الديولا) أو (الهوزا) أن يتجولوا بحرية حاملين مع سلعهم بذور الدعوة الاسلامية . وهكذا كانت التجارة وسيلة من وسائل إدخال الناس في الاسلام، كما أن بعضهم اتخذ اسم الدين وسيلة للتكسب . وقد مهدت لانتشار الاسلام عدة عوامل أخرى، منها هجرة العمال من قبائلهم انتجاعا للرزق خارج القرية — وكذلك انتشار النقد في التجارة بدلا من المقايضة ، وغزو العادات والأفكار الجديدة لكل ما كان قديماً، وتناقص روح الاحترام للاباء والاجداد التي جرت بها عاداتهم، ولم يقف في طريق انتشار الاسلام أفراد، لأن هؤلاء رحبوا به إذ أشبع فيهم الروح الجماعية التقليدية وإنما وقفت أمامه الجماعات المتناسكة، وخاصة القبائل الزراعية .

ولما جاء المستعمرون إلى تلك الأقطار تضاربت سياستهم إزاء الإسلام، فترى مثلاً الجنرال (فيدرب) رغماً من أنه قاتل المسلمين في الجزائر وتغلب على جيوش الداعية (الحاج عمر) قد اتبع سياسة التفاهم والتقرب إلى زعماء المسلمين، واستغلهم لمصلحة الاستعمار الفرنسى وأما القائدان أرشينار Archinard ومانجان Magnin فاصطبغت حروبهما مع (أمادو) ابن الحاج بالروج الصليبية المتعصبة . غير أن السياسة الغالبة على الحكومة المركزية وإدارة المستعمرات رسمت على أساس التفاهم مع زعماء المسلمين، لما كانوا يتمتعون به من الإحترام والنفوذ بين الناس ولو ظاهراً . هذا إلى تقدير المستعمر للدين الاسلامى ، لوضوح

أركانه ، وسهولة إدراكه ، ومثانة مبادئه ، بينما لم ير في الوثنية إلا عقائد غامضة ، معقدة متباينة ، تعتمد على قوى خفية عنيفة تنزل الرعب في القلوب . وكان هذا المسلك الحكومي تشجيعاً أفاد منه الاسلام . فانتشر في يسر وتودة . ومع هذا فقد لقيت تلك السياسة بعض المعارضة ، فقام أحد حكام المستعمرات وهو (بريفيه Breivié) ونادى في كتابه (الاسلام ضد الوثنية في السودان الفرنسى ١٩٢٣) بأنه من صالح فرنسا استغلال زعماء القبائل الوثنية في تلك الأجزاء ، لأن الاعتماد على الجماعات الاسلامية ينطوى على خطر أكيد على المستعمر . وكان من أثر الدراسات في أصل الأجناس البشرية التي قام بها (دلافوس) وآخرون من بعده أن بدأ الأوروبيون يتفهمون الديانات الوثنية ويقدرونها ، حتى أن العالم (جريول) وقف موقف المدافع عنها . إلا أن هذه السياسة لم تؤثر في سرعة انتشار الاسلام ، بل أن بعض الأقوام الذين كانوا يكافونه كفاحاً عنيفاً منذ أكثر من خمسة قرون ، مثل قبائل (بامبارا) و (موسى) دخل الإسلام بين ظهرانيهم ، ولم يقف بعد ذلك في سبيله موانع طبيعية ، كالغابات الكثيفة المغلفة المسالك والمدن الساحلية ذات الجو المشبع بالرطوبة ، بل كلها فتحت له مسالكها وأبوابها ، وأصبح فيها من المسلمين جاليات ضخمة .

الاسلام في شرق السودان :

بدأ الإسلام في مملكة « كانم Kanem » الوثنية في الشمال الشرقى لبحيرة شاد ، إذ اعتنق الإسلام أحد ملوكها في القرن الحادى عشر .

ولعل الصلات التجارية وطرق القوافل الممتدة بين بحيرة تشاد وبين طرابلس عن طريق فزان كانت عاملاً هاماً في اعتناقه الإسلام . ولما طرده رعاياه في القرن الرابع عشر لجأ إلى الجنوب الغربي للبحيرة في منطقة (بورنو) التي صارت فيما بعد مركزاً للمملكة الإسلامية عظيمة ، وفي القرن السابع عشر أصبح الإسلام هو الدين الرسمي للمملكة (باجرمي) في شرق حوض نهر «شاري» الأدنى ..

ولا يفوتنا أن نذكر أن وادي النيل كان من أهم المراكز التي زحفت منها الدعوة الإسلامية ، فقد كانت مصر من أسبق الأقطار لاعتناق الإسلام ، إلا أن زحف الإسلام منها إلى الجنوب تعطل زمناً عند حدود السودان ، بسبب مملكة « دنقلة » المسيحية التي حالت دون توغله في أول الأمر حتى عام ١٣٥٠ م حيث فتحت تلك المملكة ، وأسست فيها أسرة ملكية إسلامية ، باسم مملكة « الفونج » ، التي كانت من قبل مملكة وثنية زنجية . وفي غرب هذه المنطقة وشرق بحيرة تشاد تأسست في القرن السادس عشر ممالك إسلامية في « واداي » و « دارفور » و « كردفان » وتسربت قبائل عربية مثل قبيلة « شوا » ، وغيرها إلى تلك المناطق حتى بحيرة تشاد . فلم تكتف قبائل تلك الممالك بدخولها في الإسلام ، بل طبعت بطابع عربي ، بسبب انتشار اللغة العربية في تلك الأقطار .

وفي ١٨٢١ غزا « محمد علي » السودان وأنس مدينة الخرطوم ، وتوغل خلفاؤه حتى بحيرة « البرت » ، وشجعوا إرسال بعثات دينية إلى تلك الأرجاء ، فالتقت هذه البعثات عند بحيرة تشاد بمجموعات من المسلمين

من ليبيا، منهم السنوسيون ، ومنهم عرب من قبيلة « ولد سليمان » ولما استقل المهدي بالسودان أرسل رسله لنشر الدعوة الإسلامية في البلاد الواقعة غربا .

وأما سكان الجنوب (في المناطق الجبلية لشمال الكامرون ، وفي حوض نهر شارى الأوسط ، وفي بحر الغزال وفي أعلى النيل) فقد ظلوا على وثنياتهم وقاوموا كل تدخل بالقوة ، ولم يحل ذلك دون وقوع قبائل أعلى النيل فريسة لتجار الرقيق ، الذين اتخذوا (دارفور) و(كردفان) مركزاً لإغاراتهم . وأشهر هؤلاء التجار (رابح الزبير) الذى مد غاراته إلى الغرب حتى بحيرة تشاد ، وأسس له ملكا ، واستنزف في تجارة الرقيق معين السكان من تلك المناطق ، وظل في تلك التجارة الخاسرة حتى دخلت جيوش فرنسا تلك المناطق وقضت عليه حوالى عام ١٩٠٠ .

أما في أثيوبيا (الحبشة) فإن الإسلام عند ما وفد إليها من الجزيرة العربية اصطدم بالهضبة الوسطى ، التى كان يسكنها المسيحيون من قديم الزمن ، فتحول الإسلام عنها إلى السهول والسواحل الصومالية ومنطقة هرر . على أن هؤلاء السكان وإن كانوا سودا هم من أصل حامى لا يدخل في موضوعنا . وأما السكان الزنوج الاصليون القاطنون على السفح الغربى للهضبة الوسطى وهى المنطقة الحارة الرطبة من أثيوبيا فقد ظلوا على وثنياتهم ووقعوا بدورهم فريسة سهلة لتجار الرقيق إلى زمن قريب . وأما الساحل الشرقى لأفريقيا ، المطل على المحيط الهندى فقد كان ينزل به الملاحون من العرب ومن الإيرانيين منذ القرن العاشر الميلادى

فتألف من هذا الخليط شعب يسمى بالسواحيليين ، يدينون بالإسلام ويتكلمون برطانة بين العربية والزنجية المسماة لغة (البانتو Bantou) ولم يحاولوا بعد احتلالهم الساحل أن يتوغلوا في القارة ، ولو أن تجارتهم كان لها رواج بداخلها ، ولم يكف المسلمون عن ممارسة التجارة في تلك الأرجاء حتى بعد استعمار البرتغاليين الذين استفادوا من هذه التجارة الإسلامية .

ولما اضمحلت الامبراطورية البرتغالية في القرن الثامن عشر ، غزا سلطان (مسقط) أغلب الساحل الشمالى لشرق أفريقيا ، ونقل حاضرتة إلى (زنجبار) التي كانت تتحكم في طريقين تجاريين عظيمين في داخل القارة لاستغلال الرقيق والعاج والنحاس . يمتد أحد هذين الطريقين في الداخل إلى بحيرة تانجنيكا ، ويصل إلى الكونغو . والثاني يمتد حتى بحيرة فيكتوريا . وما زال أثر الطريق الأول ظاهراً حتى بعد القضاء على تجارة الرقيق ؛ إذ ما تزال تسكن على طول جماعات متفرقة من المسلمين ورغم أن بعض الملوك والزعماء اعتنقوا الإسلام أو حاولوا ذلك ، فإن عامة قبائل (البانتو) وهم سكان الداخل ظلوا على وثنيهم أو دخلوا المسيحية في عهد متأخر .

(ب) المناطق الإسلامية في الوقت الحاضر

جماعات الطرق الدينية :

يرجع الفضل الأكبر في نشر الإسلام بين قبائل الزنوج في أفريقيا منذ القرن الثامن عشر إلى نشاط الدعاة من أرباب الطرق الصوفية

الإسلامية . وقد وجد فيه الزوج الطمأنينة بفضل نظامه الاجتماعي ، وما يتمتعون في ظله من يسر وأمن في أسفارهم للتجارة . كما أنه لم يحملهم من الشعائر الدينية إلا أداء الفرائض اليسيرة ، ثم أنهم وجدوا في شيخ الطريقة إماماً مزوداً بقوة علوية ، وفي حلقات الذكر تجلياً وتسامياً روحياً ؟ كما أنه أشبع نزعتهم الطائفية التي تبعث في نفوسهم في وقت واحد طمأنينة وحماية . غير أن التعصب لمذهب أو طريقة ما كان سبباً في مشاكل خطيرة ، تحولت حيناً ما إلى حروب طاحنة .

وأقدم تلك الطرق طريقة (القادرية) التي نشأت في العراق في القرن الحادى عشر الميلادى . أسسها أشهر الأولياء سيدى عبد القادر الجيلانى وهم يتعبدون على مذهب الامام مالك ، ولهم أدعية وحلقات ذكر جماعية (حضرة) ولهم المسبحة الكاملة (مائة حبة) ، ويستغرق تعبدهم ساعات كثيرة من اليوم . ويشتهر من أتباع هذه الطريقة في أفريقيا السوداء شعبة (القادرية كونتتا Kounta التي يتبعها في جنوب مراکش مشايخ (سعد بو) . وكذلك طريقة المريدين التي تكثر في السنغال فانها أيضاً شعبة من (القادرية كونتتا) .

أما الطريقة (التيجانية) فقد نشأت في شمال أفريقية في القرن الثامن عشر أسسها سيدى أحمد التيجانى المدفون بمدينة فاس . وتتميز هذه الطريقة بتزمتها وشدة مناوأتها للوثنية ومناهضتها للطرق الصوفية الأخرى . روى التيجانى أنه رأى الرسول عليه السلام في المنام ، وأنه أخذ تلك الطريقة عنه وقد فرض على أتباعه أن ينفردوا بصلاتهم عن بقية الجماعات الإسلامية . ولهم مسبحة خاصة بهم ، تتوسطها خرزة

تفصل الثنتى عشرة حبة الاولى منها عن بقيتها . وانتشرت هذه الطريقة
وهى طريقة الحاج عمر انتشاراً واسعاً فى أفريقيا السوداء . وذلك أنها
لا تتطلب من مريدها وقتاً طويلاً ولا مجهوداً فكرياً . وتفرعت عنها
فى السودان شعبة (الحماله) التى سنفصلها فيما بعد .

وبذلك يقف أصحاب هذا المذهب موقف المعارضة من الحكم وأولى
الامر ، من حيث المبدأ فقط ، دون ما التجاء إلى العنف .

وهناك طريقة أخرى وهى طريقة (الاحمدية) التى منشؤها الهند
وهى مذهب ملقب من الاسلام والمسيحية ، يدعو للتسامح وتحكيم العقل
وقد وصلت هذه الطريقة إلى أفريقيا عن طريق الساحل فى أعقاب
الاوربيين ، بخلاف الطرق الاخرى التى جاءت عن طريق الصحراء .
وليس لهذه الطريقة انتشار ملحوظ فى أفريقيا .

الدعوة فى أفريقيا الغربية :

كان الفضل فى نشر الدعوة الاسلامية فى أفريقيا الغربية للجهود
الموفقة التى بذلها دعاة الإسلام من المرابطين المغاربة ، وأغلبهم من
أتباع الطريقة القادرية ، وبعضهم من أتباع التيجانية . وقد اشتهر نفر
من المرابطين بالتضلع فى الشريعة والعلوم . وقد مهد لهم الاستعمار سبل
الانتقال فى تلك النواحي لنشر الدعوة ، كما فتح الطريق أمام الفقراء
الزهاد للتجوال فى طلب الصدقات ، وامتد نشاط هؤلاء جميعاً من
السنغال إلى غينيا والسودان حتى ساحل العاج ومستعمرة نيجر الفرنسية

وأن التكفف باسم الدين هو أكثر الحرف ازدهاراً بين سكان (موريتانيا) وهي بلاد فقيرة، ولو أن بها مناجم قد تغير حالها مستقبلاً ويدل الإحصاء على أن ٧٠٪ على الأقل من سكان السنغال مسلمون. ولا يوجد بها من الوثنيين إلا قبائل (سيريس) وسكان (كازامانس) الأدنى. ولما كانت قبائل (الأولوف) المسلمة تحيط بقبائل (السيريس)، فإن تسرب الإسلام إلى هؤلاء يزداد يوماً عن يوم. وأقدم القبائل الإسلامية في السنغال هي (التوكولير) وهي أكثر القبائل ترمناً، وأشدّها مراساً.

وأما قبائل (البيبل) و (الماندانج) و (الساراكولا) الذين يسكنون صحراء (فرلو) وشرقيها فهم مسلمون أكثر اعتدالاً. وأما قبائل (الأولوف) التي تسكن غربي الأقليم فهي أكبر القبائل عدداً، وأحدثها عهداً بالإسلام، وأعظمها تسامحاً، فترى أعضاء مجالسهم البلدية في (سان لويس) و (داكار) يشتركون دون حرج في حفلات المسيحيين وجنازهم وعيد القديسة (جان دارك) وغير ذلك مع أن كبار رجال الدين وأشهر المرابطين يسكنون هذا الأقليم نذكر منهم (بابكرسى) في (تفوان) وهو من التيجانية وكذلك عديله (نوروسيدوتل) وهو حفيد الحاج عمر تل، وهو رئيس المرابطين في داكار وحلقة الوصل بين المسلمين والاداره الفرنسية في تلك الجهات وفي (كاولاك) يقيم (إبراهيم نياس) وهو تيجاني ويمتد نفوذه الديني حتى شمال مستعمرة نيجيريا. بينما نجد في بلاد (باول) مركزين دينيين عظيمين في مدينتي (دجوربل) و (طوبة) يقبعان طريقة المريدين

أما في الجنوب فهناك كتلة من الشعوب الوثنية تمتد من غينيا الشرقية إلى ساحل العاج وأعلى نهر فلتا وساحل الذهب (وتوجو) و (داهومي) لم يستطع الإسلام النفاذ إلا إلى جزء صغير منها في الشمال ، ولا سيما الجزء الشمالي الغربي من ساحل العاج . مع أننا نجد التجار المسلمين من (الدولا) يذرعون تلك الأرجاء ، ويسكنون أحياء خاصة بهم في بعض المدن . وتدل البوادر على أن الإسلام أخذ في الانتشار بين قبائل موسى ولكنه يلقى هناك منافسة شديدة من المبشرين المسيحيين ، وخاصة في منطقة الساحل .

ويقدر عدد المسلمين في السودان الفرنسي بنصف سكانه ، وهم قبائل (البييل والساركوولا والسرهائى) وجزء من قبائل (الماندنج) وأغلب سكان المدن والطرق التجارية من المسلمين والكتلة المكونة من البامبارا والدجون وثنية . أما قبائل (بوزو) المشتغلون بصيد النهر فمسلون أسما فقط والمذهب السائد بين (البييل) و (السورهاي) هو القادرية ، وبين (الساراكولا) ورعايا الحاج عمر مذهب التيجانية . وتمتاز قبائل (السرهائى) بوجود طبقة من المتعلمين تسمى "ألفا" Alfa وهي أكثر العناصر ثقافة في السودان الاسلامي ، وخاصة في مدينة (تمبكتو) . وكثير من هؤلاء تلقوا العلم في الأزهر . وعدا ذلك فأكثر المذاهب انتشاراً في السودان هو مذهب الحنابلة .

والغالبية للإسلام في مستعمرة (نيجر) ويمكن تقسيم تلك البلاد إلى ثلاث مناطق : ففي الغرب على طول نهر النيجر نجد قبائل (جرما) وهي تمت بالقرب (للسرهائى) — تعتنق الإسلام مخلوطاً بعقائد السحر والجان والزار . وفي الوسط نجد قبائل (هوزا) وهي إسلامية على

الطريقة التيجانية، وتعيش مع الوثنيين من السكان جنبا إلى جنب وفي الشرق — نجد قبائل (الكانورى) رعايا مملكة (بورنو) سابقا، وهم من أتباع الطريقتين التيجانية والقادرية .

وأما في شمال (نيجيريا) فيكاد التقسيم يكون مائلا. والغالبية للإسلام في تلك البلاد، حيث يوجد مركزان دينيان (سو كوتو) و (كانو) وكثير من السلطنات المتفاوتة الرتبة. وفي الوسط يختلط الوثنيون والمسلمون، إلا أن الأغلبية للمسلمين في الغرب بينما الأغلبية للوثنيين . في الشرق. أما سكان الساحل فوثنيون . ويوجد بينهم عدد كبير من المسيحيين. غير أن الإسلام في الغرب قد خطا خطرة جديدة بين قبائل (يوروبا) التي أصبح نصفها قسمة بين الإسلام والمسيحية، وإن كان نصفها الباقي لا يزال وثنياً .

الدعوة في أفريقيا الاستوائية وشرق أفريقيا : دخل الإسلام شمال مستعمرة (الكامرون) فطبعها بطابعه وكان ذلك أول الأمر في عهد إمبراطورية (بورنو) الإسلامية، التي حولت قبائل (كوتوكو) المجاورة لبحيرة تشاد إلى الإسلام . ثم ازداد عدد المسلمين بفضل غزوات قبائل (البييل) المسلمة في القرن الثامن عشر، إذ كان من أثرها دخول الإسلام في أعالي نهر بنوى (فرع من النيجر) وفي هضبة (أداماوا) . أما في جنوب هذه الرقعة فقد اعتنق ملك (بامون) الإسلام في عام ١٩١٤ وأعلن أن الإسلام دين الدولة، غير أن أغلبية شعبه لم تتبعه في ذلك، وظل سكان وسط وجنوب (الكامرون) على وثنتهم أو اعتنق بعضهم المسيحية .

وأما سكان منطقة بحيرة تشاد فنصفهم مسلمون (الجزء الشمالى) .
 قبائل (كانم) و (البيجرى) و (واداي) من أقدم الشعوب التى
 دخلت الإسلام وتعتبر من أمنع قلاعه . غير أن تدينهم سطحى مشوب
 بالجهل . ويرجع ذلك إلى كثرة الشعوب وتباين أصولها ، وإلى
 الاضطراب السياسى وعدم الاستقرار الذى ساد تلك المنطقة إذ هى
 بلاد يكثر بها عبور السابلة والقوافل وتجارة الرقيق . ورغم ذلك فإننا
 نجد فى (واداي) و (كانم) نظاماً ممتازاً للتعليم العالى وخاصة فى (أبشر)
 عاصمة واداي لأنها على اتصال دائم بالسودان الشرقى وبلاد مصر حتى
 أنها يمكن أن تعتبر عاصمة دينية . وقد ظهرت بتلك البلاد حركات
 تقدمية حديثة . على أن هذا الجزء الشمالى من بحيرة تشاد لا يعتبر من
 بلاد الزواج ، لأن بها كثيراً من القبائل العربية . والمذهب الشائع فيها
 هو التيجانية إلى جانب نفوذ قليل من السنوسية . أما سكان جنوب
 بحيرة تشاد وخاصة قبائل (السارا) فى حوض نهر (شارى) الوسيط
 فيؤفون كتلة وثنية عتيقة .

والسودان شرقى بحيرة تشاد حتى فاشودة ودارفور وكردفان
 مأهول بالمسلمين والجنس الاسود الحامى ولكن الجنوب عامة وهو
 موطن الزواج الاصليين (مستنقعات بحر الغزال) ما يزال سكانه على
 وثنيته . وكذلك حال الزواج القاطنين فى السطح الغربى لهضبة الحبشة .
 ويجب الفرقة بين هؤلاء وبين السود الذين هم من أصل حامى وبين
 الساميين الذين من ألوان مختلفة والذين يقطنون فى بقية الإقليم .

فهؤلاء يخرجون عن بحثنا في هذا الكتاب ، كما يخرج عنه سكان السودان الشرقى .

وأما فى ساحل أفريقيا الشرقى الإنجليزى فالمنطقة الساحلية كلها تقريباً تدين بالإسلام وأشهر مراكزه الكبرى مدينة زنجبار ورغم أن سلطنة زنجبار أسسها أمراء عمان فإننا نجد أن مذهب هؤلاء وهو مذهب الخوارج لا تتبعه إلا أقلية لا تذكر . وأن الغالبية العظمى للسنيين . وفى (كينيا) و (تانجانيكا) توجد مراكز إسلامية متفرقة . وأغلبها من المهاجرين من مسلمى الهند وهم من أتباع طائفة الاسماعيلية .
وأما بقية أجزاء أفريقيا فلم ينتشر الإسلام فيها إلا انتشاراً ضئيلاً والمسلمون هناك أقليات ضعيفة فالإسلام يحيط إذن بالقارة من غربها وشمالها وشرقها من مدينة داكار (غرباً) على ساحل السنغال حتى يبلغ مدينة (كليمان) فى موزمبيق البرتغالية . ويتسع عرضه تارة ويضيق تارة فى شكل أشبه ما يكون بهلال يذكر الناظر إليه على الخريطة برمز الإسلام .

(ج) مظاهر خاصة بالإسلام بين الزنوج

العقائد والشعائر والأخلاق : لما كان الإسلام ديناً نبت بين البدويين والحضرين من سكان الجزيرة العربية لم يكن موضوعاً للجماعات الزراعية من الزنوج (١) . . .

(١) اعترف المؤلف آنفاً بأن « الإسلام دين فطرة سهل المتناول لا تعقيد فيه ، سهل التكيف والتطبيق على مختلف الظروف » راجع ص ٧٩ من هذه الترجمة . (المراجع)

قال (مارتي) Marty وهو فرنسي وضع عدة مؤلفات عن المسلمين في أفريقيا الفرنسية الغربية : « إن ثوب الإسلام على الرغم من بساطته وسهولته لم يكن مصنوعاً على قد الزوج فأعاد هؤلاء تفصيله على حسب قامتهم ، واتخذوا منه زياً يلائم مزاجهم » . وقد عمل على تحويل شكله عاملان : هما البيئة الزراعية ، والعقلية والوثنية .

ويقتضينا الإنصاف أن نقرر أن هناك بعض المثقفين الذين يقتنون مكتبات عربية تزخر بالمؤلفات الضخمة في الشريعة الإسلامية . ولكن إلى جانب هؤلاء نجد كثيراً من المراهبين جهلة لا يعلنون من دينهم إلا الشيء اليسير ، ومع ذلك تتبعهم الجماهير ، وكل بضاعتهم منه شعاره العام ، فيقولون إننا مسلمون ويشكرون ما عداه من الأديان ، وغالب الظن أن إسلامهم هذا يستر وراءه آثاراً قلت أو كثرت من وثنيته القديمة . ولما كان اعتناقهم له يسيراً سهلاً لم يغير من أوضاع حياتهم الماضية ، فأحياناً يستمرون على هذه الأوضاع ؛ ولكن الغالب أن يحصل تمازج بين عقائد الإسلام والوثنية ، ويزداد الإسلام قوة شيئاً فشيئاً في البيئات التي يتمكن فيها الدين أو يكثر فيها الدعاة إليه . وهكذا نرى مظهر الإسلام يختلف باختلاف الناس والبيئات . وقد رسم (مارتي) وغيره من الباحثين صورة للمسلم العادي في إفريقيا الغربية الفرنسية قالوا ما مؤداه :

إن اعتقاد المسلم بالله يتمشى مع عقيدته الوثنية الأولى ، وهي أنه يوجد خالق أعظم للوجود ، ينعم بالقوى الحيوية على جميع مخلوقاته ، وخاصة مشايخ الطريقة التي ينتمى إليها وهم المراهبون . وأما محمد (النبي)

أو (أما دوا) أو (دودو) فليس في ذهن المسلم الأفريقي صورة واضحة عنه، وأما يعتبره صانعاً للعجرات يقوم بدور الآلهة الصغرى في الوثنية، وهو الوساطة بين الله والناس . وقد حلت عقيدة الجن عند المسلم محل عقيدة الأرواح الخفية التي تعمّر الأدغال ، كما أن اعتقاده بالأرواح الحامية لكل أسرة ، وبأرواح الموتى من الأسلاف الذين يرعون الأحياء وتقام لهم بعض الشعائر ما زال باقياً على حاله . وأما فكرة الثواب والعقاب في الآخرة فجديدة عليه . والاعتقاد بها أقل انتشاراً . والمسلم هناك يهتم اهتماماً شديداً بالشعوذة والشعائر الدينية الظاهرة وتحاشي الأظعمة المحرمة والنجاسات أكثر مما يهتم بالنيات والأفعال

ويحرص المسلم الأفريقي على أن يؤدي فروض الصلاة في مظاهرها مع مراعاة الدقة في تأديتها ، من استقبال وركوع وسجود ، ويرى أن صلاته لا تكون صحيحة إلا إذا انفصل عنها وفي جبهته أثر التراب من السجود . وهناك المساجد الجامعة ، وإلى جانبها زوايا من أكواخ القش أو مصليات صغيرة يحجزها عن الطريق إطار مربع من الحصاء . ويراعى المسلم تأدية فريضة الصوم بدقة تامة وخاصة في أوائل شهر الصيام ، ولكنهم لا يمتنعون عن التدخين ولا عن مباشرة النساء . وتعطى الصدقة والزكاة للفقراء المرابطين ، ويحتفل المسلمون بكل أعيادهم احتفالاً كله بهجة وتسليمة . وأما الحج إلى مكة فنادر ، وقد تيسره الإدارة الفرنسية عن طريق الباخرة أو الطائرة لمن يرغب من الأثرياء . ولا يزال بعض الفقراء يؤدي فريضة الحج سيراً على الأقدام ، ويحج الكثيرون إلى قبور

الصالحين ومزاراتهم في نواحيهم كزار (طوبة) لطائفة المريدين ، بينما تزور قبائل (الأولوف) مزار تيفوان ..

وقد بدل الإسلام مظاهر الحياة في البقاع التي دخلها من أمد بعيد فوجد في مدينتي (تمبكتو) و (جاو) مثلاً الشوارع ، ولو أنها ضيقة ، والبيوت ذات السطوح العالية ، والأبواب الضخمة . وهي تشبه بعض الشيء مظاهر المدن في شمال أفريقيا . أما بقية القرى فلم يتغير شكلها بل بقيت على وضعها القديم فالمساكن أكواخ من القش أو بيوت بدائية من الطين . ويتميز المسلم عن بقية الناس بلباس فضفاض « برنس » وبالعمامة أو القلنسوة . غير أن كثيراً منهم يشنون عراة الرؤوس . وكذلك يراعى الناس تحريم لحم الخنزير ، على أن شرب الخمر فيه شيء من التهاون ..

ولم يؤثر الإسلام في عادات المجتمع إلا تأثيراً طفيفاً . فالنساء غالباً غير محجبات في بيوتهن ، وما زلن يتمتعن بحريتهن المطلقة كما كن قديماً والمرأة من قبيلة (الأولوف) شديدة الميل للتبرج والتعطر والتزين بالذهب . وهي تتعالى في إبداء زينتها للناس مباهاة وافتخاراً . وتظن العامة أن التحلي بالذهب يساعد على نمو البقول الزيتية . وتقام مراسم الزواج وفقاً للعادات القديمة ، ولكن سن الحتان خففت عن ذي قبل أما مراسم الوفاة فتسير طبقاً للعادات الإسلامية . وتتغلغل الشريعة الإسلامية شيئاً فشيئاً في المجتمع القبلي بفضل الأحكام الشرعية التي يصدرها رجال القضاء الإسلامي في تلك البلاد ..

ويقتصر تعليم العربية في تلك الإنحاء على مكاتب تحفيظ القرآن ، حيث يقضى الطفل شطراً كبيراً من حياته في استظهار السور بلغة لا يفقهها ، وأما المدارس فيدرس بها منهج ديني أعلى من منهج الكتاباتيب ، وخريجوها أرقى مستوى . نعم أن هذا الطابع لا يخص أفريقيا السوداء ولكن عقبة اللغة تضاعف مصاعب التعليم فيها .

المرباط يؤدي دور الساحر والكاهن معاً :

من المعروف أن الدين الإسلامي دين ديمقراطي المبادئ ، ليس له كهنوت . غير أنه توجد (أولياء) وهم أقطاب يحف بهم تبجيل أتباعهم من الاتقياء المؤمنين في شمال أفريقيا . أما في إفريقيا السوداء فنجد من وراء كبار المرباطين المثقفين من مشايخ الطرق طائفة كبيرة من المتصوفة في الدرجة الثانية ، جهرتهم من الجهال ، ولكنهم فرضوا أنفسهم على الناس باسم الدين أو مزاولة السحر . ولهذا بقي السحر الوثني القديم وعاش ..

ونافس هؤلاء الدجالون الكهنة المتطبيين من الوثنيين في صناعتهم ، وبأساليب تكاد لا تختلف عن أساليبهم . فهم يصنعون ويبيعون التعاويذ وهي تماائم (أحجية) من الجلد بداخلها آيات قرآنية غالباً . وهم يستحضرون الجن بتلاوة العزائم . وكثيراً ما يتبادل هؤلاء مع غيرهم من أتباع الديانات الأخرى شتى الحيل والأساليب : فالمرابطون يقتبسون من الساحر تماائم من الحشرات والجعارين ، والسحرة يقتبسون من المرباطين تماائم من القرآن وتكهنات عن طريق ضرب الرمل . وبهذه

الوسائل انحدر الإسلام إلى الوثنية . وهكذا حل المراتب محل الكاهن
والساحر . والعجيب أنه كلما تضاءلت الوثنية في ناحية من النواحي
أمعن المتصوف في الادعاء بالإتيان بالخوارق ، وخاصة إذا كان في بلده
يمثل طريقة من الطرق يكون هو (خليفتها) ، فحينئذ يجمع في يده
سلطات روحية مختلفة : سلطة الرياسة ، وسلطة الأجداد ، وسلطة الشفعاء
الروحيين . وهكذا حلت جماعات الطرق الدينية محل الجمعيات السرية
الوثنية ، وأصبح شيخ الطريقة يتمتع في نظرهم بالتقديس لأن الله أرسله
هادياً . فدعوته وملازمته وريته كل أولئك يوصل إلى الناس قوته
الروحية وسره وبركته . وفي اعتقاد عامة الناس أن طاعته والخضوع له
وتقديم الذنوب إليه ضمان للنجاة من النار ؛ لأن القوى التي تكمن في
شخصه وفي مؤهلاته لا تنضب .

إلا أن كبار مشايخ الطرق القديمة وأفاض علماءهم المعروفين بالتضلع
في الدين الحنيف لا يقرون أمثال هذه الاعتقادات ، ولا يدعون
لأنفسهم كرامات أو خوارق . وهم على فضلهم وسعة علمهم لا تعدو
علاقتهم بمريديهم علاقة الأستاذ بطلبته . وتعتبرهم الخاصة المستنيرون
مربين روحيين يوجهون النفوس ويبصرون الناس بأحوال القلوب .
وقد عرف من بينهم أولياء حقيقيون . ولكن العامة تنظر إليهم نظر
تقديس ، زعماء منهم أنهم حماة الناس في الدنيا ، وشفعاؤهم عند الله في
الآخرة . وقد بلغ نفوذهم بين قبائل (الأولوف) في السنغال أن حلوا
حل أرباب الاقطاع في النظام السياسي القديم لتلك القبائل .

الطرق الصوفية المحلية : هذا التبجيل والتقديس لمشايخ الطرق هو

الطابع الذى تتميز به طريقتان نشأتا فى أفريقيا السوداء ، وهما طريقة المريدين وطريقة الجمالين . ومؤسس الطريقة الأولى فى السنغال رجل يدعى (أما دوبا مابا Bamba) من قبيلة الأولوف وأصله من (التوكواير). وكان من أتباع الشيخ (سيديه Sidiya) ، ورغم أن (أما دوبا) لم ينفصل انفصالا تاماً عن طريقة القادرية ، فقد حرص على أن يجعل طريقته مستقلة بذاتها عن القادرية . وقد اضطهدته الإدارة الفرنسية ونفته من البلاد عدة مرات ، لاشتغاله بالسياسة . غير أنه منذ عام ١٩١٢ قصر نشاطه على الأمور الدينية فقط . وعند وفاته فى سنة ١٩٢٧ كان عدد أنصاره قد بلغ قرابة ٤٠٠.٠٠٠ شخص يستوعبون أكثرية سكان منطقة (باول) ، ويتجاوزونها إلى بلاد (كايور Cayor) و (سالوم Saloum) . ولا يزال قبره يزار إلى اليوم فى مدينة (طوبة) . ولا تزال أسرته على رأس هذه الطريقة ..

والطريقة المريدية طريقة مبتكرة فى تعاليمها . وصفها مارتى بأنها « تعاليم إسلامية تنقسم بعقلية قبيلة الأولوف » ، وشعار هذه الطائفة اتخاذ الزراعة عملاً أساسياً ، واعتبارها أشرف الأعمال ولكى تحصل منها على أعظم قسط من الانتاج ، نظمت نفسها على أساس جماعى تعاونى ، لكل فرد منهم نصيب معين من العمل ، يقوم به تحت إشراف شيخ الطريقة من المرابطين ، دون أن يشغل الفرد نفسه بأى هم آخر . ولما كان المرابطون هم المسئولين عن الحياة المادية والروحية للجميع ، فقد أخذوا على عاتقهم ضمان الأمن العام ، كما أخذوا على أنفسهم تبعة أوزار الناس . والقاعدة فى هذا النظام الإقطاعى الشيعى أن غلة

الأرض كلها ملك للشيخ ، وهو الرئيس الديني ، وهو الذي يقسمها ، فيخصص جزءاً منها للعمال على قدر حاجاتهم ، ويرصد الباقي لأغراض الزراعة وللصالح العامة ، من شراء أرض جديدة واستصلاحها ، إلى تأسيس المساجد والمدارس . غير أن هؤلاء الرؤساء الدينيين يتمتعون بشيء كثير من البذخ والترف ، بينما نجد الشعب في حالة خضوع وبؤس شديد . ومن حسنات هذا النظام زيادة الرقعة المزروعة من الأرض زيادة عظيمة ، واستغلال التربة الصالحة استغلالاً مستمراً بلغ حد الإرهاق أحياناً . وهنا نرى الناس في أدنى حدود الإسلام ، بل أن كثيراً منهم خرج عن حدوده ؛ إذ يقدسون (أمادوبامبا) تقدسياً يقرب من التأليه . .

وأما طريقة الحالة فقد نشأت في مدينة (نيورو) وهي من بلاد الساحل السوداني ، وتقع على بعد ٢٥٠ ك . م على الشمال الغربي من (باماكو) أسسها الشيخ (حما الله) وأصله من مسلى البربر ، وكان على جانب عظيم من الذكاء . بدأ دعوته بنفسه فلزم التعبد والتسك ، وكانت تعتريه حالات من الجذب والغيوبة الروحية . وقد التف حوله جماعة من غلاة الانصار ، ظل عددها يتزايد يوماً بعد يوم . ويقطن تلك البقعة الفقيرة من الأرض جماعة من حاملي السلاح ، كانت صناعتهم في الماضي اقتناص الرقيق . ولما بارت تلك التجارة تحولوا إلى التناحر والتقاتل فيما بينهم . وكان تأسيس هذه الطريقة إيذاناً بنشوب النزاع والشغب بين أتباع الطرق المختلفة ؛ إذ باغت المحالون سكان البلاد المجاورة لهم عام ١٩٤٠ وأمعنوا فيهم تقتيلاً حتى لم يفلت منهم طفل

رضيع ، بل أحرقوا المصاحف ، فألقت الإدارة الفرنسية القبض على الشيخ ونفته إلى فرنسا وتوفى في المنفى عام ١٩٤٢ ولم يخلفه أحد على المشيخة ، ولكن طريقته لم تتوقف عن الانتشار رغم ما طرأ عليها من تحريف قليل . ومن أصول تلك الطريقة أن يذكر اسم الله إحدى عشرة مرة فقط على المسبحة . ولذلك يفصل كثير من أتباعها الإحدى عشرة حبة الأولى بكرة من الزجاج . ومن هنا اشتهر الحمالون باسم (الإحدى عشرة حبة) .

وهم يصلون صلاة القصر وهي رخصة قاصرة في التعاليم الإسلامية على حالة الحرب أو الخطر أو السفر . وقد دأب أتباع هذه الطريقة على رسم جباههم وأيديهم وأظافرهم بالوشم الذي كان يسم به الشيخ ماشيته . ويتغنون في أذكارهم ويرفعون بها عقيرتهم في جلبة ، وترميمهم الطرق الأخرى بأنهم يستحلون الحرمات عقب حفلات الذكر . وهنا نجد الإسلام يتضاءل إلى أدنى حدوده ، إذ نجد الحماله يؤدون صلاتهم متجهين إلى مدينة (نيورو) لا إلى مكة كسائر المسلمين . وهم يغرقون في تقديس الشيخ (حما الله) إلى حد الإلحاد ، حتى أن أحدهم وهو (يعقوب سلا Sylla) كتب يقول : « إننا لسنا بحاجة لا إلى الله ولا إلى رسوله ، وحسبنا شيخنا حما الله ، وهم يناصبون العداء جميع المذاهب الإسلامية الأخرى ، بله المسيحية . وحدث عام ١٩٤١ أن اغتال بعض أتباع هذه الطريقة جماعة من الفرنسيين في مدينة (بوبو ديولاسو) دون سبب ظاهر إلا أن يكون سبيلا لدخول اللجنة في زعمهم ، وقبضت الحكومة على المجرمين وأعدمتهم ، ففقت بذلك

على هذه الطائفة من السفاكين . إلا أن أمثال هذه المذابح والاعتقالات المتكررة تدل على أن هناك خطراً كامناً يهدد بالانفجار في أى لحظة بسبب تلك المبادئ الهدامة التي لا تمت للإسلام بصلة .

المجتمعات المختلطة من الاسلام والوثنية :

درس بعض المختصين في علم أصول الاجناس كيفية إختلاط الإسلام بالعقائد الوثنية والأوضاع الناشئة من تجاورها ، فاستطاع عالمان فرنسيان هما (بالاندييه Balandier) و (مرسيه Mercier) . بعد دراسة عقائد (ليو) وهي قبائل تعيش من صيد البحر قريباً من (داكار) ، حديثة العهد بالإسلام ، إذ لم تعتنقه إلا عام ١٩٠٠ — استطاعا أن يكشفوا عن إنقسام ديني عجيب في تلك القبيلة ، فالرجال مسلمون ، والنساء وثنيات . والرجال يتعصبون للإسلام تعصباً شديداً ويتذرعون بهذا التعصب ليستروا به تفاهة ما يعلونه عن دينهم ، وأما النساء فيقدمن الأرواح التي تعمر مختلف الأماكن في مدينة (روفسك) يعبدن آلهة القطط أو أم القطط ، وفي حي (بونيول) Bounioul بمدينة دكار يقطن الإله (ندك Ndak) ، وهو الإله الراعى للبلدية . وأما الأحياء الأخرى فيها فيرعى كلا منها أحد أبنائه . وماتزال المحاريب المنزلية والمحاريب العامة قائمة ، تمثلها أوعية منصوبة في فناء الدار ، حيث تقدم لها النساء القرابين من الحيوان والشراب . وتزعم امرأة شعائر العبادة الجماعية وخاصة عند نحر القرابين السنوية إسترضاء لآله البحر ، لكي تجعل رزقهم من الصيد وفيراً . وكذلك تزعم المرأة حلقات الزار . .

وينتشر الاعتقاد بالسحر والعمل به بين الجنسين على السواء ، فالنساء تحمل التعاويذ لتجنب الحمل أو لاتقاء الجنون ، والصيادون يعلقون في شباكهم تعاويذ من جذور نبات أو قرون حيوان حتى يصيدوا صيداً كثيراً . وأصبح الساحر المغربي يستعمل أساليب السحر الوثني القديم . ولا يزال يخشى الناس هناك أذى السحرة القدماء المعروفين ويزعمون أنهم يستطيعون التحول إلى أشباح مخيفة أو إلى هواء أو حيوان أو حجر ، وأنهم ينهشون لحوم الموتى . ويخشون إلى جانب ذلك الشيطان الذي يوسوس في صدور الناس ويسلبهم عقولهم وهو الذي حذر منه الاسلام .

وما تزال رقصة المطر ، بما فيها من تهوس وتخبط ، تقام بكامل صورها الوثنية بين قبيلتي (جرمة) و (السرهاى) رغم اعتناقهما الاسلام وقد شاهدها (روش) وسجلها على شريط الصور المتحركة وهم يستهوون آلهة المطر بأنغام الموسيقى ، ويزعمون أن تلك الآلهة تحل في أجساد نسوة بعينهن حين يرقصن فيصدين ضرب من الصرع والغيوبة والهلذيان أثناء الرقص . وعندئذ يجيء رجل يمثل السماء ، ومعه ماء به بعض العشب المقدس ، فيصبه في حفرة من الأرض ثم يصحى بدجاجة أو بكبش .

ويتضح مما سبق أن كثيراً من العادات الوثنية ما تزال تمارس بين تلك القبائل . أما حالات الجذب والصرع فيرجح إنها وردت من الشرق (كندا) — جنوب بلاد العرب أو السودان — . وأعجب من هذا

ظهور إله جديد في عام ١٩٢٧ يسمى (حوكة) Haouka زعم أحدهم أنه جلب تعاليمه عند ما كان بمكة ، وهو إله عنيف يمثل القوة الوحشية ، وقد اقترن ظهوره في تلك الأرجاء بحركات العنف والتحريق والتخريب والقتل حتى اضطرت الإدارة الحاكمة إلى تعقب أتباعه والقبض عليهم ، ففرت بقاياهم إلى ساحل الذهب حيث توارت هناك ..

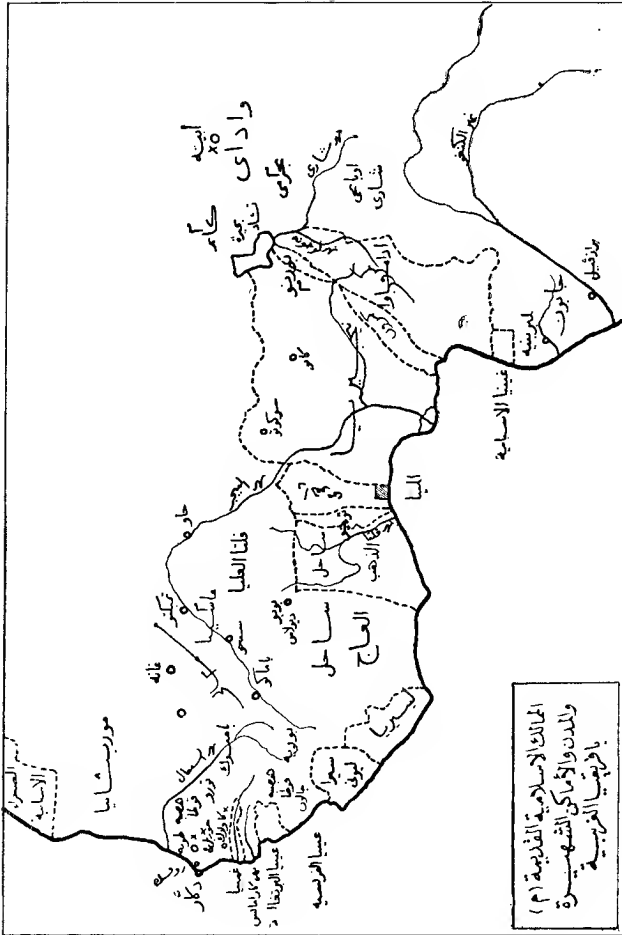
نهضة الإسلام :

إذا كان الإسلام في أفريقيا السوداء يبدو في طابع غريب لا يمت إلى أصوله السليمة بسبب هو دخيل عليه لمخالطته للوثنية ، أو لمسايرته لطبيعة التفكير الخاصة بالعقلية الزنجية ، أو لتأثره بالتيارات الحديثة الطارئة عليه ، فإن الاسلام على رغم ذلك يسير بخطا سريعة نحو نهضة دينية واجتماعية عظيمة . فمن جهة نراه أخذ في الاتساع بهيئة ملحوظة بين قبائل وثنية دأبت على مقاومته زمناً طويلاً ، مثل قبيلة (موسى) وقبائل أخرى في جنوب مستعمرة نيجيريا . ومن جهة أخرى نشاهد في بلاد السنغال وغينيا وهي بلاد إسلامية ، اتجاهاً من الطرق الدينية إلى إقتباس النظام الاشتراكي الزراعي السائد بين طائفة المريدن ..

ولكن أبرز تلك المظاهر وأقواها ذلك النشاط العظيم الذى دب في أوصال العالم الإسلامى ، وحركة التجديد التى سرت فى كيانه . فقد هب رجاله وعلماءه ونادوا بوجوب تطهير الدين من الشوائب والبدع الدخيلة عليه . وقد بدأت تلك الحركة فى سوريا والبلاد العربية الأخرى

وقامت مصر بنشرها وإذاعتها ، فوصل صداها إلى أقاصى أرجاء السودان ، ونبه شعوبها العريقة في الاسلام فأيقظ فيها الوعي الدينى ، وخاصة حيث توجد الطبقات المستنيرة من المسلمين . وقصدت أفواج من طلبة (نيجيريا) ومستعمرة (نيجر) إلى الجامع الأزهر في مصر ، فتعلوا اللغة العربية ولقنوها أبناءهم ، فأصبحت لغة التخاطب بينهم . واشتدت أواصر الصلات بين منطقة تشاد وبين مصر وشرق السودان الفرنسى ، وأسست مدرسة دينية في مدينة (أبشر) في (وادى) وقد تحولت اليوم إلى كلية إسلامية .

وسارت حركة الإصلاح الإسلامى جنباً إلى جنب مع إنتشار اللغة العربية ببلاد السودان ، بفضل سهولة المواصلات ، وأساليب الدعاية التى تبجحها الدول الشرقية . وكان من نتائج ذبوعها وتأثيرها ذلك الاقتراح الذى تقدمت به الجمعية الوطنية فى السنغال ، وطلبت فيه أن تكون اللغة العربية لغة اجبارية فى برامج الدراسة . ولا شك إن هذه ظاهرة خطيرة ، تدل على مدى إنتعاش الحركة التقدمية للإسلام بين الشعوب الزنجية ، وتنبيء بما سيكون لها من آثار بعيدة المدى فى الخطط المرسومة لحكم المستعمرات خاصة والسياسة الدولية عامة ..



الفصل الثانى

المسيحية

وحرركات التنبؤ

(١) كيف دخلت المسيحية أفريقيا ؟

قبل عام ١٨٠٠ دخل الدين المسيحى شمال أفريقيا فى نهاية الإمبراطورية الرومانية ، إلا أنه لم يتوغل فى داخلية بلاد الزنوج ، لأن غزو المسلمين لتلك البقاع الشمالية وحلول الإسلام فيها محل المسيحية ، حال دون ذلك التغفل . وكانت هناك مملكة قبطية فى بلاد النوبة (شمال السودان) تسمى مملكة (مروى) Méroé ظلت على المسيحية حتى عام ١٥٠٤ ولكن قضت عليها فى ذلك التاريخ قبائل الفونج الوثنية .

حوالى ذلك التاريخ كان البرتغاليون قد أمموا استكشاف سواحل أفريقيا ، وأسسوا فرضة سموها (المينا) أى المنجم (منجم الذهب) وهو الساحل المعروف اليوم باسم (ساحل الذهب) ، كما أسسوا مراكز للتبشير فيها ، وفى مصب نهر الكنغو . وفى عام ١٤٩١ اعتنق ملك الكنغو الدين المسيحى ، وخلفه على العرش ابنه الذى عمده باسم

(ألفونسو) وقد رسم أحد أبناء ألفونسو هذا أسقفاً . وتغير اسم العاصمة القديمة من (بانزا كونغو) Mbanza Congo إلى اسم (سان سلفادور) ورسم عدد من أهالي البلاد قساوسة لها . ولكن تلك الجهود كلها قضى عليها اضطراب الأحوال السياسية ، والثورات ، والجيوش التي كان يستعين بها تجار الرقيق في أغراضهم ، وارتداد الكثيرين إلى عقائدهم الوثنية القديمة . ولم يبق من كل ذلك إلا علامة الصليب التي اندمجت في المراسيم الوثنية ، والتي وجدت آثارها بعد ذلك بقرنين من الزمان ، فكانت دليلاً على أن المسيحية مرت بتلك الاصقاع . وفي سنة ١٦١٠ أسس البرتغاليون أسقفية مسيحية في (لواندا) Loanda بمستعمرة أنجولا ولكنهم لم ينجحوا في نشر المسيحية في داخلية البلاد .

وأما على الساحل الشرقى لأفريقيا فقد حالت دون نشر المسيحية هناك منافسة الإسلام لها واحتكار المسلمين للتجارة . إلا أن الملك (مونوموتابا) Monomotapa اعتنق المسيحية في ١٥٦١ واستقر الآباء اليسوعيون والدومنيكان في حوض نهر زامبيزي . وفي عام ١٦٣٠ اعتنق زعيم (مومباسا) Mombaz المسيحية ثم رجع عنها واعتنق الإسلام . ولم يبق في أوائل القرن الثامن عشر من الذين اعتنقوا المسيحية إلا نفر قليل .

ثم دخل الإسبان ميدان التبشير ، فأرسلوا عدة بعثات تبشيرية ، ودعا الملك (الادا) Allada ملك (داهومي) إحدى هذه البعثات ، بفكرة تكوين علاقات تجارية . ولكنه لما رأى أن غرض البعثة هو التبشير بالمسيحية ، طردها من بلاده .

وقد لحقت هذه الخيبة بالفرنسيين أيضاً عندما دعوا (أنيابا)
 Aniaba ابن أمير ساحل العاج إلى مدينة فرسايل ، وعمّده القس
 المشهور (بوسيوه) Bossuet وجعل الملك لويس الرابع عشر أباه
 الروحي ، فإن هذا الأمير ما كاد يعود إلى بلاده حتى ارتد عن المسيحية ،
 وعاد إلى الوثنية دين آبائه .

وقام الفرنسيون كذلك بمجهود تبشيرية في (جوال) Joal و (سان
 لويس) Saint louis و (جوريه) Gorée إلا أن الحروب في القارة
 الأوروبية قضت على كل هذه المحاولات . ولم يبق منها إلا نواة صغيرة
 من الكاثوليك في مدينة (سان لويس) .

وأما البروتستنت الهولنديون فبعد أن دمروا كثيراً من مؤسسات
 البرتغال على جميع الساحل الإفريقي ، وخاصة في فرضة (المينا) ،
 استعمروا رأس الرجاء الصالح . وفي سنة ١٦٦٥ نزل إلى هذه المستعمرة
 أول قسيس بروتستنتي . وفي نهاية القرن الثامن عشر كان تعداد
 المسيحيين عشرين ألفاً من البيض ، وبضع مئات من العبيد . وحاول
 الألمان من جانبهم أن ينشروا المسيحية بين (الهوتنتوت) ولكنهم
 فشلوا في ذلك .

وفي بداية القرن التاسع عشر لم يكن للمسيحية قدم ثابتة
 في مكان ما من أفريقيا السوداء ، إذا استثنينا نقطاً ضئيلة على الساحل ،
 يدل على ذلك ما كتبه المبشر الإنجليزى (وليم شو) W. Show
 عام ١٨٢٣ من مستعمرة الرأس . . قال : (أنه لا يوجد أى بعثة

تبشيرية مسيحية فيما بين المكان الذى أعيش فيه وبين أبعد نقطة فى شمال البحر الأحمر) .

بعد عام ١٨٠٠ فى أفريقيا الجنوبية :

واستمرت الحال كذلك حتى أوائل القرن التاسع عشر عندما توغلت حركة الكشف فى قلب أفريقيا وكثرت بها البعث الدينية التبشيرية ، ثم تبعهما الاستعمار الذى يسر عمل المبشرين ، فكان هذا القرن هو العصر الذهبى للتبشير فى أفريقيا . ولم يحل القرن العشرون إلا والمسيحية منتشرة بشتى مذاهبها والكنائس قائمة ، والأمن مستتب فى تلك الأقطار فى أفريقيا الجنوبية صارت الأكثرية للهولنديين البروتستنت بسبب هجرة البيض إلى تلك البقاع ، وتوغل البوير فى داخلية البلاد إلا أن هؤلاء لم يهتموا بالتبشير ، وإنما اهتموا يشتونهم الدينية الخاصة ، ولم تخطر لهم فكرة نشر المسيحية بين قبائل الزنوج إلا بعد مرور فترة طويلة من الزمن .

وكان أول من اقتحم باب التبشير مبشران اسكوتلانديان وهما (موفات R. Moffat) و (ليفنجستون Livingstone) . وبلغت الجراة بالمبشر (روبرت موفات) أن أسس مركزاً للتبشير بين قبائل بتشوانا وأن يقيم بين أظهرهم على بعد مئات الأميال عن وطن الرجل الأبيض فى مستعمرة الرأس ، فاستخف به هؤلاء فى بادى الأمر ، ولكنهم لما رأوه أنضم إليهم فى الدفاع عن بلادهم ، ونجح فى صد بعض الغزاة من القبائل الأخرى عنهم وكان سبباً فى انتصارهم دخول المسيحية واعتنقوها

أفواجاً . أما دافيد ليفنجستون وهو زوج إبنة (موفات) فقد استطاع أن ينصر أحد ملوك (بتشوانا) واسمه (سيشيله Séchélé) حتى جعله يطرد حريمه ، ويتنازل عن دعوى قدرته الالهية في إسقاط الأمطار . والعجيب أن تعقب ذلك الحادث حقبة من الجفاف استمرت أربع سنوات ، فرحل (لفنجستون) متجها صوب الشمال المجهول ، فاستكشف نهر زامبيزي وكان (لفنجستون) مبشراً ومستكشفاً وطبيعياً . جاهد منذ ١٨٤١ في كشف المجهول من أفريقيا ، ورفع النقاب عنه . وهو أول من رفع صوته ضد تجارة الرقيق الشائنة . وكان لاستقامته وإخلاصه في خدمة الزوج أكبر الأثر في نفوسهم . وقد عاب عليه الكثيرون تقشفه وتضحياته العظيمة ، فرد عليهم بأنه لا يرى في ذلك عيباً ، وإنما يرى فيه أرفع ما يتحلى به المرء . وكان يقول : « لقد كان للرب ابن وحيد لم يعرف حرفة غير التبشير والطب » . ولما أنهكه الضعف رفض أن يعود إلى أوروبا التي طبقت شهرته أنحاءها وفي فجر أول مايو سنة ١٨٧٣ دخل أتباعه من الزوج إلى مخيمه ، بالقرب من (بنجويلو Banguélo) فوجدوه ميتاً وهو في وضع الصلاة ؛ فنزعوا قلبه ودفنوه في الأرض الأفريقية التي أحبا وأخلص لاهلها ، ثم نقلوا رفاته إلى الساحل ، فأظهروا بذلك مدى حبهم وتعلقهم به .

وتلا ذلك تدفق البعثات إلى داخلية البلاد . فنزل (المثودست Methodistes) في (الكاب) و (الناتال) و (الترنسفال) حتى مستعمرة (روديسيا) ، وأسس (البرزبتيريان Presbytériens) كلية (لوفديل Lovedale) لتخريج المبشرين والمعلمين ، وانتشر

(الانجيليسكان Angelicans) في المدن وفي الغابات ، وتجنبوا أن يهدم تبشيرهم أى نظام قديم كان للقبائل ، حتى غلا أحد مبشريهم وهو (كولينسو Colenso) في احترامه لتقاليد قبائل كافريه Cafrés لدرجة أنه أباح تعدد الزوجات ، (فشلحته) الكنيسة لهذا السبب .

واشتركت في هذا السباق بعوث أمريكية بين قبائل (الزولو) وبعوث سويسرية في (الترنسفال) كما وجه الألمان جهودهم إلى التبشير في الجنوب الغربي لأفريقيا .

ونجحت البعثة الايفانجيلية الفرنسية في اتصالها « بموشه » Mosheh أحد زعماء قبيلة (الباسوتو) حتى أنه دعاهم إليه لحمايته من غزو البوير . كما أسس (فرنسوا كولار F. Coillard) مركزاً جديداً للتبشير في روديسيا الشمالية ، بين قبائل (باروتسي) وكان هو وزملاؤه من الذين انضموا إلى الرعيل الأول بتلك الجهات .

واستقر الكاثوليك في مستعمرة الرأس ، والناثال ، و (باسوتولند) ومستعمرة أورانج . كما استقر (الآباء البيض Pères Blancs) في روديسيا و (نياسالاند) حيث وجدوا المبشرين البروتستنت قد سبقوهم إليها في أعقاب (لفنجستون) ، ثم عادت البعوث الدينية البرتغالية إلى نشر الدين المسيحي في مستعمرة أنجولا وموزامبيق بالاشتراك مع بعوث أخرى .

ويدل إحصاء عام ١٩٥٣ عن توزيع المذاهب المسيحية بين الزوج والمولودين في اتحاد جنوب أفريقيا على أن الغالبية لمذهب (الميثوديست)

٢١٠٠٠٠٠ نسمة ، ويلهم الانجليكان ٨٠٠٠٠٠ نسمة ، ثم الكاثوليك ٦٥٠٠٠٠ نسمة ، ثم البروتستانت الهولنديون ٦٠٠٠٠٠ نسمة ، ومذاهب أخرى ٦٠٠٠٠٠ نسمة . والأكثرية العديدة في روديسيا الشمالية للكاثوليك . على أن المسيحيين يمثلون فيها أقلية بالنسبة لمجموع السكان ، بينما يمثلون الغالبية في عدد من ولايات الاتحاد .

وترجع سرعة انتشار المسيحية في أفريقيا الجنوبية إلى عوامل عدة ، منها وجود جالية كبيرة من البيض المسيحيين المتدينين ، أثرت في السكان الزوج المجاورين لها ؟ ثم انحلال النظم القبلية بسبب خضوع القبائل للمستعمرين ، واستخدام عدد كبير من العمال الزوج ، وتأسيس المدن الكبيرة . وقد بلغت دعوة المبشرين أسماع سكان الأدغال حتى أن (موشة) طلب منها تعليم شعبه . وأصبحت هذه المناطق مجالا للتنافس الشديد بين البعثات التبشيرية .

وقد كافح رجال البعوث الدينية تجارة الرقيق ، وعادة تعدد الزوجات ، كما نشروا التعليم ، بفضل ترجمتهم الكتاب المقدس إلى لغات تلك القبائل . وهكذا استطاع زعماء القبائل ومنهم زعيم قبيلة (بامانجاتو) المسمى (خاما Khama) أن يفرضوا المسيحية على قبائلهم دون أن يغيروا شيئاً من النظام القبلي القديم .

وتسود العنصرية المتطرفة كنائس المسيحيين الهولنديين ، إذ أن للبيض منهم كنائس يحظر على الملونين دخولها ، أما المبشرين المشوديست

والانجليكان والكاثوليك فلا يقرون فكرة العنصرية ؛ ولذلك وجدت مذاهبهم رواجاً عظيماً بين الزوج . وقد كان هذا التعصب العنصرى سبباً فى أن الزوج أسسوا كنائس خاصة بهم مستقلة عن سائر الكنائس . وسنوضح هذه الظاهرة فى موضعها من هذا الكتاب .

التبشير فى شرق أفريقيا ، وأفريقيا الاستوائية

كان من أثر استرداد العرب لشرق أفريقيا ، بعد أن طردهم منها البرتغاليون ، أن نشط الإسلام وثبتت أصوله فى تلك الجهات ؛ إلا أن انجلترا بعد أن سيطرت على زنجبار سمحت فى سنة ١٨٠٠ لأحد المبشرين الألمان وهو (كراپف Krapf) بأن يؤسس فرعاً (لجمعية التبشير الكنائسى) فى مدينة (ممباسا) فما أن استقر حتى ترجم الكتاب المقدس إلى اللغة السواحيلية ثم توغل فى الداخل ، وبمعاونة زميله (ريمان Rebmann) اكتشف جبل (كليمانجارو) . وفى عام ١٨٦٠ أسس أسقف جزاير الاتحاد بعثة كاثوليكية للتبشير فى مدينة (بوجامايو Bogomayo) على الساحل المواجه لجزيرة زنجبار ، ولكن جميع هذه الجهود لزمّت الساحل ، ولم تستطع التوغل فى الداخل بسبب وجودها فى محيط إسلامى قوى . فلم يدخل المسيحية إلا عدد قليل .

غير أن اكتشاف منطقة البحيرات العظمى من منابع النيل (التى اشترك فى اكتشافها لنفجستون وستانلى وسبيلك) وما تبع ذلك من استعمار تلك الجهات وتقسيمها ، يسر للبعوث التبشيرية النفاذ إلى داخلية البلاد . وبعد سنة ١٨٨٠ استقر المبشرون الألمان فى تانجانيقا ، والانجليز فى كينيا .

وفي أوغندا بوجه أخص أتت جهود المبشرين بأعظم النتائج في أقصر زمن . ففي عام ١٨٧٤ قابل ستانلي (متيسا Mtesa) ملك تلك الجهة ، وكان هذا متردداً في اعتناق الإسلام فعرض عليه اعتناق المسيحية . وفي عام ١٨٧٦ بدأت البعوث التبشيرية للبروتستنت . وفي عام ١٨٧٨ بدأت بعوث الكاثوليك أن تغد إلى بلاده ، فلما رأى انقسامها وتنافسها فضل ألا يعتنق ديناً ، ومات على وثنيته . وخلفه على الملك ابنه (موانجا Mouanga) فاضطهد المسيحيين (أو القراء كما كانوا يسمونهم) ، وأغلبهم من الشباب ، وأمر بقتل بعض حشمه من الشبان حرقاً ، لاعتناقهم المسيحية . وانتهر المسلمون تلك الفرصة ، وحاولوا أن ينشروا الإسلام بالقوة في تلك البلاد ، ففر (موانجا) ثم عاد إلى عرشه بحماية المسيحيين . وكان ازدياد اتباع هذين المذهبين سبباً في قيام مشاغبات بينهما لم تطل مدتها بل انتهت باعتناق غالبية قبائل (باجاندا) للمسيحية ، مع أغلبية طفيفة للذهب الكاثوليكي .

ويرجع الفضل في انتشار المسيحية في (أوغندا) إلى جهود (الآباء البيض) وهم في الغالب من أصل فرنسي ، كما امتد نشاطهم حتى شملت المسيحية غالبية سكان منطقة (رواندا أوروبندي Rouanda Ouroundi) وكذلك شرق الكنفو البلجيكية . وأما في بقية الكنفو البلجيكية فقد أرسل إليها الملك (ليوبولد) الثاني بعثات تبشيرية بلجيكية أشهرها بعثة (الآباء شنت P. Schent) مع بعوث أخرى انضمت إليها . كما أرسل البروتستنت الانجليز والأمريكيون بعوث عمالة . وقد وكلت الحكومة

البلجيكية أمر التعليم إلى المبشرين . ويقدر المسيحيون هناك في الوقت الحاضر بما يقرب من ثلث سكان الكنفو .

وأما في الكنفو الفرنسية فإن جماعة (آباء الروح المقدس) استقرت فيها منذ عهد طويل ، ومن بين هؤلاء الآب (أجوار Augouard) الذى كان قبلاً فى (جابون) ثم جاء إلى الكنفو عند ما نزل بها (برازا Brazza) و (أجوار) هذا مبشر ومعدان ، ورحالة ، أطلق عليه اسم (مطران أكلة لحوم البشر) وقد دأب على ارتياد مجرى نهر الكنفو ومستنقعاته وغاباته الكثيفة المجهولة بنشاط لا يكل ولا يفتر . ومن الطرائف أنه عند ما قابل البابا (ليون الثالث عشر) داعبه هذا فى حديثه قائلاً : « هل تأكل رعاياك هناك لحوم الآدميين ؟ » فأجابه أجوار : « نعم يا سيدى لأنهم يأكلونه كل يوم » فقال البابا : « عجباً لأنه لم يرد قط فى سير الشهداء من القديسين من استشهد ما كولا ! » فأجابه « سأجعل نفسى القدوة يا سيدى فى هذا النوع الطريف من الاستشهاد » ورد البابا قائلاً : « بربك لا تفعل ! فقد لا تتبقى فضلة من جسدك نضمها إلى التراث المقدس » . وقد بلغ التحمس بأحد المبشرين فى كفاحه لعادة تعدد الزوجات أن يتزوج الفتيات (زواجاً صورياً) ليزوجهن بالتالى إلى أتباعه من الكاثوليك .

ولعل أعظم من اشتهر من المبشرين الفرنسيين الإنجيليين فى جابون هو الدكتور شفايتزر Dr. Schweitzer (وهو الذى كرمته ملكة إنجلترا ونال جائزة نوبل للسلام عام ١٩٥٤) ، هذا الطبيب

الفد موسيقى بارع ، وفيلسوف حكيم ، اعتزل العالم في قرية (لامبارينه Lambaréné) في (جابون) ، وأسس بها مستشفى لمعالجة السكان هناك . وكان مثلاً حياً للبعثة التبشيرية الفرنسية . وأقامت في الكامرون بعوث كاثوليكية وبروتستنتية من الألمان ، وانتشر مذهب الكاثوليك والبروتستنت بين السكان في جنوب كامرون ، وأصبحت الغالبية هناك مسيحية ، وكذلك قامت البعوث الإنجليزية (البروتستنتية) والإيطالية (الكاثوليكية) بنشر المسيحية بمذهبيها بين سكان أعلى النيل في السودان .

غرب أفريقيا الفرنسية :

قامت في أول الأمر عدة عوامل حالت دون نشر المسيحية في ساحل غينيا . قوعورة الساحل ، والغابات الكثيفة ، وحى الملايا ، والحى الصفراء ، وتشتت السكان ، وعدم اهتمامهم بالدين الجديد ، كانت أسباباً في فشل الجهود التي بذلت ، وقضت على كثير من مراكز التبشير بتلك الجهة . ولكن استعاريها في نهاية القرن الماضي يسر للبعوث التبشيرية شيئاً من الاستقرار . وفي القرن العشرين بوجه خاص جنت تلك البعوث التبشيرية ثمرة جهودها الشاقة وصبرها الطويل .

وفي عام ١٨١٥ عقب تحريم تجارة الرقيق ، نزلت بعوث تبشيرية بروتستنتية إلى ناحيتين على الساحل ، كان قد نزل إليهما عبيد يتكلمون الإنجليزية ويعتقون المسيحية إلى حد ما . أولاهما منطقة (ليبيريا) نزل بها قساوسة زنوج من الميثوديسست ، والأخرى (سيراليون) التي

نزل بها مبشرون لجمعية التبشير الكنسي ، ومبشرون من الولاين Wesleyens وقد أصبحت (سيراليون) مركزاً للبعوث التبشيرية إلى الشرق . ونزلت البعثة السويسرية من (بال) إلى (ساحل الذهب) وتمكنت من نشر المسيحية بين قبائل (فانتى Fanti) بفضل مشاركة رئيسها (أندريا رايس Andreas Riis) ، ولكنها وجدت صعوبات بين قبائل (أشانتى) ، بسبب عنادها واحتجازها لقسين من البعثة . وعندما خضعت تلك الجهات أصبح نجاح البعثات ميسوراً . وكان الموثديست من أسبق البعثات أيضاً هناك . واشتهر من قساوسة الزوج الدكتور (أجرى) Dr. Aggrey وهو شخصية فذة أشرنا إليها في كتاب آخر (١)

ثم أسست كنيسة مستقلة محلية ، خاصة بالزوج ، تسمى (كنيسة البريسبيتريان في ساحل العاج) ، ولكن التقارير عنها متحفظة جداً . وفي عام ١٨٤٤ أسس اثنان من المبشرين أحدهما من البيض هو تونزد Townsend والآخر زنجي من (بوروبا) هو (كروثر Crowther) فرعاً لجمعية التبشير الكنسية في (أبيوكوتا Abéo Kouta) . وبدأ بذلك نشر المسيحية في نيجيريا بفضل صلة القرى التي تربط (كروثر) بقبيلة (اليوروبا) ، وبسبب معرفته بلهجات القبائل في تلك الجهات . وفي ١٨٥٤ رسم (كروثر) مطراناً وظل في وظيفته حتى توفي في عام ١٨٩١ . واقترح بعض القساوسة الوطنيين أن يعمدوا الناس جماعات بدلا من تعميدهم أفراداً . وعملت عدة بعثات للنشر المسيحية على ساحل جنوب نيجيريا ، كما عملت بعثات أخرى في شمالها .

(١) كتاب (تنبه الوعي السياسى فى أفريقيا)

وفي مستعمرة (توجو Togo) كانت تعمل بعثة (بريم Brème) الألمانية إلا أنها اضطرت لمغادرة البلاد عام ١٩١٩ بعد أن احتلتها القوات الفرنسية والإنجليزية في الحرب العالمية الأولى ، وتركوا وراءهم كنيسة مستقلة لقبيلة (إيفا) أظهرت نشاطاً ملحوظاً ، ولكنها لم تحاول نشر المسيحية بين القبائل الأخرى . واشترك عدة مبشرين من الإنجليز والأمريكيين بشيء من النشاط في المنطقة الفرنسية بالاشتراك مع البعثة الفرنسية . وقد استطاع هؤلاء البروتستانت في (ساحل العاج) الإفادة من جهود (هاريس) المبشر وأكلوها لقمة سائغة . وسنتحدث عن هاريس هذا فيما بعد .

وقام بالتبشير بالمذهب الكاثوليكي ثلاث هيئات هي (آباء روح القدس) في الغرب و (بعثات ليون) على ساحل غينيا و (الآباء البيض) في مناطق السودان .

وكان للجماعة (آباء روح القدس) مراكز في السنغال منذ القرن الثامن عشر . وفي القرن التاسع عشر اندمجت فيها جماعة أخرى كان قد أسسها (الأب ليبرمان P. Libermann) وأثر عنه قوله عن الزنوج : « هؤلاء الناس يقتربون المعاصي أكثر من غيرهم لأنهم أكثر بؤساً وشقاء . ولا بد لنا من أن نجعلهم يشعرون بحال الحرية والمساواة التي ينعمون بها مع جميع عباد الله » ، وكانت تلك الجمعية هي السبب في نشر المسيحية في غينيا السفلى وجنوب السنغال والمناطق المجاورة .

وأسس المنسنيور (برزيك M. Brésillac) جمعية (ليون)

التبشيرية الأفريقية عام ١٨٥٦ وكان هو أول مبعوثيها. نزل إلى مدينة (فريتون) في ١٨٥٩ ، ولكنه مات بمرض الحمى الصفراء بعد ثلاثة شهور وخلفه (الاب بلانك P. Planque) الذي وجه همه إلى إرسال البعثات المتوالية في مدى نصف قرن إلى ساحل غينيا دون أن يفارق وطنه . وفي سنة ١٨٦١ كان أول وفود (الآباء) على داهومي . ثم نفذت المسيحية إلى ساحل الذهب ونيجيريا ، وقد نجح أحدهم (دورجير P. Dorgère) في الفوز بثقة الملك (بهانزان Behanzin) وكان وسيطاً بينه وبين الفرنسيين . وفي عام ١٨٩٦ نزلت بعثة تبشيرية على ساحل العاج . وتاريخ جهاد تلك البعثات في السنوات الأولى كان سلسلة من التضحية والاستشهاد حيث قضت الحمى الصفراء وحمى الملاريا والقيضانات والحرائق على كثير من المبشرين حتى امتلأت بهم المقابر . ورغم ذلك كان هناك آخرون يحلون محلهم . وما جاء القرن العشرون حتى بدأت حركة تعميد الناس جماعات ، فكان لزاماً أن يزداد عدد المراكز التبشيرية في الغابات وفي الأدغال على السواء .

وقد تأسست جمعية (الآباء للبيض للسيدة العذراء) الأفريقية في عام ١٨٦٨ أسسها الكرنال (لافيجري Lavigerie) وهو أسقف الجزائر سابقاً . وقد أرسل في عام ١٨٧٥ ثلاثة مبشرين (آباء) إلى الصحراء ليقصدوا إلى (تمبكتو) ولكنهم لقوا حتفهم على يد قبائل (الطوارق) . ولما احتل الفرنسيون تلك المدينة في سنة ١٨٩٤ تمكنت بعثة برئاسة (هاكار P. Hacquart) من الاستقرار فيها . ووجه جهوده لنشر التعليم كوسيلة لنقل السلطة والنفوذ إلى أيدي الطبقة التي

تعلت في العهد الجديد . ثم انتشر المبشرون في جميع تلك الانحاء
السودانية ، ونجحوا في تنصير الوثنيين وخاصة في منطقة أعالي
نهر (فولتا) .

وإلى جانب ما قام به الآباء المبشرون ، يجب أن نذكر الأعمال التي
قامت بها بعثات التبشير النسوية . واشتهر من بينها (إرساليات
الراهبات البيضاوات) ، وراهبات (سيدة الرسل) و (الراهبات
الزرقاوات) وراهبات (روح القدس) . وكانت القوة المحركة لهذه
الإرساليات النسوية تنبثق من شخصية عظيمة هي الام (جافوهي
Lavouhey) وهي ريفية من أسرة فلاحين وكان لها من العمر ثمانية
وعشرون عاما عندما أسست في عام ١٨٠٦ جمعية (سان جوزيف
الكلوني) . وفي عام ١٨١٩ أبحرت على رأس أول إرسالية من الراهبات
المبشرات فنزلن في بلاد السنغال . وكتبت هذه الام تقول : (إنهم
يصفون السنغال بأنها بلد سوء . ولذلك كان من الواجب أن أذهب
إليها لأراها عن كثب ثم أكون لنفسي رأيا عنها) ورغم أنها مرضت
هناك وكانت على وشك أن تقضى نحبها فانها لم تكف عن العمل بهمة
ونشاط نادرين ، لحاربت تجارة الرقيق ، وعملت على رفع مستوى المعيشة
بين السكان . وكثيراً ما كانت تقول علانية (إنني أحب أفريقيا حباً جماً
وأسجد شكراً لله على أنه سدد خطاي إليها) ثم رحلت عن السنغال إلى
أمريكا الجنوبية في (بلاد غيان) لتبدأ عملها هناك من جديد . وتركت
وراءها في السنغال إخوانها الراهبات وقد تركت هذه السيدة في كل
مكان حلت به آثاراً تنطق بانسانيتها وأعمالها الطيبة حتى سماها لويس
فيليب ملك فرنسا وقتئذ : (هذا الرجل العظيم) .

نشر المسيحية : طابعه ومناهجه :

لقد اشترك في نشر المسيحية في أفريقيا أكثر الأمم المسيحية . فالأمم الكاثوليكية على رأسها الفرنسيون ، ثم البلجيكيون ، والبرتغاليون والألمان ، والإيطاليون ، والاسبانيون . والأمم البروتستنتية وأهمها الانجليز ، ومنها كذلك فرنسيون ، وسويسريون ، وألمان ، واسكندنافيون ، ودول جنوب أفريقيا ، والأمريكان البيض والسود ، وأشهر طوائفها الانجليكانيون ، والميثوديست ، والبرزيتاريان ، ويلهم اللوثريون ، والكنائس الأمريكية وخاصة تلك التي يتبعها كثير من السود ، وهي جمعيات البابتست Baptistes والأدفنتيست Adventistes وجمعية برج المراقبة Watch Tower . وقد اهتمت هذه بأنها تتبع سياسة مسيحية مضادة للبيض ، فمنعتها حكومة بلجيكا من دخول مستعمرة الكنفو .

والمذهب الكاثوليكي يسود المستعمرات الفرنسية والبلجيكية والبرتغالية . وأما المذهب البروتستنتي فيسود المستعمرات الانجليزية باستثناء يسير في بعض بقاعها .

هذا التسابق الشديد بين المذاهب المسيحية وخاصة في بدء نشر الدعوة حين لم تكن هناك عداوات شديدة ، كان عاملا من عوامل انقسام المجتمع الزنجي ، مما دعا بعض أفذاذ المبشرين إلى استهجان ذلك التعصب المذهبي ، الذي لا يتفق وعادات التسامح عند الوثنيين ، وخاصة على ساحل غينيا ، حيث كانوا يرحبون بالآلهة الجديدة بين صفوف إلهتهم

القديمة . ورغمما عن ذلك فإن هذا التنافس كان له أثر سريع في تحويل الوثنيين إلى المسيحية ولعل أهم ما يلاحظ أن المسيحية على اختلاف مذاهبها قد اتفقت كلها وتعاليمها على مكافحة الرق والاتجار بالرقائق ، كما احتجت هذه البعثات على تجارة الخمر وارتفعت أصوات هذا الاحتجاج من جانب البروتستانت والكاثوليك على السواء .

وكان اعتناق الدين المسيحي في مبدأ أمره ضئيلاً فردياً عندما كانت القبائل تحافظ على تماسكها وتكتلها . ولم تنتشر المسيحية نوعاً ما إلا بعد أن مال إليها واعتنقها بعض زعماء القبائل بغية الانتفاع بمعونة هذه البعثات التبشيرية في تمدين شعوبهم وفي حماية قبائلهم ضد البيض الآخرين : حكومات ، أو جاليات ، أو تجارا جشعين . ولم تدخل المسيحية أفواج كبيرة من الناس برمتها إلا في زمن متأخر من القرن العشرين ، بفضل عوامل أهمهما احتكاكهم بالمدينة الأوروبية ، وانتشار المدارس والوسائل الاقتصادية الحديثة ، إذ أن هذه العوامل كانت سبباً في تفكك مظاهر الحياة القديمة ، وتغير أسلوب التفكير القبلي العتيق وكان من المنطقي أن يجد الزنوج في المذاهب المسيحية ما يشبع فطرته من التكتل في جماعة جديدة وأن يتذوقوا نوعاً من التفكير الحديث ، فدعاهم كل ذلك إلى الاندفاع بحميرهم إلى اعتناق المسيحية ، وخاصة عقب الحرب العظمى الأولى . وفي العصر الحالي نجد الغالبية المسيحيين في جنوب أفريقيا ، ويوغندا ، وجنوب كاميرون ، وعلى ساحل غينيا . وأما في المناطق المجاورة وفي الكونغو البلجيكية فنجد أن عدد المسيحيين يتراوح بين الثلث والعشر من عدد السكان . ولا يزال انتشار المسيحية في تقدم مستمر .

وكان من أهم العوامل في نشر المسيحية موقف التقدير الذي وقفه المبشرون أخيراً إزاء العوائد الوثنية الموروثة ، إذ كان يعتقد بعض المبشرين في الزمن السابق أن المدنية الغربية والدين المسيحي وحدة لا تتجزأ . ولذلك أطلقوا عليها تسمية مفردة هي « المدنية المسيحية » ولم يكونوا ينظرون إلى الديانات الوثنية الزنجية إلا على أنها خليط من العادات أو الخرافات الشيطانية التي تقشعر لها الأبدان ، فاحتقروها ، وانصرف همهم إلى اقتلاعها ومحوها من نفوس الزنوج ، لكي يشيدوا في مكانها الصرح النقا الذي نشأ بعيداً عن شواطئ أفريقيا . واليوم تقوم وجهة نظر جديدة تدعها دراسة الاجناس ، وهي على النقيض من النظرية القديمة ، وقد نوهنا من قبل في هذا الكتاب باسم الاب « أوبيس P. Aupiais » وهو أول من نادى بتلك الفكرة ، فكرة تقدير العقائد الوثنية . وهي فكرة تقوم على أن لكل حضارة قيمتها الخاصة بها . ولهذا كان من واجب المسيحية ألا تعمل على محوها ، وإنما يجب أن تعمل على التغلغل فيها بدراساتها حتى تستغل بذورها الصالحة . وذلك بتفهم نفسية الزنوج ، وجعل عاداتهم القديمة عادات مسيحية .

ولذلك فرض على أعضاء البعوث التبشيرية ، قبل أن يقصدوا تلك الجهات ، اتباع خطة مرسومة تقضى بدراسة تلك البيئات دراسة شاملة ، وتفهم نظمها الاجتماعية وعاداتها ولغتها . كما أنه يجب على المبشر أن يختلط بالسكان بالزيارة ، وأداء الخدمات ، والإخلاص في التعاون معهم

في كل فرصة تتطلب ذلك . فالمدرسة ، والمستشفى أو المستوصف ، والمثابرة على الدعوة المسيحية ، وترجمة الكتاب المقدس والتعليمات الدينية إلى لهجة السكان ، ومعرفة الأعياد المقدسة وغرس شعور الأخوة المسيحية بين الجميع — كل هذه الوسائل يساعد دون شك على توسيع نطاق عمل البعثات ونجاحها . وهكذا يصبح المبشر هو الرئيس الروحي في تلك البيئة .

وقد ألفت تلك الوسائل الجديدة أعباء عظيمة على عاتق المبشر ، فلم تعد مهمته قاصرة على التبشير ، بل فرضت عليه واجبات إدارية لتنظيم شئون الجماعة ، والعمل على إدخال شعور المسيحية في قلوب أفرادها . ولذلك أصبح القسيس الأبيض في حالة عجز عن أداء تلك الواجبات بمفرده ، وصار من الضروري أن يستعين بعدد من المساعدين من أهالي البلاد ؛ فدرسوا المدرسة ، ورؤساء الجواله ، ومعلمو العقائد والعبادات في الأحراش ، هؤلاء المساعدون كلهم من أهل البلاد . ومهمتهم ارتياد الجهات النائية عن المدينة والقرية للتأكد من أن سكانها يحافظون على مسيحيتهم ، وإنهم لا يتهاونون فيها ، ولإقامة الشعائر بينهم ، وبذل النصيحة لهم والدفاع عنهم .

وشعرت الكنيسة عند ذلك بوجوب اتخاذ خطوة جديدة بتعيين قساوسة من الأفريقيين ، حتى يدرك الزنوج أن الكنيسة ليست احتكاراً للجنس الأبيض وحده ، وإنما تشمل كل مسيحي بصرف النظر عن اللون والعنصر والثروة . وقد رأينا أن البروتستانت في جنوب أفريقيا

وساحل غينيا كانوا أول من نادى بتلك الفكرة وتبعم الكاثوليك بعد ذلك في القرن العشرين . هذا إلى أن البابا (بيوس الحادى عشر) والبابا (بيوس الثانى عشر) شجعا ذلك الاتجاه . وفى الآونة الحاضرة نجد فى أفريقيا خمسة من الأساقفة الزوج ، كما نرى عدداً من المدارس الكهنوتية التى ينتظر أن يتخرج منها أفواج من القساوسة الزوج .

من هو الزوجى المسيحى :

كثيراً ما حامت الشبهة حول مدى تأثر الزوجى بالمسيحية ، وعمق شعوره بها . بل تعدته إلى التشكك فى صحة عقيدته وإيمانه بها جملة . فقد لوحظ أن سلوك الزوجى المسيحى كثيراً ما يخالف تعاليم المسيحية ؛ إذ منهم من يسلك سلوكاً وثنياً ، ومنهم من يخلط بين المسيحية والوثنية خطأً عجيباً سئرى بعض أمثلة منه . والمشاهد أن الاعتقاد بالتعاون والسحر وأكسير الحب ما يزال سائداً بين الزوج المتصرين . (ولا غرابة فى ذلك فمثل هذه الاعتقادات شائعة بين المسيحيين البيض أنفسهم وهم العريقون فى المسيحية) .

والحقيقة أن التنصير قد قلب أوضاع حياة الزوج فى بيوتهم ومجتمعهم حتى أنه كثيراً ما يوصف هذا الانقلاب بكلمتى : « الموت الشخصى » ، « الاحتضار المعنوى » ، للدلالة على خطورة ذلك الانقلاب ودأب المبشرون دون هوادة على تحريم تعدد الزوجات ، وعبادة الأسلاف ، ونحر القرايين ، والاعتقاد بالسحر ، كما كلفوا عادة المهر وحفلات التلقين وتغالوا فحرموا الزوج من متع الحياة البرية فى

بجتماعهم ، حتى سلخوا كل من اعتنق المسيحية منهم عن قومه وعشيرته وعن مشاعر طفولته المحببة إليه ، فأصبحوا طبقة غريبة عن مجتمعهم القديم . وكثيراً ما ينشأ الخلاف بينهم وبين العرف السائد — وخاصة في مسائل الزواج . أضف إلى ذلك ما يتعرض له المتنصرون من الزوج في كل لحظة من هجمات ومجاهات لا يستطيعون مقاومتها ، فيعودون إلى سابق عهدهم ، إذ من الطبيعي أن يكون إنصياح الإنسان إلى عادات طفولته ومداركها أيسر عليه كثيراً من أن يتقلب على نفسه ويلزمها عادات جديدة ، وخاصة بين الذين لم يؤهلهم استعدادهم للاستقلال بالرأى ، والخروج على صفوف الجماعة . وأما التحمس للدين فأمر هين فقد شوهدت جماعة حديثة العهد بالمسيحية أخذتها الحية الدينية فخطمت تماثيل الجنود الرومانيين الذين تولوا صلب المسيح . ولكن الصعوبة في المثابرة وعدم الانقطاع . فالفرد الذى نشر عن قبيلته وتركها إلى المدينة قد قطع كل أواصره الأولى دون أن يغرس مكانها أواصر دينية جديدة ، واستولت الفوضى والבלبلة على عقله فتجده حائراً بين عالمين ، مشتتاً بينهما ، يقع فريسة سهلة لكل دعوة جديدة .

غير أن الأمور لا تسير على هذا النهج عندما تكون الطائفة المسيحية راسخة قوية البنيان ، قائمة على أسس سديدة ، كالمساواة بين الرجل والمرأة ، وزاوال الفروق الاجتماعية ، وعندما يكون التراحم والتعاطف سائداً بين أفرادها ، إلى جانب الشعور بالمسؤولية ، وروح الطاعة والنظام الذى يشعر معه الأفريقى أنه وجد ضالته الماثودة في هذه الروح الجماعية التى كانت سبباً في متانة صرح نظامه القديم .

فبهذه الوسيلة تستطيع المسيحية أن تلقح النفسية الأفريقية ، لتعمل على خلق هيئته اجتماعية جديدة ، أوسع أفقاً من المجتمع القديم ، فتفتح الأذهان إلى أواصر رحبية وآفاق عالمية .

(ب) الكنائس المستقلة - كنائس المتنبيين

والعبادات المستحدثة

أن تلقيح الدوحة الأفريقية بفروع من الدوحة المسيحية أثمر في بعض الأحيان ثماراً مركبة . وعقائد ملفقة ، يتغلب فيها عنصر النفسية والعادات الأفريقية على المبادئ المسيحية ، حتى طبعها بطابعها . ونخص بالذكر منها ثلاثة مذاهب لا تمت إلا بصلة واهية للمسيحية الغربية الأصلية ، بل تزداد بعداً عنها . وهي :

١ - الكنائس المستقلة :

كنائس يكثر عددها في المنطقة البروتستنتية ، انفصلت من بعيد عن بعثات المبشرين التي أسستها ، واتخذت لنفسها اتجاهات خاصة .

٢ - كنائس المتنبيين :

وهي حركات فردية تلقائية ، قام بها أشخاص تأثروا بالمسيحية قليلاً أو كثيراً ، فأسسوا لأنفسهم كنائس في تعاليمها شيء من الابتكار .

٣ - العبادات المستحدثة :

وقد نشأت هذه من محاولة تجديد الوثنية ، عن طريق استيحاء المبادئ المسيحية وتعاليم السحر والقوى الخفية .

وهذه الأنواع الثلاثة من العسير التمييز بينها إذ كثيراً ما نجدتها متداخلة أو مندجة . والطابع المميز لها هو الاتجاه السياسى . وهذا هو الذى حدا إلى تسميتها حركات سياسية دينية . والمناطق التى تنتشر فيها هذه الفورات الروحية هى جنوب أفريقيا وساحل غينيا وأفريقيا الإستوائية .

مبلغ إنتشارها فى جنوب أفريقيا :

كان التمييز العنصرى الذى يسود جنوب أفريقيا هو العامل الرئيسى لانتشار كنائس مستقلة للسود . ففي عام ١٨٩٢ انشق القسيس الزنجى (موكونة Mokone) عن بعثته التبشيرية ، وأسس الكنيسة الأثيوبية فى مدينة جوهانسبرج . وتبع ذلك تأسيس فوج من الكنائس المستقلة الأخرى ، إما بسبب الانشقاق والتنافس على الرئاسة أو بإلهام تنبؤى ، أو بتأثير الكنائس الأمريكية فى أفريقيا . ففي ١٩٤٥ أحصى (سندكلر Sundkler) عددها فبلغ ٨٧٠ كنيسة ، وفى ١٩٤٨ زادت ١٢٣ كنيسة جديدة . وقد يتبع بعض هذه الكنائس عدد قليل من المؤمنين لا يزيد أحياناً عن ٨٠ عضواً فى إحداها ، والبعض الآخر قاصر على النساء والأطفال .

ولهذه الطوائف الكنسية اتجاهان . (أولا) الكنائس الاثيوبية ، وهي بروتستنتية ، إلا أنها تتميز بطابع سياسى مناهض لسيادة الرجل الأبيض ، وشعارها « أفريقيا للأفريقيين » . (ثانيا) الكنائس الصهيونية ، وقد أسسها أفراد يباعث من وحى ذاتى ، لقي رواجاً بين الشعب . ويتميز بتعاليم هى خليط بين المسيحية والوثنية . وهذه هى الكنائس التى سنخصصها بالذكر فيما يلى :

وطريق الالهام فى ذلك هو أن المتنبى يتلقى إلهاماً نفسياً يعتقد به إن الله هو الذى يأمره بمحاربة الرذائل وتأسيس كنيسة لهذا الغرض ، ويمنحه الرب إلى جانب ذلك القدرة على إبراء المرضى . وفى العادة يخلفه إبنه بعد موته . وقد تتمتع أمه بنفوذ عظيم فى الكنيسة .

ونظام هذه الكنائس يتسع لعدد من القساوسة فى درجات مختلفة ، تختلف باختلاف الرتب الكهنوتية ... وأما شعائرها فمنقولة عن الكنيسة البروتستنتية ، بالإضافة إلى شعائر مأخوذة من الكاثوليكية أو الوثنية : والموعظة الدينية الصاخبة وسيلة من وسائل إثارة المشاعر ، حيث يشترك الحضور فى أناشيدها فى جلبة ظاهرة وحركات جثمانية جماعية . ثم يتبع ذلك مراسم الاعتراف بطريقة علنية مكشوفة ، على غير المألوف . ثم تعقب ذلك جلسة إبراء المرضى وترديد أناشيد الابتهالات .

وأهم شعائر التطهير من الخطايا هو التعميد بغمر الجسم كله فى الماء لىكى تزول عن الشخص جميع خطاياه . وقد يعاد غطاسه مرات ، على أن يكون الماء جارياً ، لأن له خاصية محو خطايا الإنسان . والاعتراف

بالخطايا علينا يرفع عن المرء كل معاصية وأوزاره . وتفرض بعض الكنائس على المذنب أن يتناول مسهلاً لكي تنطهر روحه . وقد يكون التقاؤ أو الاغتسال بالصابون وسيلة مؤدية إلى النتيجة نفسها ، وهي التنطهر . ويفرض على جميع مشيى الميت من تلك الطائفة أن يتطهروا تطهراً كاملاً ، بأية وسيلة كانت من هذه الوسائل ، عقب الانتهاء من تشييع الجنازة .

والأحلام وسيلة من وسائل الاتصال بالرب . وأما ظهور الملائكة فأمر عادى لديهم . ويراعى المتدينون أداء عبادة الصوم . ولا تستطيع المرأة أبان الطمث أن تنال قداسة حلول المسيح . وتحرم تلك الطائفة أكل لحم الخنزير والدجاج والدم ، كما تحرم تعاطى الأدوية إذ أن الابرء من المرض هو أحد المظاهر الأساسية للدين ، حيث يعتقدون أن الأمراض المستعصية نتيجة لحلول الشيطان فى الجسم أو لأعمال السحرة أو لارتكاب الذنوب . وتتخذ هذه الحالات مظاهر متعددة أهمها تسرب أفعى إلى معدة الرجل أو رحم المرأة . ولا براء المرضى يقف المتنبيء فىضع يده على موضع العلة فى الشخص ، أو يلبسه ببرقه وهو يصيح بأعلى صوته : (أخرج منه أيها الشيطان) وقد ينال على المريض ضرباً بعصاه ، كي يطرد الشيطان من جسده (وقد يطلب بعض المتنبتين نحر ذبيحة لهذا الغرض) فيصرخ المريض ويرتعد وبذلك يتخلص من الشيطان ومن أوزاره دفعة واحدة .

وللروح القدس شأن عظيم فى تلك الكنائس ، لأنه يحل فى أجساد المنبشئين . وقد يزور بعض الصالحين فيصرخون وينطقون بعبارات

لا تفهم . وقد يوصى الروح القدس رجلاً ما بتعدد الزوجات . ويمنع الروح القدس هؤلاء المتنبيين قدرة الكشف عن الأشياء المغيبة ، وخاصة الذنوب الكامنة ، والكوارث المستقبلية ، وسحر السحرة وحماية الناس من أذاهم .

والإشارة إلى ما جاء في الانجيل وإلى النبي موسى وإلى الرسل تدور على ألسنتهم دائماً ، ويقومون بتطبيقها في حياتهم اليومية . وأما المسيح فتارة يعتبرونه ملكاً وتارة يهملون ذكره ، لأن المتنبي قد حل محله بينهم . ويعتقد بعض السود في مسيح ملون مثلهم ، يسكن السماء ويقف على باب الجنة ، وأنهم إذا مروا بحرم كنائس البيض حرموا من دخول الفردوس . وهذه الوسيلة تثار الزوج لأنفسهم أيما ثار من التمييز العنصرى للجنس الأبيض .

الكنائس على ساحل غينيا :

نجد بالمثل على ساحل غينيا كنائس مستقلة . وأشهرها ، الكنيسة الأفريقية المتحدة ، في نيجيريا . وهي تبيع لاتباعا تعدد الزوجات . ويرجع الفضل في نشر المسيحية في تلك المستعمرة إلى المتنبيين . وأشهر هؤلاء قاطبة هو المبشر (هاريس) .

من هو هاريس ؟ William Wadé Harris

(وليم واد هاريس) زنجي من قبيلة (جريبو) التي تقطن جمهورية ليبيريا . وكان في أول حياته نوتياً ككثير من مواطنيه ، ثم أصبح

بعد ذلك بناء ، وانضم إلى طائفة (الميتوديست) وتلقى على يدهم مبادئ الدين المسيحي ، ثم اشتغل مدرساً بأحدى المدارس . وفي عام ١٩١٠ ثارت قبيلة (جريو) على حكومة ليبيريا ، فقبض على هاريس وسجن . وهناك نزل عليه الوحي وهو بين جدران السجن ، إذ زعم أن الملاك جبرائيل هبط عليه ، وبلغه رسالة نبوته ، ثم حل فيه الروح القدس ، كما ينزل الثلج على رأس إنسان ، برداً وسلاماً . فلما انقضت مدة السجن غادره وبدأ دعوته بالدين المسيحي في موطنه . ثم هاجر عام ١٩١٣ - ١٩١٤ إلى ساحل العاج الأدنى . وصادف أن كانت تلك المستعمرة تحتاز أزمة روحية عصبية ، بسبب نزول الرجل الأبيض فيها مستعمراً ، وما أعقبه ذلك من الانحلال في النظام الاجتماعي القديم ، وتحول الأهالي عن وثيقتهم إلى الاعتقاد في السحر ، حتى تفاقموا في اتخاذ التعاويذ ولم يفلح المبشرون إلا في عدد قليل منهم لا يزيد عن الآلاف إلى المسيحية . وفي غمرة يأسهم هذا ظهر (هاريس) لحدث المعجزة التي وصفها الأب (جورجو Gorju) قائلاً : كان عندما يرتفع صوت هاريس تنساقط التماثيل رماداً ، وينزل كاهنها عن قدسيته مختاراً ، فتهرع إليه قري بأكلها لتعتنق المسيحية على يديه ، ويتبعون باهتمام كل حركاته على طول طريق موكبهِ ، وكان يسير وهو يتوكأ على عصا طويلة ثبتت في رأسها صليب من الخشب ، وتبعه ست نسوة يلبسن البياض كما يلبس هو ، ويسمهن تليذاته ، وكان يذكر الله في صوت رنان ، برطانة انجليزية خاصة ، لا يفهمها الناس Pidgin English فكانت تترجم إليهم . ويصاحب تبشيره وخطبه توقيع خشخة في قرعة جافة . وكان يأمر عباد

التمثيل أن يلبسوا صليبه فإذا فعلوا صرعوا على الأرض وصاروا
يصرخون فيحنو عليهم ويهدى من روعهم ، ويأمرهم باحراق أصنامهم
بأيديهم . ولقد دخل المسيحية على يديه أكثر من ١٠٠.٠٠٠ من الزنوج
فكان يعمدهم بوضع الكتاب المقدس فوق رؤوسهم ، ورش قطرات
من الماء عليهم ، كما كان يرى المرضى ببركة الكتاب المقدس . وكانت
تعاليمه سهلة بدائية ، مأخوذة عن كتاب العهد القديم ، وموفاها أن الله
غفور شديد العقاب لمن يتوانى عن تنفيذ وصاياه . وكان يحض الناس ،
على العمل ، والطاعة لأولى الأمر ، والاعتدال فى شرب الخمر ، ومراعاة
الراحة فى أيام الآحاد . وعاش عيشة القشف والتعفف عما فى أيدي
الناس ، رافضاً كل هدية تقدم إليه . وكان يعلن أنه ليس إلا طليعة لمن
سوف يخلفونه ويعلمون الناس ما جاء فى الكتاب المقدس . ولكن
أتباعه أفرطوا وأسأوا وأحدثوا الفتن ، وخشيت الحكومة عواقب
ذلك الاضطراب ، وخاصة أن الحرب العالمية الأولى كانت على أشدها
فألقت القبض على هاريس ورحلته . ولكنه قبل مغادرته الميناء جعل
يواصل مواظمه وتعميداته وهو على الرصيف فى انتظار الباخرة ،
وجعل يوصى أتباعه بالسكينة والهدوء .

وقد استقبلت البعثات البروتستانتية طائفة من أتباعه حديثي الدخول
فى المسيحية ، ولكن تحريم تعدد الزوجات الذى كان يتعارض وعادات
البلاد حدا ببعضهم إلى الاحتفاظ باستقلالهم . ولذلك نرى فى تلك
الجهات (وخصوصاً فى منطقة لاهو العظمى) كنائس هاريسية ، ذات
شعائر شبه بروتستانتية . وتقضى تعاليم (هاريس) بحبة الله ، وحب

ذوى القربى ، ومعاملة الزوجات بالحسنى ، وتحريم السرقة ، وتوصى بالجد والعمل ، وتبيح تعدد الزوجات . وتقام العبادة ثلاث مرات فى الأسبوع تحت رعاية أحد قدماء الطائفة . ولكل فرد من أفرادها الحق فى إلقاء الموعظة . وأما الصدقات التى تجمع فى الكنيسة فترصد للشئون الدينية . وهذه الطائفة الهاريسية تمجد الآب والإبن فقط دون العذراء . وليس فى تعاليمهم اعتراف ولا مراسم تنصير .

ولقيت حركة التنبؤ ضرباً من الانشقاق . فالمتنبى (اكيه) Aké الذى استغله أحد زعماء القبائل (اوبودجى سوبوا) كان يستعمل خمر (البرنو) من درجة ٤٥ ٪ فى إقامة مراسم المناولة إلا أن الحرب العالمية الثانية قضت على واردات خمر البرنو Pernod وقضت على مذهبه فى الوقت نفسه .

وثمة متنبى آخر هو (جارك بريد) Garrick Braid قام بالدعوة لنفسه حوالى عام ١٩١٥ فى الجانب الشرقى من نيجريا ، وادعى أن روح النبي (إيليا) حلت فى جسده ، واشتغل بإبراء المرضى ، ولقيت دعوته نجاحاً لا يقل عن نجاح (هاريس) إلا أن مذهبه تدهور عندما اتجه إلى استعمال أساليب السحر ، والدخول فى السياسة ، فقبض عليه وسجن ثم أطلق سراحه . إلا أن صاعقة من السماء قتله فمات وهو ممتنع بكل صفات النبوة !!

ومنهم (سامسون أوبون) Samson Opon وهو من أشرار قبيلة أشاتى ، اعتنق المسيحية وهو فى السجن ، ثم نزل عليه الروحى

وبشر بالمسيحية بين عشيرته التي انصاعت إليه بعد أن كانت تناصب هذا الدين العداء من قديم . غير أن نجاحه أثار موجة من الفزع بين المبشرين والوثنيين على السواء ، فاحتالوا عليه حتى سقوه زجاجة من الخمر كانت سبباً في إعادته إلى حظيرة الشيطان ، وكانت فيها نهاية دعوته .

والنجاح الذى أصابه هؤلاء المتنبتون يرجع إلى المظهر المسرحى الذى ظهروا به ، وإلى طلاقة لسانهم ، وبساطة التعاليم التى بشروا بها ، وأنها من عند الله الذى وهبهم قوة النفوذ ، والقدرة على إراء المرضى ، وأنهم لم يوجهوا تبشيرهم لفرد واحد ، وإنما وجهوه للجماهير الناس جملة . وبذلك لمسوا الروح الجماعية الفطرية عند هذه الجماهير . وكانت محافظتهم على العوائد القبلية ، وتيسيرهم على الرجال بإباحة عادة تعدد الزوجات ، عاملاً من عوامل نشر هذا الضرب من المسيحية ؛ كما أن نخامة الحفلات الدينية العديدة حلت فى نفوس الأهل على محل الحفلات الوثنية القديمة . أضف إلى هذا كله أن المتنبت كان زنجياً صمياً مثلهم فتبعوه .

وإلى جانب هذه الكنائس المستقلة ، وإلى جانب دعوة هؤلاء المتنبتين التى تقترب قليلاً أو كثيراً من تعاليم المسيحية ، نجد مذاهب أخرى جديدة ملفقة من المسيحية والوثنية ، أو تحاول النهوض بالوثنية القديمة وتجديدها . فمثلاً ظهر المتنبت (أدايه Adaé) فى ساحل العاج وكان يعتمد بالروائح العطرية ، ويحرم الاوثان ، وكانت له وصايا عشر منها : لا تلتف زراعة جارك ، ولا تغرر بامرأة دون أن تدفع لها أجرها . ومن هؤلاء طائفة (جورو Goro) فى (داهومى) التى قامت لتقضى

على انتشار السحر وتبعها خلق كثير . وفي ساحل العاج قامت امرأة تسمى (مارى لالو Marie Lalou) سنة ١٩٤٦ ، وهو العام الذى منحت فيه المستعمرة حق التصويت العام ، وأسست مذهباً دينياً يعرف باسم (ديمبا) أى الرماد ، دعت فيه إلى أن يكون للناس مطلق الحرية فى اعتناق دين يلائمهم . وانتشر مذهبها انتشاراً واسعاً ، وتأسست له معابد فيها الصليب ويسوع . غير أن الشعائر تتخللها أساليب السحر القديم . وأعجب من ذلك كله أن النائب الأفريقى فى البرلمان (هوفويت Hophouët) اتخذ الناس إلهاً هو وأمه زمناً طويلاً ، على غير علم منه ، ولم ينصرف الناس عن تأليه إلا بطلب صريح منه .

تطورات المسيحية فى أفريقيا الاستوائية :

ظهرت فى أفريقيا الاستوائية عدة طوائف شاذة من أصل أمريكى وأشهرها (جمعية برج المراقبة) أو (شهود يهوه) وهى طائفة تدعو إلى المساواة ، والفوضى الاجتماعية ، وعدم دفع الضرائب ، وعصيان السلطات الحكومية . ويزعم فريق من هذه الطائفة أن مسيحاً ثانياً سينزل إلى الأرض تنجبه عذراء سوداء ، وأنه سيرسل الصواعق على الجنس الأبيض .

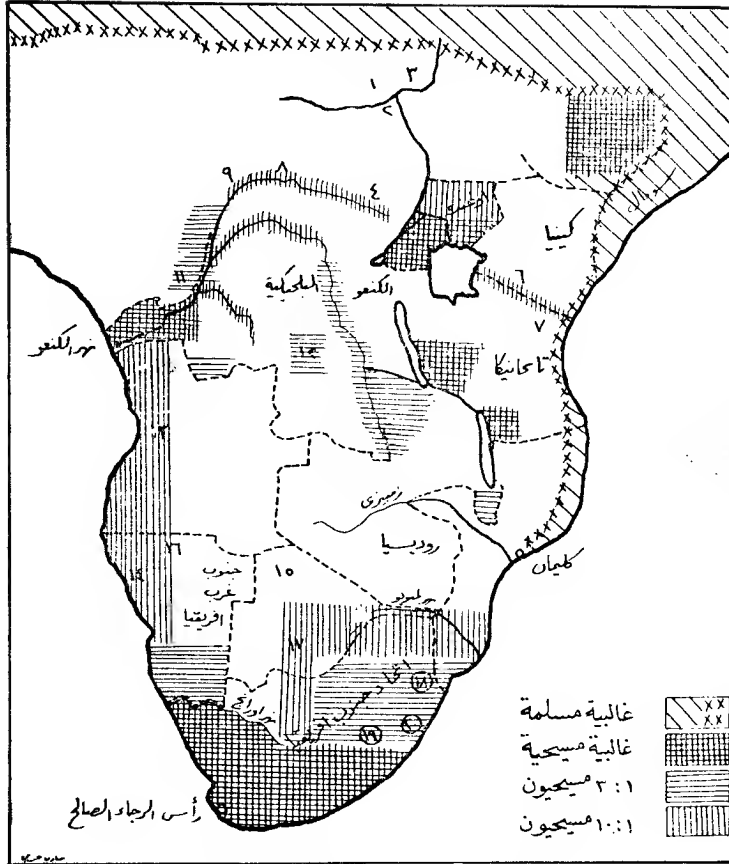
وفى عام ١٩٢١ ظهر فى مستعمرة الكنفو البلجيكية متنبى آخر بين قبائل باكونجو هو (سيمون كبانجو) أو (جونزا Gounza) وكانت دعوته مسيحية . غير أنه بعد نفيه أعلن إلى أتباعه أنه هو (المسيح المنقذ) وأنه هو (ملك السود) وهو الذى سيعيد إليهم وحدتهم ، ويفتح أمامهم أبواب السماء .

وظهر عند قبائل (بلالي Balali) وهم جيران (باكونجو) حركة سياسية اسمها (الودية) أسسها (أندريه متشوا) في الكنفو الفرنسية . ثم تحولت إلى حركة دينية . وقد مات مؤسسها بجيئاً سنة ١٩٤٢ غير أن أتباعه لا يصدقون أنه مات ، ولا يزالون ينتظرون عودته . وهذه الدعوة كسابقتها ما هي إلا رد فعل ضد نفوذ البعوث التبشيرية ، والسلطات الإدارية . وهي محاولة من أهالي البلاد لبناء وحدتهم من جديد ، والعودة إلى تماسكهم الاجتماعي الذي هدمه الرجل الأبيض .

وفي قبائل (أوبانجي) عضو برلماني كان قسيساً ، يدعى (بوجاندا Boganda) يقول عنه مواطنوه أنه هو « الشمس والسماء » ، وأن في قدرته أن يحول الإنسان إلى حيوان . ويسمون البطاقة الانتخابية « تعويذة بوجاندا » .

وأشهر هذه الحركات وأحدثها ما فعله شعب (الكيكويو Kikouyou) في (كينيا) وهو شعب غالبته من المسيحيين ، إذ قام بتأسيس كنائس مستقلة عند ما حرم المبشرون بعض العادات الأفريقية الموروثة ، وجادلهم أهل البلاد في ذلك قائلين : « إتنا لانجد في الكتاب المقدس ما يحرم الختان أو تعدد الزوجات ؛ بل على العكس نجد فيه نصواً عن الختان ونحر الذبائح للقرابين » .

ولم يقيم دليل واضح على الصلة بين هذه الكنائس المستقلة وبين حركة (ماوماو) وإنما هي حركة سياسية ضد البيض المستعمرين ، استغلت قدسية القسم وروابط اليمين ، ولا شك أن استعمال القسم في أغراض فردية يعد إحياء لسنة دينية قديمة . فمن هذه الناحية فقط يمكن أن تعد حركة (ماوماو) تجديداً دينياً .



أفريقيا الأسيوتانية والجنوبية

أسماء القبائل وأرقامها

Balali . . . — ١١ بالالى	Dinka . . . — ١ دنكا
Lounda . . . — ١٢ لوندا	Nuer . . . — ٢ نوير
Ovimboundo — ١٣ افيمبوندو	Chillouk . . . — ٣ شلوك
Hottentot — ١٤ هوتنتوت	Azandé . . . — ٤ ازنده
Bochiman — ١٥ بوشيان	Baganda . . . — ٥ باجندا
Damara . . . — ١٦ دامارا	Kikouyou — ٦ كيكويو
Betchouana — ١٧ بتشوانا	Souahili — ٧ سواحيلي
Souazi . . . — ١٨ سوازي	Banda . . . — ٨ باندا
Basouto . . . — ١٩ باسوتو	Manja . . . — ٩ مانجا
Zoulou . . . — ٢٠ زولو	Bacongo — ١٠ باكنجو



خاتمة

تذكرنا الاتجاهات الدينية الراهنة في أفريقيا ، بحالة الإمبراطورية الرومانية في عصر شيخوختها واضمحلالها ، فإنه لما حقق الرومان وحدة البحر المتوسط قضوا أيضاً على استقلال دويلاته السابقة ، وترتب على ذلك في الوقت نفسه أن فقدت العبادات الوثنية المحلية ، التي كانت تمارسها سكان المدن ، مغزاها وقدسيتها في نفوسهم . وأصبح الافراد بتحررهم من الأوضاع الدينية القديمة على استعداد تام لاعتماد الديانات الشرقية الواسعة الانتشار ، مثل ديانات أوزيريس ومترا ، والديانة المسيحية . ولم تغلب هذه على ما سواها من الديانات الاخرى إلا بعد أن عانت الانقسام في صفوفها وبعد أن تفرقت شيعاً متناجزة متناحرة وهذه المحن والانقسامات إن دلت على شيء فإنما تدل على مدى تماسك كل فريق للدين الجديد ، وعلى مدى تعدد الثقافات وتفاوتها في الإمبراطورية الرومانية .

واليوم يبدو مثل هذا الاضطراب في أرجاء أفريقيا السوداء ، وترجع أسبابه إلى تغلغل الاستعمار فيها ، وما تبعه من نشر الأمن بين ربوعها ، وتحسين سبل المواصلات ، وازدياد التبادل التجاري ، وتأسيس المدارس الحديثة . كل هذه العوامل قوضت الحواجز العتيقة ، التي طالما حصرت حضارة كل شعب وديانته في دائرة مغلقة . وكان

تدهور الوثنية بطيئاً تارة وسريعاً تارة ، تبعاً لبعدها موطن القبيلة من المدينة الحديثة ، ومراكز الاستغلال الاقتصادي ، أو قربها منها . . . وقد أصبح المتحررون منها أو التقدميون يتنكرون لديانتهم ، ولا يجرأون على الجهر بأنهم وثنيون عباد تعاويذ ، وفضلوا أن يسموا أنفسهم مسلمين أو مسيحيين ، إذ يرون في ذلك شرفاً لهم بالانتساب إلى المدنية العالمية . ومع ذلك ما تزال الوثنية قائمة بين القبائل التي لا تقبل الهجرة من مواطنها . غير أن تطبيق تداول النقد والمدارس الحديثة والمبادئ السياسية الجديدة قد فعلت فعلها في هدم المجتمع الزراعي وسقوط هيبة رؤسائه وتصدع الوحدة والطاعة المفروضة فيه . وكان تسرب الآراء الحديثة شيئاً فشيئاً أشبه بفيضان غمر أساس تلك الأسوار البالية ، فتداعت أجزاؤها واندفع السيل ليكتسح كل ما وراءها .

كان كسب الإسلام لاقوام جديدة وراء مناطقه العريضة في الشمال وإلى الشرق رائعاً حقاً ، وكانت مطاياها إليها اللغات الواسعة الانتشار في التفاهم وهي لغات قبائل « أولوف » و « بيل » و « ماندانج » و « هوزا » والسواحيليين وكذلك كان للتجارة التي تنقلها القوافل شأن يذكر . . .

وأما المسيحية فقد رسخت أقدامها على الساحل الجنوبي وثبتت أصولها فيه وهي تتقدم منه للقاء الإسلام وجهاً لوجه لتعرض زحفه إلى الجنوب . ترى أيهما ينتصر ؟ الإسلام الشرق أو المسيحية الغربية ؟

يتنبأ البعض بأن مصائر أفريقيا كلها تتوقف على ما يتضمنه جواب هذا السؤال ..

إلا أن المسألة بهذا الوضع فيما استهانة بطرافة العقلية الأفريقية ، بدليل ظهور الطوائف المستحدثة ذات التعاليم المختلطة ، وطوائف المتنبيين ، التي أثبتت أن الوثنية القديمة لم تنقرض بل ما تزال باقية تبدل وتحول طبيعة كل شيء تمسه يدها ويتبين من ذلك أن أمثل الطرق أزماءها هو تلقيحها بالتدخل فيها والتمشي معها ، وليس العمل على القضاء عليها . أن النفسية الأفريقية التي يتغلب فيها الوعي العنصرى أكثر من الوعي القومى تستطيع أن تسمع صوتها للعالم على لسان أديان شتى ولهذا لانستطيع التكهن بمصائرهما التي تبدو فى أنواع عديدة مثقلة بالسورة الدينية التي تذر بالانفجار ..

والحقيقة القائمة فى العصر الحاضر هى تكاثر الطوائف الدينية فيها ، بشكل يذكّرنا بتكاثر الكنائس الدينية الشرقية بعد عصر القديس بولس وحتى هؤلاء الزنوج الذين ظن أنهم أصبحوا بمنأى أمين عن عاداتهم القديمة وانهم تخلصوا إلى غير رجعة من قبيلتهم ، واستقلوا برأيهم وشخصيتهم ، ما تزال العقلية الجماعية مهيمنة على تفكيرهم فهم يحنون إلى التجمع ويحسون بحاجتهم إلى حماية الجماعة والتعبئة لها ، إذ أنهم لما تجردوا من أواصرهم القبلية لجأوا إلى الدين بحثاً وراء أواصر جديدة . فاذا أخطأهم الدين انحازوا إلى حركات التحزب السياسية . وحتى هذه الأحزاب السياسية نفسها تنشأ تشد السند والقوة من الوجدان الدينى أو تجد نفسها مغمورة به دون أن تسعى إليه .

إن روح الطاعة للسلطان المطلق الديني متأصلة من قديم في نفس
الزنجي الإفريقي بدرجة لا يرضيه معها الانتقال بين عشية وضحاها إلى
فردية ذات آراء ناقدة متشككة ولهذا فهو شديد التعطش إلى المشاعر
الجماعية ، أياً كانت مبادئها ، وأياً كانت تبعيتها .

لقد انتقلت أفريقيا السوداء من طور الخضوع القبلي إلى طور
الإقدام واحتمال المسؤوليات . ومن هنا كانت (دراسة الأديان)
بأوسع معاني هذه الكلمة ، من أجدى الأساليب الحديثة لاستكمال
الكشف عن أفريقيا السوداء ..



إحصاء

لا يخفى أن الإحصاء التالي تقريبي لا يدل على العدد بالذقة وإنما يعطى فكرة عامة مقارنة عن الكتل الدينية .
والأرقام عن المسيحية مصدرها نشرات البعثات التبشيرية (وفيها تضارب أحياناً) وقد رجعنا في إحصاء
المسلمين إلى مقال (المسلمون في العالم) الذي ظهر في نشرة دورية (ملاحظات ودراسات في الوثائق رقم ١٦٤٣
لعام ١٩٥٢) . .

مع زيادة نسبية في الأعداد تتمشى مع التكاثر الطبيعي للسكان منذ ذلك التاريخ .

بروتستنت	كاثوليك	مسلمون	وثنيون	المناطق
١٨٠٠٠٠	٦٦٠٠٠٠	٨٠٠٠٠٠٠	٩٣٠٠٠٠٠	أفريقية الغربية الفرنسية وتوجو
٢٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠٠	غامبيا وسيراليون
٣٥٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠	١٥٠٠٠	٤٥٠٠٠٠٠	ساحل الذهب

تابع (الإحصاء)

المناطق	وثقون	مسلون	كاثوليك	بروتستنت
ليبيريا	٢٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠
نيجيريا	٩٠٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠٠٠
كامرون	٢٠٠٠٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠٠
أفريقيا الاستوائية الفرنسية	٣٠٠٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠٠٠	٥٤٠٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠٠٠
الكنغو البلجيكية — ورواندا	٩٠٠٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠٠٠	٤٠٥٠٠٠٠٠٠	١٢٠٠٠٠٠٠٠
سكان أعلى النيل	١٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠٠٠
الجبشة الغربية (زنج)	١٠٠٠٠٠٠٠٠٠	—	—	—
أفريقيا الشرقية البريطانية	١١٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠
أفريقيا الوسطى البريطانية	٦٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠
المستعمرات البرتغالية	٨٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠
اتحاد جنوب أفريقيا (زنج)	٦٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	—	٦٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٣٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠
المجموع بالتقريب	٧٢ مليون	٢٥ مليون	اقل من ٢٠ مليون	

﴿ فهرس الكتاب ﴾

القسم الأول

صفحة

٩

العقائد الموروثة

- ١٠ الفصل الأول — الشخص والاسلاف والطبيعة
(١) القوى الحيوية والشخص ١٠ (ب) الاسلاف والجماعة ٢٠
(ح) الطبيعة ٣٣
- ٤٤ الفصل الثاني — مجمع الالهة، والعبادات وفكرة الكون
(١) مجمع الالهة ٤٤ (ب) العبادات ٥٢
(ح) فكرة الكون وأساطير نشأته ٦٥
- ٧٤ الفصل الثالث — التلقين وعلم السحر
(١) التلقين والجمعيات الدينية ٧٤، ٧٧ (ب) الكهانة والسحر ٨٦
- ١٠٢ الفصل الرابع — خصائص وتطور الوثنية الزنحية

القسم الثانى

صفحة

الدينان الجديدان

١٢٢	الفصل الاول — الاسلام
١٣٤	(١) انتشار الاسلام ١٢٢ (ب) مناطق الاسلام الحالية
١٤١	(ح) مظهر الاسلام عند الزنوج
٥١٥	الفصل الثانى — المسيحية وحركة التنبؤ
	(١) انتشار المسيحية (ب) الكنائس المستقلة — كنائس المتنبيين
	المذاهب المستحدثة ١٧٦
١٨٩	خاتمة
١٩٣	احصاء

الخرائط

١٢١	(١) توزيع الاديان فى أفريقيا الغربية
١٥٠	(٢) قبائل الزنوج فى أفريقيا الغربية
١٥٤	(٣) الممالك الاسلامية القديمة فى أفريقيا الغربية
١٨٧	(٤) توزيع الاديان فى أفريقيا الاستوائية وأفريقيا الجنوبية
	ملاحظة : يرجع إلى الخرائط فى أسماء القبائل والاماكن

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنى: حسن كامل
التصميم الأساسى للغلاف: أسامة العبد



دراسة متعمقة لتنوع أشكال الديانات الوثنية فى
غرب القارة الأفريقية وشرقها وحوض وادى النيل
وجنوب القارة، ولدخول الإسلام ثم المسيحية من
بعد وتأثرهما بالموروث الدينى، مع التنبيه إلى
الأهمية القصوى للدين فى بنية النظام السياسى
والاجتماعى والاقتصادى لشعوب القارة السمراء.

هذا الكتاب تأكيد على أن دراسة الديانات هى
أحد الأساليب الحديثة لاكتشاف أفريقيا.